كلمة قوافل

* عبدالله بن إدريس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في نسيج كل شعب، وفي طوايا التاريخ لكل أمة، من شوامخ العبقرية الإنسانية ما يعيد للتاريخ حيويته ونضارته، وللأمة مجدها التالد مع ما تضيفه من طارف المستفاد من عصرها الذي تعيشه آنياً.

وهذا ما كانه وصاره الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ـ رحمه الله ـ الذي شاءت إرادة الله وحكمته ولطفه ورحمته بأهل هذه الجزيرةالعربية أن يمكن فيها لهذا القائد التاريخي الفذ، حتى ينفض عنها غبار الزمن، ويغسلها بماء الإسلام الطهور، ويعيد إليها إشراق العقيدة، ووضاءة الشريعة الإسلامية، بعد زمن التقهقر والانفلات لانعدام السلطة الحاكمة القوية في طول الجزيرة العربية وعرضها.

لم تكن حركة الملك عبدالعزيز في استرداد مدينة الرياض يوم ٥ شوال عام ١٣١٩ هـ ـ وهي المناسبة التي نحتفل بها الآن بمرور مئة عام عليها ـ لم تكن حركته لاسترداد ملك آبائه وأجداده ـ مع مشروعيته لو كان وحده الهدف ـ بقدر ما هي حركة إصلاح شاملة لأوضاع الجزيرة العربية التي كانت تعيش على هامش الحياة الأممية منذ انتقلت الخلافة من أرضها إلى أرض الشام في خلافة بني أمية.. ثم إلى العراق خلافة العباسيين، وأصبحت الجزيرة العربية شبه مهملة من هاتين الخلافتين وما تلاهما كالخلافة العثمانية.

قلت في دراسة لي بعنوان (الملك عبدالعزيز كما صوره الشعراء العرب): إن حكم الملك عبدالعزيز قام على ثلاثة أسس هي:

١ ـ الدعوة الإسلامية السلفية، وتطهير العقيدة مما علق بها من أوضار الخرافات والبدع والأضاليل.

٢ ـ توحيد الجزيرة العربية كمقدمة لبناء الوحدة الإسلامية.

٣ ـ إحياء أمجاد الجزيرة العربية، وإعادة مكانتها التاريخية في العالم.

وقد تحققت له هذه الأهداف الرئيسة من خلال تأسيس هذه الدولة العظيمة (المملكة العربية السعودية) والتي استمدت عظمتها من سلامة العقيدة، ومن تحكيم الشريعة الإسلامية في أمور حياتها الدينية والدنيوية.

وحينما تحتفل المملكة هذا العام بإكمال مئة عام على تأسيسها الذي بدأ باستعادة مدينة الرياض من أيدي مغتصبي حكمها، فإنما هي بهذا الاحتفال تجدد ذكرى ما كانت عليه البلاد قبل هذا التاريخ من مظاهر الفوضى والضياع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والتشتت والسلب والنهب وانعدام الأمن والاستقرار، ثم ما أصبحت عليه بعد هذا التاريخ من تطور حضاري نهضوي شامخ، وأمن واستقرار، وشعور بالأخوة الوحدوية الراسخة.

وهذا العدد الخاص من (قوافل) الذي نصدره بهذه المناسبة مع إصدارات أخرى ستواكبه من هذا النادي ـ هو قليل من كثير يجب أن يصدر بهذه المناسبة، وهو يحتوي بحوثاً كبيرة ورائعة لعدد من المختصين والمسئولين والمثقفين في هذه البلاد، حرصنا أن يكون إسهاماً متميزاً من خلال الأقلام المتميزة التي تعاونت معنا بعطائها الذي نعتز به.

من ذلك: بحث الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، وزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، بعنوان (الملك عبدالعزيز والدولة الإسلامية في العصر الحديث) تحدث فيه عن بداية نشأة الدولة السعودية الأولى. ثم ركز حديثه على موضوعين رئيسين هما:

١ ـ الملك عبدالعزيز وعناصر التفرد والتفوق بين ملوك عصره.

٢ ـ الملك عبدالعزيز وإعادة صياغة الدولة الإسلامية.

وبسط الحديث في هذين المحورين بسطاً وافياً جميلاً.

أما الشيخ الأديب الأستاذ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، فقد تحدث عن موضوع فلسفي عميق تحت عنوان (عبدالعزيز ومعنى أن من الملك رحمة)، بناه على بدهيتين:

«**الأولى**: أن الدولة السعودية ملك رحمة لا جبرية، لأنها أسست دولة شرعية

لم تكن موجودة، ولم تكن على أنقاض دولة قائمة بأمر الله من أجل السلطة.

والبدهية الثانية: بدهية معنى الحق التاريخي لعبدالعزيز في تصميمه على الجهاد والمغامرة والفداء..» إلخ.

وأما الدكتور عزت خطاب، فقد قدم قراءة جديدة لكتاب (الطريق إلى مكة) للصحفي النمساوي الأصل (ليوبولد فاس) اليهودي الديانة، والذي اعتنق الإسلام وحسن إسلامه واتخذ لنفسه اسم (محمد أسد). وقد اختار الدكتور عزت لبحثه في هذا الكتاب عنواناً مستخلصاً من مضمون الكتاب (الطريق إلى مكة) وهو (في الطريق إلى ابن سعود) ليباشر القارئ بالهدف المراد.

و(الإعلام في عهد الملك عبدالعزيز) للدكتور إبراهيم العتيبي يتحدث فيه عن مراحل الإعلام في ذلك العهد حديث الباحث المتمكن، الذي أضاء ببحثه جوانب ما كانت معروفة للمثقفين والإعلاميين في الوقت الحاضر، وهو يتحدث عن الإعلام عامة. بينما الدكتور يوسف بن إبراهيم السلوم يضيء لنا جانباً آخر في الإعلام على عهد الملك عبدالعزيز، وهو (الإعلام الحربي في المملكة العربية السعودية).

ومن أجل ألا يكون هذا العدد (الخاص الممتاز) من (قوافل) محصوراً كله في المناسبة المئوية، فقد رأينا نشر محاضرة الدكتور محمد عبده يماني وزير الإعلام سابقاً، والتي ألقاها عندنا في النادي الأدبي بالرياض في العام الماضي بعنوان (كيف ندخل القرن القادم؟)، ولقرابتها بما نحن بصدده، ولأهمية هذه المحاضرة القيمية الموضوعية، فإنه يسعدنا بحق أن ننشرها هنا لما تضمنته من

رؤى جديدة، وأفكار نيرة بناءة وصريحة إلى حد أنها بمثابة صرخة في آذان النوام العرب..! بدليل أننا - كما يقول - (ندخل القرن القادم بصورة أسوأ من القرن الماضي: ١ - بدون رؤية، ٢ - بدون تخطيط أو استشعار لأبعاد المستقبل، ٣ - بدون تكتل، ٤ - بدون تعليم يأخذ أبعاد المرحلة القادمة، ٥ - بدون أي محاولة للابتكار).. إلخ.

وللشعر نوطة في العقل والوجدان، ولأن الشاعر المجيد عبدالله بن سعد اللحيدان أهدى إلينا قصيدته الرائعة (مع الملك عبدالعزيز).. وهي من أروع القصائد التي تمثل وتصور الملك عبدالعزيز في أجلى ما يكون التمثيل العبقري لعبدالعزيز، والتصوير الفني للشاعر اللحيدان.. لذلك ننشرها هنا تقديراً للمناسبة وللشاعر معاً.

ويتضمن هذا العدد من (قوافل) الفصل الرابع من رواية (الحصاد) للزميل سليمان الحماد، و(في شعرية الشعر السعودي - دراسة في العناوين) للدكتور خليل الموسى، وهو بحث أدبي ممتع في عناوين الدواوين والمجموعات الشعرية، ونشره هنا يدخل ضمن ما نرغب أن يكون عليه هذا العدد، من تنوع في الموضوعات، بحيث لا يكون (المحور) الواحد هو المهيمن من الغلاف إلى الغلاف.. ومن الله نستمد التوفيق.

عبدالله بن إدريس

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الملك عبدالعزيز
والدولة الإسلامية في العصر الحديث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* معالي د/ عبدالله بن عبدالمحسن التركي

تبدو حياة الأمم والدول مثل حياة الأفراد في تقلبها بين أطوار النشأة والقوة والضعف، وقد تنبه عالم الاجتماع المسلم عبدالرحمن بن خلدون في مقدمته الشهيرة إلى هذه الحقيقة، فتحدث عن طور النشوء، ثم الارتقاء، والتطور، ثم بعد ذلك الضعف والزوال في الدول والممالك. فهذه الأطوار سنة اجتماعية وتاريخية، غير أنها لا تنتهي حتماً بانتهاء الدول والممالك، فقد تستعيد قوتها وازدهارها بعد ضعف قد يمتد عشرات السنين أو عدة قرون.

ولم تتخلف هذه السنة التاريخية والاجتماعية في أمة الإسلام التي نشأت بظهور الإسلام في أواخر القرن السادس الميلادي، وهي الأمة التي قامت دولتها

في المدينة النبوية بعد الهجرة النبوية، على يد النبي ﷺ قوية فتية بعقيدة التوحيد تضم خير أمة أخرجت للناس.

وفي خلال القرن الأول الهجري ـ وهو خير القرون ـ بسط الإسلام حضارته على ممالك ودول، كانت تنتمي إلى إمبراطوريات وحضارات سابقة، فغلبت حضارة الإسلام على أهل تلك البلاد، وكان مركز الإشعاع الديني والحضاري في القرن الأول الهجري هو عاصمة الدولة الإسلامية، المدينة النبوية، أو الكوفة، أو دمشق.

كانت الدولة في نشأتها في شبه الجزيرة العربية، ثم مدت حدودها، وبسطت نفوذها خارج شبه الجزيرة، ونشرت أنوار الرسالة التي تحملها بكمال مضامينها العقدية والتشريعية والأخلاقية، تلك الرسالة التي ختمت بها الرسالات والنبوات، فلا دين إلا الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد كان اتساع الدولة الإسلامية في القرن الهجري الأول يغلب عليه نشر الإسلام والدعوة إليه، وكانت الإمبراطوريات الكبرى في العالم القديم وقتذاك، فارس والروم، هي أكبر العقبات في سبيل انتشار دعوة الإسلام، فكان لا بد من فتح الطريق أمام الدعوة إلى الله؛ ولذلك وقع التصادم بينها وبين دولة الإسلام الصاعدة، ثم انتشر الإسلام في الأقاليم التي كانت تابعة للفرس والروم بوصول الدعوة إليها، وقد كانت شبه الجزيرة العربية هي المركز والنواة التي امتد منها نور الإسلام إلى ما حولها، وإلى المغرب العربي، وقد تحددت صورة العالم العربي بالإسلام، وهذه حقيقة تاريخية أصبحت واقعاً جغرافياً بعد ذلك.

وخلال قرون عديدة بعد القرن الأول الهجري ازداد انتشار الإسلام، وبلغ أقاليم خارج الوطن العربي، امتد فيها إلى شبه الجزيرة الهندية، وإلى أواسط آسيا والجنوب الشرقي فيها، وبلغ الصين، فضلاً عن امتداده بالاتصال والانتقال إلى بقية قارة أفريقيا، وبدأت تتشكل صورة العالم الإسلامي إلى جانب البلاد العربية في المشرق والمغرب العربي، والتي تمتعت دائماً بوضع متميز، باعتبار شبه الجزيرة العربية هي مبعث الرسالة (في مكة المكرمة) ومنشأ الدولة (في المدينة النبوية) ومقر الخلافة الإسلامية منذ بدايتها في المدينة، وبعد انتقالها في الكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة.

وقد انحسر سلطان الخلافة الإسلامية، التي كانت عربية المنشأ والهوية بعد ضعف الدولة العباسية، وانتهائها سنة (٦٥٦ هـ)، وحكم المماليك أقاليم من الدولة الإسلامية، وكان لبعضهم أثر مميز في الدفاع عن الإسلام ضد هجمات التتار وغيرهم، وانتهى الأمر بانتقال الخلافة الإسلامية من القاهرة، وقد كانت تنسب اسماً إلى الخليفة العباسي أو الفاطمي، إذ إن الزحف العثماني كان قد بدأ على بلاد الخلافة الإسلامية، ووقعت مصر في أيدي العثمانيين سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)، وأصبح الخليفة المسلم من آل عثمان، وأصبحت الأستانة (إستانبول) دار الخلافة الإسلامية، وبلاد العرب كلها خاضعة للخلافة العثمانية.

ولم تنل شبه الجزيرة اهتماماً يذكر من هذه الخلافة، عدا اهتمامها بالحرمين الشريفين تأكيداً لوضع العثمانيين ونفوذهم الديني، وظل وسط شبه الجزيرة على الحياة القبلية والتفرق والانقسام والتخلف الديني والحضاري عدة قرون، حتى أذن الله للدولة السعودية أن تظهر في القرن الثاني عشر الهجري

(الثامن عشر الميلادي) ١١٥٧ هـ (١٧٢٨م)، على يد الإمام محمد بن سعود رحمه الله، وصاحَبَ نَشأة الدولة حركةُ التجديد الديني على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه اله، وخاضت الدولة السعودية منذ عهد الإمام محمد بن سعود إلى عهد الملك عبدالعزيز آل سعود ـ رحمه الله والذي بدأ سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢م) ـ كفاحاً ونضالاً مريراً وانتصارات وهزائم حتى توحدت المملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز رحمه الله، في ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ بمقتضى الأمر الملكي ذي الرقم ٧١٦ .

ذكرنا ما تقدم، بإجمال وبإيجاز شديد، لأنه معروف ومسطور في كل ما كتب عن نشأة المملكة العربية السعودية في العصر الحديث والدعوة الإصلاحية التي عاصرت نشاطها، وتمتعت بحمايتها، وأصبحت نهجاً متميزاً لها، ولكن أهم مرحلة في تاريخ شبه الجزيرة، وفي تاريخ المملكة في العصر الحديث بالذات، هي مرحلة عصر الملك عبدالعزيز آل سعود، والتي امتدت نصف قرن منذ دخوله الرياض سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢م)، إلى وفاته رحمه الله سنة ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣).

ماذا قدم الملك عبدالعزيز آل سعود لشبه الجزيرة العربية في العصر الحديث خاصة وللعرب والمسلمين عامة؟.

نتكلم عن ذلك من خلال الموضوعين التاليين:

١ ـ الملك عبدالعزيز وعناصر التفرد والتفوق بين ملوك عصره.

٢ ـ الملك عبدالعزيز وإعادة صياغة الدولة الإسلامية.

١ ـ الملك عبدالعزيز وعناصر التفرد والتفوق بين ملوك عصره:

من الحق أن يقال: إن حياة الملوك والقادة العظام في التاريخ الإنساني تتأثر في روايتها بالكثير من بواعث العاطفة، فالشخصيات التاريخية تبدو في عصرها صانعة لأحداث كبيرة تؤثر في حياة ملايين البشر، ويمتد تأثيرها عشرات وربما مئات السنين، ولذلك فإن الكثير مما يروى عن الملوك والقادة العظام في التاريخ الإنساني يكون بحسب رؤية الناس والمؤرخين للأحداث الكبرى التي صنعوها أو شاركوا في صنعها، كما أن آثار هذه الأحداث في حياة الناس تؤثر أشد التأثير في تقديرهم لعظمة تلك الشخصية، وتميزها في عصرها، ومن الحق أن نقرر أن حياة الملك عبدالعزيز رحمه الله، والأحداث الكبرى التي تمثل حياته وسيرته في شبه الجزيرة العربية قريبة العهد، وأثرها شديد الوضوح في حياة الناس، ولذلك فإن التعرف على جوانب تلك الشخصية والأحداث الكبرى في حياتها يبدو ميسوراً، وأقرب ما يكون إلى الدقة في الرواية أو التحليل.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالملك رحمه الله عاش حياته في القرن الرابع عشر الهجري، أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وفي النصف الأول من القرن العشرين (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣م)، وهو عصر دُوِّنت أحداثه الكبرى، وَوُثِّقت ونشرت وقائعها على المستوى العام يوماً بيوم، والأثر الذي أحدثه الملك عبدالعزيز في حياة الناس في شبه الجزيرة ما زال باقياً وشاهداً على عظمة تلك الشخصية وقدرتها على تغيير الواقع الذي عاشته، وتخطيه إلى تصور المستقبل والإعداد له، ومن اللازم لنا أن نذكِّر بذلك؛ لأن حياة الملك عبدالعزيز كتب عنها الكثير، وفي بعض ما كتب وقائع

وأحداث تبدو أمام البعض كما لو كانت من قبيل المبالغة في تصويرها، أو غلبة العاطفة في الحكم عليها أو تحليلها، ولكن الإنصاف يقتضي منا أن نذكر ذلك؛ لأن حياة الملك لم تكن خافية على أحد في أي مرحلة من مراحلها، فقد عاش وسط الناس، وحقق أعظم إنجازاته بينهم ومعهم، ونشرت وقائع حياته على الناس في عصره، وكتب عن أعماله الصديق والعدو، والمسلم وغير المسلم، والعربي وغير العربي، لم يكن في حياة الملك رحمه الله، على امتدادها وكثرة أحداثها، خفاء في أي جانب من جوانبها منذ نشأته الباكرة وحتى وفاته، بل إن ميزة الوضوح والظهور في حياة الملك تمثل جانباً كبيراً من جوانب التفرد والتميز، فالمبالغة أو الأسطورة في حياة المشاهير من الناس لا تنشأ إلا في ظل الخفاء والغموض في حياتهم، وقد كانت حياة الملك عبدالعزيز رحمه الله واضحة ظاهرة، ليس فقط أمام خاصته من الناس، بل أمام الناس جميعاً، بحكم اتصاله وحياته بينهم، وبحكم موقعه وقدره الكبير في نفوس الناس، وأخيراً بسبب ما أتاحته وسائل النشر والإعلام في عصره من التعريف به ومتابعة الأحداث التي شارك في صنعها في شبه الجزيرة العربية، أو على مستوى العالم العربي والإسلامي كله.

لم تكن نشأة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود مثل نشأة ملوك عصره والقادة الكبار فيه، فالملوك والأمراء في سنن الملك والإمارة يرثون منذ ولادتهم ما حققه آباؤهم من مجد، وينعمون في نشأتهم الباكرة بمظاهر الملك والإمارة وحياتها الناعمة، ولكن الملك عبدالعزيز ولد في عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦م) في قصر الإمارة بالرياض، وفي السنوات الأولى من حياته كان أبوه

الإمام عبدالرحمن يدافع عن دولته في عاصمتها الرياض ضد ابن رشيد الذي كان يتجه إلى الاستيلاء عليها، لم يتمكن الإمام عبدالرحمن من الصمود في الرياض بعدما بدت أمارات انتصار ابن رشيد، وعزم الإمام على الرحيل من الرياض مع أهله.

خرج الإمام مجتازاً الصحراء ومعه ابنه عبدالعزيز في صباه، كان ذلك أول ما وعاه الملك عبدالعزيز عن الدولة التي بدت مهددة بالضياع من أبيه، وربما وعى - وهو في سنه الباكرة - أن مجد الحكم الموروث عن الآباء والأجداد لا ينبغي أن يضيع أبداً، واستقر في وعيه أن تكون حياته وقفاً على استرداد ذلك المجد العظيم الذي تحقق على أيدي آبائه وأجداده، ألا وهو إقامة دولة الإسلام في أرض الإسلام.

ليس ذلك بعيداً عما روي من أخبار الملك في صباه الباكر، فقد روى حافظ وهبة، وهو من القريبين له: أنه سمع من بعض أصدقائه الكويتيين الذين رافقوا الملك في صباه، أنه كان يفوقهم نشاطاً وذكاء، ويتزعم نشاطهم، وأنه كان يميل إلى سماع تاريخ جده الإمام فيصل، من الشيوخ المسنين. كما روى خالد الفرج: أن الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين سأل الملك يوماً - وهو صبي - يريد ملاطفته -: قطر أحسن أم البحرين؟ فأجاب الفتى على الفور: الرياض أحسن منهما، فقال الشيخ: سيكون لهذا الغلام شأن[1].

لقد تعلق الملك منذ صباه الباكر بالأرض التي شهدت مجد آبائه وأجداده، وبسيرتهم المشهورة في شبه الجزيرة، وقد تعلم الملك في صباه الباكر استخدام

السلاح وركوب الخيل، وعهد به أبوه الإمام عبدالرحمن إلى أحد المعلمين، عبدالله الخرجي، فتعلم قراءة القرآن، وحفظ بعض سوره، وتلقى بعض أصول الفقه والتوحيد على يد معلم آخر، هو الشيخ عبدالله بن عبداللطيف، وذلك على قدر ما يسعه إدراك الصبي من المعارف الدينية.

عاش الملك عبدالعزيز، رحمه الله، في البادية حيث الحياة شاقة، أرضاً ومناخاً وأهلاً، فقد لجأ أبوه الإمام عبدالرحمن إلى البادية، وقد أعطت حياة البادية لعبدالعزيز قدرة على تحمل المشاق والصبر على المعاناة، تعلم ذلك وهو صبي، وقد كان أبوه في إقامته في البادية، لا يجد راحة العيش أو راحة النفس، فأهل البادية مع خشونتهم وجفائهم يُخشى منهم الغدر، وتقلب الأهواء، وغلبة الطمع والجشع، ولذلك فإن الإمام عبدالرحمن أوفد ابنه عبدالعزيز إلى حاكم البحرين، ونجحت سفارة عبدالعزيز في أن تغادر نساء آل سعود إلى البحرين، وربما كان ذلك تحسباً لما يعتمل في نفس الإمام عبدالرحمن من رغبة في إعادة الكرة لاسترداد الرياض، وقد كان ذلك بعد رحيل أسرته إلى البحرين في سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١م)، وقد حاول مصاولة ابن رشيد، ولكنه هزم في واقعة حريملاء، فعاد إلى البادية.

وقد حاول الإمام عبدالرحمن أن يلجأ إلى الهفوف في الأحساء، وكانت تابعة للترك، فأرسل ابنه عبدالعزيز في مطلع شبابه، في سفارة إليهم، ولكنهم أبوا أن يأذنوا له بالإقامة في الهفوف، خوفاً من غضب ابن رشيد، وانسجاماً مع سياسة الترك مع آل سعود وقتذاك، وانتقل الإمام عبدالرحمن إلى قطر مع أسرته لعدة أشهر، ثم إلى الكويت سنة ١٣١٠ (١٨٩٢م) وأقام فيها مع أسرته.

كان الملك عبدالعزيز منذ صباه وشبابه يتحمل المكاره، ويعاني قسوة الحياة وكثرة التنقل، من الرياض مستقر آبائه إلى البادية حيث شظف العيش، وجفاء البداوة، وندرة الصاحب والتابع، وخوف الغدر من المضيف. وفي الفترة التي قضاها عبدالعزيز بالبادية، وفي الربع الخالي في صحراء قاحلة موحشة، لم يرد ذكر فيما قرأناه من سيرة حياته أنه كان متبرماً أو ضائقاً بحياته تلك، على ما فيها من شقاء وحرمان، ويبدو أن الصبر على المكاره كان من طباعه الأصيلة، لقد أوفده أبوه في سفارتين: إحداهما إلى البحرين، والأخرى إلى الأحساء للتخلص من العيش المر وقلة المعين، وعاش عبدالعزيز مع أبيه في قطر أشهراً، وتعلم من البادية، ومن سفاراته التي أوفده أبوه فيها، ومن إقامته متنقلاً وراحلاً، الشيء الكثير، ووعى أنه أمير من آل سعود، وأن أمامه هدفاً لا يستطيع نسيانه أو التخلي عن تحقيقه مهما كانت الصعاب والعقبات، ومن يحتمل ما لقيه عبدالعزيز في صباه الباكر وفي مطلع شبابه مما روينا جانباً منه، لا بد أن يتهيأ لتحقيق أعظم الأهداف، وأشدها جهداً ومشقة.

لا نستطيع أن نحدد ملامح شخصية الملك عبدالعزيز، استناداً إلى ما مر من أحداث صباه وشبابه البكر، فلم تكن تلك الأحداث وحدها كافية لتوضيح تلك الشخصية التي تكونت، وتحددت خلال عشرات السنين، ومن خلال أحداث كبرى، ووقائع كان لها أكبر الأثر، وأعظم التأثير في حياة شبه الجزيرة العربية، لم يكن التعليم الديني الذي تلقاه الملك في صباه، وهو تعليم أولي، كافياً لكي يجعل منه أعظم ملوك عصره دفاعاً عن التوحيد، وإخلاصاً في إقامة حكم الشرع في ربوع مملكته الواسعة، ولم يكن ما لاقاه من شظف العيش وتقلب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأيام في صباه الباكر ومطلع شبابه غريباً على أهل شبه الجزيرة، كما أن الملك تحمل في كفاحه من أجل توحيد المملكة من المشاق والمعاناة وجراح الجسد والنفس ما يعد أكبر وأشد مما عاناه في تنقله بين البادية وغيرها من بلاد شبه الجزيرة، ولكننا نستطيع أن نقول عن هذه المرحلة من حياة عبدالعزيز: إنها مرحلة الوعي بنفسه وقدره وما ينتظر منه لدينه ولبلاده وأسرته وقومه، لقد كان ـ ومنذ صباه ومع تنقله وترحاله ـ يتطلع دائماً إلى الرياض حيث نشأ طفلاً، وكان أبوه إماماً على دولة عاصمتها الرياض، عاصمة الصحراء، وظل وجدانه معلقاً بالعودة إليها أميراً مع أبيه، فقد كانت الرياض تمثل بالنسبة إليه أملاً وهدفاً للحياة لا يستطيع أن ينساه أو يتخلى عنه.

في الكويت التي عاش فيها عبدالعزيز عدة أعوام تعلم الكثير، وكان أمير الكويت يأنس له، ويحسن استقبال أبيه الإمام عبدالرحمن، وفي هذه المرحلة اختلط الأمير الشاب بحكام الكويت وغيرهم ممن يفدون إليهم من الشرق أو الغرب، وعرف أساليب السياسة من خلال المجالسة، والسماع.

كان آل الصباح، والشيخ مبارك أمير الكويت من خصوم ابن رشيد، وهنا نلمح ذكاء عبدالعزيز السياسي، وهو ذكاء مبكر، إذ كانت تلك الخصومة التي بين آل الصباح وابن رشيد دافعاً لعبدالعزيز لأن يعرض على أمير الكويت، وكان ذلك بلا شك مما يناسب أمير الكويت، أن يشغل ابن رشيد بالقتال، واندفع عبدالعزيز إلى الرياض ودخلها فعلاً، ولكن جيش حليفه أمير الكويت هزم شر هزيمة في معركة "الصريف" في ١٧ ذي القعدة عام ١٣١٨ هـ (١٩٠١/٣/٧م)، ولم ير عبدالعزيز أن يبقى في الرياض حتى لا يتحول إليه ابن رشيد بكل قوته

بعد أن هزم أمير الكويت، وشتت جيشه، فترك عبدالعزيز الرياض وعاد إلى الكويت.

وربما كانت هذه التجربة شديدة التأثير في عبدالعزيز، لقد دخل الرياض فعلاً، وهزم حامية ابن رشيد فيها، ولكنه لم يغفل عن التدبير السياسي، فانسحب منها خشية أن يضطره ابن رشيد للخروج منها مهزوماً، وهكذا بدأت حنكته وتدبيره في مواجهة الأحداث، وكان ما يزال في مطلع شبابه.

ونحن نفضل حين نتحدث عن الملك عبدالعزيز رحمه الله، وفي شأن شخصيته وتفردها وتميزها بين ملوك عصره، وبين ملوك وأمراء الإسلام منذ قرون، أن نتخذ منهجاً نعتقد أنه الأصوب والأفضل في بيان جوانب هذه الشخصية التاريخية في تاريخ الإسلام والعروبة معاً، هذا المنهج يقوم على معرفة الأخلاق والطباع الأصيلة التي عاش بها ولها الملك في حياته كلها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان الملك أحد رجالات المسلمين، عربياً أصيلاً، عريق النسب في العروبة في شبه الجزيرة، قاتل الملك في معارك عديدة لتحقيق أهدافه، وتعدد حلفاؤه وخصومه، وتولى منذ شبابه الإمارة والإمامة والسلطان والملك، ولاية أمر المسلمين سنوات طويلة.

حين نريد أن نتحدث عن شخصية الملك لا بد أن نعرف كيف كان عبدالعزيز رحمه الله مسلماً صادقاً، وعربياً أصيلاً، ومقاتلاً شجاعاً نبيلاً، وسياسياً محنكاً، وزعيماً مطاعاً، وملكاً عادلاً، وولياً لأمر المسلمين، رعى مصالحهم، وأدى لهم حقوقهم، وتحمل الأمانة، وبذل جهده في خدمتهم.

إن وقائع حياته منذ نشأته الباكرة وصباه تكشف تلك الجوانب فيه، ونحن - إن شاء الله - نزنها بالميزان الأقسط والأقوم عند الله والناس، ميزان الإسلام، ونقّومها بقيم العروبة الأصيلة، فقد كان عبدالعزيز، في نظر الجميع، المسلمين وغيرهم، ملكاً عربياً مسلماً تفرد وتميز بين ملوك عصره وزمانه، وأهلته مواهبه وميزاته لتحقيق إنجازات كبرى في تاريخ العرب والمسلمين الحديث.

أجمعت المصادر التاريخية عن الملك عبدالعزيز على حقيقة لا تحتاج في ظهورها إلى إثبات أو برهان، حقيقة أوردها الكاتبون من المسلمين والعرب وغيرهم، وهي أن الملك رحمه الله كان مسلماً صادق الإيمان والإسلام.

ذكر الأستاذ عبدالحميد الخطيب في كتابه "الإمام العادل" وهو من أتباع الملك المخلصين: أن الملك كان يبدأ يومه بصلاة الصبح وتلاوة القرآن، ثم ينظر في مصالح الناس حتى يصلي الظهر، ويستريح حتى قبيل العصر، فيعقد المجلس العام، وفيه يستمع إلى درسين: أحدهما في تفسير كتاب الله عز وجل، والثاني في الحديث الشريف، ويخرج الملك للنزهة وترويح النفس، ويصلي المغرب جماعة، ثم يجتمع بالعلماء والأعيان والزوار، ولا يخلد الملك إلى النوم إلا بعد أن يطلع على أحوال مملكته وكبريات الأحداث في العالم، ينقلها له تابعوه من خاصته المكلفين بذلك.

ويقول الأستاذ الخطيب: إن الملك كان لا ينام من الليل إلا ثلثه، وكان طعامه قليلاً، ولباسه بسيطاً، وفي استقبال زائريه يقف لهم تكريماً وتلطفاً، وفي معاملته مع أولاده الصغار يعنى بهم، ويجيب طلبهم، وفي زواجه كان يهدف إلى كثرة النسل وتأليف قلوب من يطمعون في شرف الصلة به من مشايخ العرب، فيتزوج

بناتهم، ويكرم زوجاته، ويرعى من يفارقها، فلا يجتمع عليها الفراق وتغير أحوال العيش، وهذا كله من صدق الإيمان وفضائل الإسلام.

وكان لسانه ـ رحمه الله ـ رطباً بذكر الله، يكثر من الذكر والشكر في حديثه، وفيما يسطره من خطاب لأحد من الناس.

وقد أورد خير الدين الزركلي في كتابه «الوجيز في تاريخ الملك عبدالعزيز»: أن الملك عبدالعزيز كان يبدأ يومه بالصلاة وقراءة القرآن الكريم، ويقرأ ورد الصباح، وكان رحمه الله يتعبد ويتهجد، وكثيراً ما كان يسمع له نشيج، وكان له مجلس عام يقرأ عليه فيه فصول من الكتب في التفسير أو الفقه. وذكر خير الدين الزركلي: أنه كان قليل الطعام، شديد الحياء، مع ملكه وسلطانه، وله سيوف يعتز بها، ويكره الملك أن يجامله الجالسون بالموافقة على ما يقول، دون تفكير أو مناقشة، وكان يكره العبوس، ولا يرى إلا والبشاشة في وجهه، لا يخص بها حاشيته وخاصته، ويذكر لمحدثيه لطائف ونوادر تدل على معرفته وحكمته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويحكي عن الملك: أنه عاقب مرة أحد أبنائه الصغار؛ لأنه لم يصل الصبح جماعة، فقد كان يحرص على تعليم أبنائه الصلاة في جماعة، ويروى عنه: أنه كان يكره أن ينسب إليه فضل، إلا أن يرجع أصله ومصدره إلى الله تعالى، وروي عن بره بأهله الكثير، لا سيما بره بوالديه، حتى إنه كان لا يسير فوق الغرفة التي يقيم فيها أبوه، حياء وتواضعاً وبراً، ويتخذ مجلساً من أبيه يعلي مكانة الأب كما قال دير مولني[٢].

وذكر المستشرق النمساوي ليوبولد فايس: أن ابن سعود مسلم قوي الإيمان. ووصفه أحد كبار الكتاب المصريين، الأستاذ أحمد الصاوي محمد: بأنه يمثل الإيمان في أجمل وأكمل أشكاله، واعتماده الأول والأكبر على ربه ثم على نفسه.

وذكر المؤرخ الإنجليزي كنيث وليم، نظام حياة الملك اليومي، وهو يبدأ بالصلاة وتلاوة القرآن بما يتفق مع ما ذكره خاصته عنه(٣).

لن نفيض في ذكر ما حكاه المؤرخون والكاتبون عن الملك، وإنما نبادر بذكر ما تحمله تلك الروايات من دلالة تؤكد على أن الملك عبدالعزيز رحمه الله، كان مسلماً صادق الإيمان، عاش حياته رجلاً مسلماً يعتز بدينه، ويؤدي شعائره ومناسكه وعباداته، ويتخلق بأخلاق الإسلام، وأهم من ذلك أن نذكر أنه في زمان ابن سعود وملوك عصره، لم يوجد هذا النموذج في المشرق أو المغرب العربي، وكان من توفيق الله تعالى أن يوجد هذا الملك المسلم في بلاد الحرمين الشريفين، وأن يكون ملكه وسلطانه في الديار المقدسة التي بعث فيها رسول الإسلام ﷺ، ونزل القرآن، وقامت دولة الإسلام.

وإذا كان العرب هم نواة الإسلام، وأول من قاموا بنشره، فإن ما ذكرناه من سجايا الملك ينم عن عروبة أصيلة، فقد جعل للتقاليد العربية مقاماً كبيراً في تسيير أمور الدولة، كما يقول جورج أنطونيوس، وجعل للمشورة من أتباعه وخلصائه ووزرائه مكانة كبيرة في حياته، فهو ـ كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله ـ: يحكم الأمة بمشيئتها، ولو انفرد برأيه في حكمها، لأنه لن

يصدر في هذا الحكم إلا عن مألوفاتها وعقائدها، كما وصف بالتواضع والتسامح وإكرام الضيف والعفو عن الخصوم عند القدرة.

هذا هو الملك عبدالعزيز آل سعود العربي المسلم في حياته الخاصة والعامة.

وفي أخلاق المقاتل العربي والمسلم نجد الكثير في شخصية الملك عبدالعزيز، لقد كانت معاركه عديدة، ومثل كل أبطال التاريخ واجه المشاق والصعاب، وذاق أحياناً مرارة الضعف أو الغدر أو حتى الهزيمة وهو يواجه الأعداء، ولكنه لم يتخل عن الهدف، ولم ينكسر عوده أبداً، فقد ظل صلباً في الحق الذي يطلبه، بدت شجاعته في دخوله الرياض في شهر شوال عام ١٣١٩ هـ (١٩٠٢/١/٥م)، قاتل بسيفه، وقاد بحنكته، وانتصر بعزيمته على خصومه في مقر سلطانهم، وفي عقر دارهم، ولم يكن غافلاً عن خطورة ما يعرض له وما يهم به، يحكي خير الدين الزركلي في كتابه الوجيز في تاريخ الملك عبدالعزيز: أنه ترك ممن يقودهم ثلاثة وثلاثين رجلاً، وجعل قيادتهم لأخيه محمد، وانطلق هو مع سبعة أفراد إلى قصر المصمك مقر عجلان والي ابن رشيد، ومما يدل على وعيه بخطورة الأمر ما قاله لهؤلاء الذين تركهم ليلاً: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا لم يصل إليكم رسول منا غداً، فأسرعوا بالنجاة، واعلموا أننا قد استشهدنا في سبيل الله».

هذا نموذج مقاتل من الرعيل الأول في الإسلام، حرصاً على جنوده، واقتحاماً للمخاطر، ومعرفة بالخطر، واستعداداً له، وإقبالاً عليه بنية خالصة لله عز وجل، وبعد دخول الرياض ترك فيها معظم جنوده، واتجه مع عدد قليل وأفراس قليلة العدد للقاء ابن رشيد، واستطاع أن يهزمه في السلمية في ربيع

الأول سنة ١٣٢٠ هـ، وفي أحد لقاءاته مع ابن رشيد في أوائل ذي الحجة سنة ١٣٢١ هـ (أواخر سنة ١٩٠٤م) كان معه جمع من أهل البادية، تسلل أكثرهم حينما علموا بقصده لقاء خصمه القوي، فلم يتردد، وسار في طريقه، وعسكر بجنده قرب عنيزة، ودخلها في الخامس من محرم سنة ١٣٢٢ هـ، ثم دخل بريدة في ربيع الأول من العام نفسه.

وفي معركة البكيرية غرب القصيم في ربيع الثاني سنة ١٣٢٢ هـ، اتحدت قبائل شمر مع الترك العثمانيين يقاتلون ابن سعود وأهل العارض، وقتل كثيرون من جيش عبدالعزيز، وجرح هو في القتال، ولم تكن هزيمته عامة أو قاصمة، فقفل عائداً إلى عنيزة، وبعد ذلك بقليل وقعت معركة الشنانة في ١٨ رجب سنة ١٣٢٢ هـ، وتوطدت أقدام الملك عبدالعزيز في نجد، وغنم الكثير من خصومه، فقسم الغنائم على جنده، وانتهى الأمر بعد معركة الشنانة بمعركة أخرى في روضة مهنا في شهر صفر ١٣٢٤ هـ (١٤/٤/١٩٠٦م) اشتبك فيها جند عبدالعزيز آل سعود برجال عبدالعزيز بن رشيد، وقد قتل فيها ابن رشيد، وهي المعركة التي تعرف بذبحة ابن رشيد، ولما طلب أهل القصيم أن يحكمهم عبدالعزيز بدلاً من الأتراك العثمانيين، ووقع النزاع بين عبدالعزيز ومندوب الأتراك خيره عبدالعزيز بين أن يجلو بجنده عن حائل إلى بلدة السر حتى يبتعد عن ابن رشيد، وبين أن يبعده عبدالعزيز بالقوة، فرضي القائد العثماني بالرحيل طوعاً، وكان ابن سعود كريماً في معاملة جند خصومه، فشكره السلطان العثماني على معاملته عساكر الدولة، وهكذا كان عبدالعزيز مسلماً، يعرف قدر الجندية، ويحفظ كرامة خصمه عند الضعف أو الهزيمة.

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

وفي سيرته مقاتلاً كان يستعلم عن الطرق التي كان عليه أن يعبرها وموارد المياه فيها، ويرسل من يأتونه بخبرها، ولا يجعل أحداً من الجند وراء مخيمه، بل عن يمينه وشماله، ويجعلهم متقاربين، فإذا فاجأهم العدو قاتلوا مصطفين متراصين ـ وكان كما قال ـ: على استعداد لأن يكون جندياً بسيطاً يقاتل في سبيل الله لتوحيد كلمة العرب (٤).

ولم يترك عواطفه نحو إخوته حتى في أوقات الشدة والفتنة، فقد حدث أن الشريف حسيناً رحل إلى بادية عتيبة في سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢م)، وكان أخو الملك سعد بن عبدالرحمن فيها، فاستبقاه الشريف حسين ليساوم به الملك، وهمَّ بأن يرحل به إلى الحجاز، فاضطرب الملك عبدالعزيز، لأنه ظن أن أخاه أسير أخذ غدراً، فأنذر شيوخ عتيبة إن هم تركوا الشريف حسيناً يرحل إلى الحجاز، ومعه سعد، أن يحاربهم بلا هوادة، وانتهى الأمر بأن كتب الملك عبدالعزيز تعهداً بأن يدفع إلى الدولة العثمانية ستة آلاف مجيدي سماها قصاصة ورق.

هذه الواقعة تكشف عن خلق الملك عبدالعزيز، فهو المقاتل الجسور، ولكنه الأخ العطوف الذي لم يتردد في الاستجابة بالمال حتى يعود أخوه إليه، وأخوه هذا هو الذي دافع عنه بحياته في الهفوف بعد ذلك، وقتل دفاعاً عنه.

ومنذ أول عهده بالمعارك وبالقتال، اتبع فيه ما يوجبه الإسلام على المقاتل المسلم، فقد عفا عن أتباع ابن رشيد الذين كانوا في الرياض بعد أن استولى عليها عنوة، وأمر أتباعه ألا يؤذوا شخصاً جاءهم مستسلماً، وألا يكشفوا ستراً لامرأة(٥).

ولم يكن المقاتل المسلم عبدالعزيز آل سعود يعرف الحقد على خصمه، فالحقد من شيم الضعفاء، ولكنه كان يعرف قدر خصومه، ويجالدهم بشرف، ويعفو عنهم عند انتصاره عليهم، وحين آل أمر ابن رشيد ومن معه إلى الضعف، بعثوا بأحد رجالهم إلى عبدالعزيز، للاتفاق حول شروط التسليم، فأكرم الملك رسولهم، وعفا عنهم جميعاً مع أتباعهم، وأسكنهم، وأنزلهم منازلهم، فأصبحوا من أتباعه.

هكذا كان الملك عبدالعزيز رحمه الله في أخلاقه، مقاتلاً مسلماً يعرف فنون القتال، كما يعرف آدابه التي سنها الإسلام، ولقد انتصر في معاركه التي خاضها مع خصومه، ولم يؤثر عنه غدر، ولا جبن، ولا قسوة في التعامل مع أعدائه، فكان انتصاره على خصومه في غالب الأحيان وسيلة إلى هدايتهم، وجمعهم تحت رايته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي عصر الملك عبدالعزيز، وفي الممالك العربية التي تحيط بشبه الجزيرة، لم يكن من الملوك والرؤساء من أقام مملكته بحد السيف ودهاء السياسة، مثل عبدالعزيز الذي حارب في معاركه كلها من أجل توحيد شبه الجزيرة، وإقامة شرع الله فيها.

ولقد كانت فكرة الدفاع عن التوحيد والحكم بالشريعة ذاتها غائبة عن الملوك والرؤساء في زمانه؛ إذ كان الاستعمار الغربي قد ألغى فكرة الدولة الإسلامية؛ لكي تحل محلها الدولة القومية، التي رسم هو حدودها في المنطقة، وفي مثل تلك الظروف كان يصعب على ملوك العصر أن يعملوا في سبيل التوحيد أو الوحدة العربية، أو يمنعوا غيرهم من تقسيم بلادهم، وكان من المستحيل عليهم أن

يحاربوا بسلاحهم في سبيل ذلك الهدف، ولكن الذي فعل ذلك على الرغم من كل الظروف والعقبات رجل واحد من رجالات المسلمين وأفذاذ العرب، هو: عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود.

وكان من أبرز عناصر التفرد والتفوق في الملك عبدالعزيز، حنكته السياسية التي مكنته من تحقيق إنجازاته الكبرى في شبه الجزيرة وفي العالم الإسلامي عامة، ولقد تعلم أول مبادئ السياسة، وهو في مطلع شبابه من سفاراته التي أوفده أبوه فيها، ثم من إقامته عدة سنوات في الكويت، ولم تكن السياسة لدى عبدالعزيز تختلط بالغدر والنفاق ونكث العهود، كما كانت لدى كثير من ملوك وأمراء العصر، فالسياسة لدى الملك عبدالعزيز كان لها مفهومها الإسلامي، وهو السعي لأن تكون الأمور أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، ولقد كان يواجه خصومه بالحلم والكياسة والسياسة، قبل أن يبدأهم بالقتال، فكان القتال آخر وسائله في بلوغ غاياته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا نستطيع أن نحصر مواقف الملك التي تدل على حنكته السياسية، وهي مواقف تعلمها من تجاربه مع خصومه الألداء، كان من خصومه بعض الأعراب في نجد، والأتراك من خارج شبه الجزيرة، وبعض الحكام في نواحي شبه الجزيرة، والقوى العالمية أحياناً، وقد اتسعت مداركه السياسية ليواجه كل خصم بالسياسة التي تؤدي إلى تحقيق الغاية، دون أن يفرط في الهدف أو ينحرف في الوسيلة.

وفي معارك الملك مع ابن رشيد، نجد للسياسة أعظم الأثر في نجاح الملك في توحيد نجد وبقية أجزاء المملكة، فبعد أن استولى الملك على الرياض بنفر

قليل من أتباعه، وضع في اعتباره ما يحيط بالرياض، ويجاورها من مناطق، وقصد إلى إخضاعها لسيطرته، وبينما كان عبدالعزيز يفكر ويتدبر في أمر تحركه بعد الرياض، كان خصمه عبدالعزيز بن متعب بن رشيد لم يفق بعد من سكرة النصر على حاكم الكويت في معركة الصريف، وظن أن أمر عبدالعزيز في الرياض هين لا يستحق القلق من جانبه، ولما بلغه الخبر أعلن عن استهانته بالاستيلاء على الرياض، وأنه قادر على إخراج عبدالعزيز منها بعد حين، وفي ذلك الوقت كان عبدالعزيز يجمع حوله القبائل، ويشن الغارات على المناطق القريبة من الرياض، وتتوالى انتصاراته في الحوطة والخرج والأفلاج والقصيم وحائل، وكان رسله إلى تلك القبائل تمهد له الطريق، والنصرة حين يكون قتال.

لا نستطيع أن نحصي الوقائع والمواقف التي تثبت حنكة الملك عبدالعزيز السياسية، فقد كان عصره يزدحم بالأحداث الكبرى التي صنعها الملك، أو شارك في صنعها، أو فرضت عليه، كانت القوى الكبرى الإنجليز والألمان والأتراك، يمارسون أعمالهم في شبه الجزيرة وما حولها، طلباً للمغانم أو النفوذ، وكانت الفتن في قلب الجزيرة، ولم يكن التصدي لذلك بالسيف وحده كافياً أو شافياً، كان لا بد من السياسة، وأكبر دليل على المهارة السياسية أن الملك عبدالعزيز رحمه الله استطاع توحيد المملكة، وإقامتها دولة مستقلة على الرغم من وجود القوى العالمية والفتن الداخلية، ولم يستطع ذلك غيره من ملوك العصر.

كان الملك عبدالعزيز إلى جانب الإمارة والسلطان والملك الذي أقامه في المملكة، إماماً للمسلمين بها، ولفظ الإمامة كما نعلم ـ فضلاً عن معناه اللغوي ـ له دلالة دينية واضحة.

لقد تمت البيعة الأولى لعبدالعزيز آل سعود في سنة ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢م) بعد دخول الرياض، وقد تنازل له أبوه الإمام عبدالرحمن عن الحكم، وأهدى إليه سيف الإمام سعود الكبير، وقد جددت البيعة لعبدالعزيز في المؤتمر الذي انعقد في جمادى الأولى سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨م)، حين أجابه العلماء والزعماء بالبيعة على السمع والطاعة، ومقاتلة من يشاء عن شماله ويمينه، ومحاربة الباغي حتى يفيء إلى الرشد، وبذلك جدد الناس ولايته لأمورهم وطاعتهم له[٦].

في كتاب الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفقيه الحنبلي (المتوفى ببغداد سنة ٤٥٨ هـ)، وردت صفات الإمامة التي ينبغي أن تتوفر في الحاكم، وما ينبغي أن يقوم به، وهي حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، وتنفيذ الأحكام، والفصل بالعدل بين الناس، وإقامة الحدود، والاستعداد للدفاع، واليقظة للعدو، والجهاد في سبيل الله، وجباية الفيء والصدقات، وتقدير العطاء وما يستحق في بيت المال، من غير إسراف ولا تقصير، وتولية الأمناء، وتقليد النصحاء، وأن يباشر بنفسه تصفح الأحوال، ويهتم بسياسة الأمة، وحراسة الملة.

إذا رأينا مسلك الإمام عبدالعزيز رحمه الله طيلة حياته، ومنذ تنازل أبوه الإمام عبدالرحمن عن الحكم، وجدناه يتمتع بكل خصال ولي الأمر المسلم، ولا حاجة بنا إلى إثبات أن الإمام عبدالعزيز رحمه الله، قد حفظ الدين، وأقام الحدود، وحمى أرض المسلمين، وجاهد في سبيل الله، وحكم بالعدل بين الناس، واهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة، بما لا يدعي مثله أحد من ملوك العصر

ورؤسائه وزعمائه في كافة البلاد العربية، فقد كان حكم عبدالعزيز قائماً على الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة، وكان لا يدع فرصة يصرح فيها بذلك أمام شعبه إلا انتهزها، حتى رسخ في شعبه أن دستوره ونظام حياته، وكل أنظمته، أصلها ومرجعها الكتاب والسنة.

وتلك ميزة أعطاها لبلده الملك عبدالعزيز، ففي عهده ـ ومع انشغاله الدائم بالعدو من الخارج والفتنة من الداخل ـ أقام حكم الشريعة كاملاً، ولم يكن ذلك قائماً في أي بلد عربي، ولا في أي بلد من بلاد المسلمين؛ إذ اجتاحت بلاد المسلمين في المشرق العربي وفي المغرب العربي، موجة عاتية من التغريب والأخذ بنظم الحياة الغربية وأساليبها ـ والناس على دين ملوكهم ـ فسرى ذلك بين الشعوب لما رضيه الملوك والأمراء في ممالك المسلمين، ولم يكن سوى عبدالعزيز من ملوك العصر ورؤسائه، من يرفع لواء الشريعة، ويطبق حكمها في بلاده.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نستطيع أن نقرر أنه من بين ملوك عصره في المشرق أو المغرب العربي، وعلى مستوى العالم الإسلامي، لم يكن يجمع شروط الإمامة، وولاية أمر المسلمين ولاية شرعية كاملة، سوى الملك عبدالعزيز رحمه الله، لقد حورب الإمام عبدالعزيز بن سعود من قبل خصوم الدعوة الإصلاحية، دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كما حورب أجداده من قبل، دفاعاً عن الإصلاح الديني، وحارب الإمام عبدالعزيز خصوماً عديدين، دفاعاً عن الدين، وكانت حروبه من أجل إقامة حكم الدين كاملاً ونقياً، فقد كان الملك عبدالعزيز حريصاً على استمرار منهج الدعوة الإصلاحية، في تنقية العقيدة مما شابها من مظاهر الشرك، وكان

يقيم حكم الشريعة في كل أرض يمتد إليها سلطانه، ولم يكن قتاله من أجل السلطة فحسب، ولذلك فإن ما قام به الملك عبدالعزيز، كان يخيف ويقلق بعض حكام عصره، من المستغربين والمترددين في إقامة حكم الشرع، كما أخاف بعض العلماء، من المستفيدين من الجهل الشائع والخرافة السائدة بين الناس.

يقول الكاتب الجزائري مالك بن نبي، في كتابه وجهة العالم الإسلامي: إن الشيخ عبدالحميد بن باديس ـ من كبار علماء المغرب ـ لما رأى النزاع بين ابن سعود والإمام يحيى ملك اليمن، كتب مقالاً سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤م) يأسى فيه على إراقة الدماء، ولام الرجلين دون تفرقة. ويضيف مالك بن نبي: إن الشيخ لم يفطن إلى أن أحدهما ـ وهو ابن سعود ـ كان يقف في وجه الانحطاط، والتدهور الديني والدنيوي ممثلاً في الإمام يحيى، وكان ابن سعود يقود القوى الروحية والمادية في سبيل النهضة الإسلامية[٧].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي الوقت الذي أقام فيه الملك عبدالعزيز رحمه الله مملكة عمادها القرآن والسنة النبوية، كانت دولة الخلافة تنهار في تركيا، ففي عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م) ألغيت الخلافة، وليس ذلك كل ما يحزن المسلمين، بل إن ما جرى من مناهضة وحرب على الإسلام في شعائره وقيمه وتوجهاته، كان له أبعد الأثر في نفوس المسلمين، إذ أُبعدت لغة القرآن، وحولت بعض المساجد عن غاياتها، وألزم النائب بلباس الغرب وسلوكه، وأريد حصر الدين بين جدران المساجد والشيوخ والعجائز، وخُفضت راية الإسلام؛ لترتفع راية العلمانية.

جرى كل ذلك على مرأى ومسمع من العالم الإسلامي كله، مشرقه ومغربه،

ومن الغريب الذي يلفت النظر، ويقدم الموعظة، أن من فعلوا ذلك لم يتصد لهم أحد من العالم الإسلامي، بينما قاد الملك عبدالعزيز رحمه الله نهضة الإسلام والمسلمين في شبه الجزيرة وسط قوى استعمارية لا تُكن للإسلام خيراً، وبين معارك داخلية وفتن لا أول لها ولا آخر، من الخصوم ومن الأتباع أحياناً، ولكن الله نصره؛ لأنه كان بين ملوك المسلمين وحكامهم، ولي أمر المسلمين، الحافظ لدين الله والمدافع عن شرعه والراعي لأمته.

هذه لمحات وسطور عن الملك عبدالعزيز رحمه الله المسلم الصادق، والمقاتل المسلم، والسياسي المحنك، وولي الأمر القائم بحفظ الدين ومصالح المسلمين، وفي هذه السطور يبدو تفرد الملك عبدالعزيز وتميزه عن ملوك عصره وحكام المسلمين وقتذاك.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولقد تفرد الملك عبدالعزيز في خلقه بجميل الصفات، ولا نريد أن ننقل ما حفلت به المراجع وما نقله الناس عن كرمه وحلمه وعفوه وصبره على المكاره، وشدته في الحق ولينه أمام ضعفاء الناس، واستشارته العلماء وأصحاب الرأي، ونزوله على حكم الله في كل أموره، فتلك كانت صفاته منذ مطلع شبابه، واصطحبها أميراً وسلطاناً وملكاً، كما جمع إلى جانب أخلاق الإسلام، مكارم العروبة التي ينتسب إليها.

وعلى الرغم مما واجه الملك عبدالعزيز من شدائد في القتال أو السياسة، فقد تمسك بحكم الشرع، وحفظ قيم العربي الأصيل، ويكفي أن نذكر مثالاً واحداً على ذلك، هو إجارته لرشيد عالي الكيلاني الزعيم الذي فر من الإنجليز بعد أن ثار عليهم في بلاده، فلما لجأ إلى الملك عبدالعزيز ـ وكان ذلك دون علم

الملك الذي فوجئ بمن يلجأ إليه، ويأوي إلى مملكته ـ أجاره، وامتنع عن تسليمه للإنجليز، وأصر على ذلك، على الرغم من الإلحاح وشدة الطلب، ولم يذكر الملك عبدالعزيز رحمه الله لما طلبوا إليه تسليم الزعيم اللاجئ إلا حجة واحدة، هي أن ذلك يتنافى مع شيم العروبة وقيمها، وأنه يجلب على من يسلمه إلى أعدائه، ويرفض جواره، العار إلى الأبد، كل ذلك وسلطان من يطلبون تسليمه مبسوط على أكثر العالم العربي، وهم الإنجليز وقتذاك.

٢ ـ الملك عبدالعزيز وإعادة صياغة الدولة الإسلامية:

أشرنا من قبل إلى تمكن الملك عبدالعزيز آل سعود من توحيد معظم شبه الجزيرة العربية، وإقامة المملكة العربية السعودية، دولة مستقلة ذات سيادة كاملة، وكان ذلك التوفيق يلبي وقتذاك آمال الشعوب العربية كلها في المشرق والمغرب العربي، إذ كانت معظم الدول الإسلامية تخضع مباشرة للقوى الأجنبية الكبرى، أو ترتبط بها برباط التبعية السياسية، بريطانيا، أو فرنسا، أو إيطاليا، أو ألمانيا، أو الدولة العثمانية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومع تلك الظروف استطاع الملك عبدالعزيز أن يقيم دولة حديثة مستقلة، لا تخضع مباشرة أو بالتبعية لإحدى القوى الكبرى، وتبدو عظمة الإنجاز في أن الملك عبدالعزيز آل سعود نجح في التوحيد والتحرير في آن واحد، ووسط ظروف دولية غير مواتية، وحرب عالمية طالت معظم دول العالم، وامتدت إلى أجزاء العالم العربي، وكانت هذه الظروف في مجملها في غير صالح الملك عبدالعزيز رحمه الله، ولكنه استطاع بحنكته السياسية، وحسن تصرفه، أن يجعلها غير

ضارة بمصالحه أو بشعبه، لقد احتمل مع شعبه ما جرته الحرب من ويلات على العالم، ومن ضيق في العيش طال شبه الجزيرة.

وفى أوقات الحروب ـ خاصة إذا كانت عالمية ـ تتبدل الظروف، وتتغير التحالفات، وينال شر الحرب حتى من يريد أن يبتعد عنها.

كان ذلك حال شبه الجزيرة حينما بدأت الحرب العالمية الكبرى سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤م)، وكانت إحدى القوى الكبرى المسيطرة على أطراف شبه الجزيرة العربية، وهي الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية، طرفاً في الحرب العالمية الأولى، إلى جانب ألمانيا، وأثناء الحرب انضم الشريف حسين إلى خصوم العثمانيين في الحرب، وهم الإنجليز، وبينما كان الشريف حسين يسعى للاستفادة من الوقوف إلى جانب الإنجليز الذين وعدوه بالملك على البلاد العربية، كان الملك عبدالعزيز بدهائه وحنكته السياسية يحاول جاهداً أن يجنب بلاده ويلات الحرب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان الملك عبدالعزيز على علاقة طيبة مع الحلفاء، ومع ذلك لم يدخل بلاده والمناطق التي كان يسيطر عليها في حرب عالمية.

وفي أثناء الحرب العالمية عقد الملك مع ممثل للحكومة البريطانية معاهدة القطيف عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٥م)، وهي على غرار المعاهدات التي كانت تعقدها بريطانيا مع إمارات الخليج، ولما كانت هذه المعاهدات بين طرفين غير متكافئين، بريطانيا صاحبة اليد الطولى في المنطقة العربية، وإمارات صغيرة يحكمها شيوخ وفق نظام قبلي، فإن هذه المعاهدات كانت تعطي لبريطانيا نفوذاً وحماية لهذه الإمارات مقابل اعترافها بهؤلاء الشيوخ، وقدر قليل من المساعدات.

وقد عقدت معاهدة القطيف تحت ظروف غير مواتية للملك عبدالعزيز، الذي لم يكن على أية حال مثل غيره من الشيوخ، إذ كان يحكم مناطق شاسعة في شبه الجزيرة، وأثبت في داخل شبه الجزيرة وعلى المستوى الدولي أيضاً، وفي مواجهة القوى الكبرى في المنطقة، قدراته العسكرية والسياسية، ولذلك كان يضيق بتلك المعاهدة حتى عقدت اتفاقية جدة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧م)، وأقيمت العلاقات فيها بين الملك عبدالعزيز وبين الحكومة البريطانية، على أسس سليمة من الصداقة، وحسن التفاهم، ومعاملة الند للند، وهكذا كان الملك عبدالعزيز آل سعود في علاقاته مع القوى الكبرى يعمل جاهداً لحفظ استقلال بلاده، ولا يرفض أن يكون هناك تعاون يخدم المصالح، أو يحقق السلام.

ولا شك أن الملك عبدالعزيز، وقبل أن يتمكن من توحيد المملكة، كان في قرارة نفسه يتطلع إلى أن يكون نداً لكل القوى في المنطقة، حتى يستطيع أن يحرر بلاده ويوحدها، ولم تكن القوى الكبرى المسيطرة، وأهمها البريطانيون الذين كانوا يسيطرون فعلاً، والعثمانيون الذين كانوا يحكمون اسماً، لترضى بأهداف الملك عبدالعزيز ولا تطلعاته، ولكن الملك استطاع بدهائه السياسي أن يحقق التوحيد والتحرير، دون أن يدفع شعبه ثمناً باهظاً، وساعده على ذلك أن العرب لم يكونوا راضين عن تلك القوى الكبرى كلها، وكانوا يقاومونها سراً أو علناً، فكانت الفرصة مهيأة لقائد سياسي وعسكري شجاع وملك مسلم من شبه الجزيرة، أن يؤسس الدولة الموحدة والمحررة في آن واحد.

حينما دخل الملك عبدالعزيز الحجاز، ودان له بالطاعة في ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥م)، أصدر الملك عبدالعزيز بلاغاً هاماً، أعلن فيه الأمان لأهل البلاد

للحجاج، ونصح فيه باتباع الأمن، والسكون في ربوع الديار المقدسة.

وقد أصدر الملك عبدالعزيز التعليمات الأساسية الخاصة بتعريف الدولة وشكلها، وكان هذا النظام أول ما صدر عن الملك عبدالعزيز خاصاً بالدولة، وكان من إملاء الملك عبدالعزيز نفسه بمكة المكرمة، وذلك في شهر صفر ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦/٨/٢٨م)، وقد نشر هذا النظام في الجريدة الرسمية باسم (التعليمات الأساسية).

ومن أهم ما ورد في التعليمات الأساسية:

١ ـ أن المملكة مرتبطة ببعضها ارتباطاً لا يقبل التجزئة، ولا الانفصال بوجه من الوجوه.

٢ ـ أن الدولة ملكية شورية إسلامية مستقلة في داخليتها وخارجيتها.

٣ ـ جميع أحكام المملكة تكون منطبقة على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد استطاع الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله، أن يحقق في ظروف غير مواتية في المنطقة العربية كلها، دولة إسلامية كبيرة مستقلة، لها مرجعيتها الأصلية الوحيدة، كما استطاع أن يضع في إعلانه الدستوري، مبادئ الإسلام السياسية الكبرى، وأهمها الشورى، وأنشأ مجلساً للشورى، وعين الأمير فيصلاً (الملك فيصل رحمه الله) رئيساً له، ولا شك أن إدراك الملك لأهمية النص على أن الدولة شورية، يكشف عن فكر سياسي متقدم عن عصره، بالنسبة لكثير من البلاد العربية وقتذاك، والتي كانت تتردد بين إهمال الشورى الإسلامية، وبين

الأخذ بتقليد النظم الغربية في الحكم، ولكن الملك بسبب إرثه الكبير من الإسلام والعروبة، لم ينجرف في تيار التقليد لنظم الحكم غير الإسلامية، وآثر أن يرسخ مبادئ الإسلام السياسية، وأهمها الشورى بمفهومها الإسلامي، ولا شك أن ذلك ساعده كثيراً على تخطي عقبات وصعوبات في تحديث المملكة، ومقاومة ما قد ينشأ من فتن داخلية بحزم، عن طريق استشارة العلماء وأصحاب الرأي في البلاد، فضلاً عن قيام مؤسسة الشورى في وقت مبكر.

وعين نائباً للملك على مملكة الحجاز، ورأس الأمير فيصل (الملك فيصل رحمه الله) الحكومة ومجلس الشورى، وعين وزيراً للخارجية سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٣٠م).

ونحن نهتم بهذا النظام باعتباره يمثل فكر الملك السياسي، حينما وحد معظم شبه الجزيرة وحررها في آن واحد من كل سلطان أو نفوذ خارجي، وفي عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦م) لم تكن هناك دولة عربية في المشرق أو المغرب العربي تتمتع باستقلالها كاملاً، وكانت وفود بعض الدول العربية على مائدة البحث من غير أهلها، ولم تكن دولة عربية تستطيع أن تضع لنفسها دستوراً تنص فيه على استقلالها ووحدة ترابها الوطني استقلالاً كاملاً، تحدده بنفسها، وأكثر من ذلك لم يكن في إمكان دول المشرق أو المغرب العربي، أن تحدد مرجعيتها الوحيدة في الشريعة الإسلامية، أما تحديث الدولة، فإن شبه الجزيرة كان أقل حداثة من بقية البلاد العربية، قبل عصر الملك عبدالعزيز.

إن هذه النقاط الثلاث: استقلال الدولة، ووحدتها الكاملة، ومرجعيتها الواضحة، شملها النظام الصادر من الملك، وهي تميز الدولة التي أنشأها الملك

عبدالعزيز آل سعود عن الدولة كلها وقتذاك، وفي الحقيقة يمكن أن نقول: إن عبدالعزيز رحمه الله كان ينشئ دولة متميزة في شبه الجزيرة، تتفق وتتسق تمام الاتساق مع تطلعات أهلها إلى دولة مستقلة موحدة يحكمها الإسلام، وكان ذلك أملاً لكل شعوب المنطقة وما زال.

وبعد إصدار النظام، انصرف جهد الملك إلى بناء المؤسسات التي تقوم على شؤون الدولة وخدمة الناس، ولم يكن شيء من ذلك قائماً؛ إذ كانت القبلية السائدة عائقاً أمام إنشاء مؤسسات سياسية، فبدأ الملك بإنشاء الوزارات المختلفة، كوزارة المالية والخارجية وغيرهما، ونظمت العلاقات الدولية على أساس المعاملة بالمثل، والصداقة المتبادلة، وأقيمت السفارات السعودية في كثير من عواصم العالم: لندن، وباريس، والقاهرة، وواشنطن، وغيرها من العواصم العالمية، تأكيداً لاستقلال الدولة، وسيادتها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأقيمت في عهد الملك عبدالعزيز المؤسسات التي تقوم على الخدمات العامة، الصحية، والإدارية، والتعليمية، ونظم القضاء، واهتم الملك بالأمن اهتماماً بالغاً.

وفي الجملة بدأ الملك يستكمل مؤسسات الدولة على النظام الحديث، والمقام لا يتسع لتفصيل ما بدأه الملك من مؤسسات وهيئات، إلى جانب الوزارات التي أنشئت في عهده تبعاً للحاجة.

وبدأ الملك في إقامة جيش نظامي بفروعه المختلفة البرية والبحرية وغيرها.

وإذا كان ذكر المؤسسات السياسية والإدارية التي أنشأها الملك أمراً يعبر عن جهده في إقامة الدولة على أسس سليمة، ووضع أسسها الضرورية، فإن ما

بذله الملك في تغيير المجتمع يعبر عن جهد أكبر، وعمل فريد في نوعه في شبه الجزيرة العربية كلها، إذ أن الملك منذ سنوات طويلة سعى إلى تغيير نمط الحياة القبلية التي عاشها أهل الجزيرة، فأقام الهجر، وعمل على توطين البدو، ومدهم بأسباب العيش وأدوات الزراعة ومصادر المياه، حتى يستقروا في حياتهم، ويتركوا أنماط العيش التي لا تناسب الدولة الحديثة التي أنشأها الملك، ولا تتفق مع أهدافها، وغاياتها، إذ كان نمط الحياة القبلية القائم في معظمه على المظالم الاجتماعية، وتبادل الغارات والسلب والنهب بين القبائل، لا يلبي هدف الملك سياسياً أو اجتماعياً، كما أنه لم يكن يتفق مع الأصول التي يجب أن يقوم عليها مجتمع مسلم، مرجعيته الوحيدة، هي الشرع، ولذلك فإن تحديث الدولة بعد توحيدها كان من أهم أهداف الملك عبدالعزيز.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد صدر مرسوم توحيد المملكة وتسميتها المملكة العربية السعودية في ١٧ جمادى الأولى ١٣٥١ هـ (١٩٣٢م)، وبويع الأمير سعود (الملك سعود رحمه الله) ولياً للعهد، وأوصاه أبوه الملك عبدالعزيز رحمه الله وصية يبدو فيها الطابع الديني، وهو ما يتفق مع شخصية الملك عبدالعزيز؛ إذ أوصاه بإخلاص النية لله عز وجل، والنظر والاهتمام بشؤون من ولاه أمرهم من المسلمين عامة، وأوصاه بعلماء المسلمين خيراً.

وتعبر وصية الملك عبدالعزيز رحمه الله لولي عهده، وخطابه المطول له بإبلاغه ولاية العهد، وتوجيهه، عن أمر له أهميته البالغة في موازين الحكم الإسلامي، فالوصية بما فيها من تذكير بالله، وحض على طاعته، وأمر برعاية أمور المسلمين، والحفاظ على شعائر الدين وقيم الأخلاق، تدل على أن الملك على

الرغم من اطلاعه وخبرته بأحوال الدول العربية في المشرق والمغرب ونظم الحكم التي تسودها، أراد أن يختط للمملكة طريقاً واضحاً في سياسة الحكم، بأن تكون هذه السياسة إسلامية المرجع في نظمها، ودينية التوجه في سلوكها. لم يلتفت الملك رحمه الله، إلى دعاوى الحداثة والتغريب التي كانت تسود المنطقة العربية كلها منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، والتي فتحت الباب لكثير من الشر، وسدت أمام الشعوب باب الخير في أنظمة الحكم وتوجهاتها السياسية والاجتماعية، ولولا الإطالة لنقلنا ما جاء في هذه الوصية التي تعبر عن رغبة الملك في أن يكون السلطان والملك في حقيقته ومضمونه حكماً إسلامياً حقيقياً.

ومن الخطأ البين أن تعتبر المرجعية الإسلامية - الكتاب والسنة - تعبيراً عن قيام دولة دينية بالمفهوم الغربي، فالدولة الدينية بحسب ذلك المفهوم، تعني الدولة التي يتولى السلطة فيها رجال الدين، باعتبارهم «طبقة قائمة بذاتها وبحسب ترتيب درجاتهم الكهنوتية التي تمنح لهم من الكنيسة»، وهكذا كانت الدولة الدينية في أوروبا خلال عصور الظلام من القرن الرابع الهجري إلى التاسع (الحادي عشر الميلادي تقريباً وإلى مطلع القرن السادس عشر).

ولم يعرف الإسلام هذه الدولة التي أزالتها في العصر الحديث تطلعات الشعوب الأوروبية إلى الحكم المدني، بديلاً عن الحكم بالسلطة الدينية في شؤون الدين والدنيا معاً، ولم تتعرض الشعوب الإسلامية للتجارب والثورات التي قامت لتحرير الشعوب الأوروبية من نير الحكم بمقتضى السلطة الدينية دون مرجعية واضحة أو سليمة، إذ أن المسلَّم به لدى النصارى، أن المسيح عليه السلام لم

يؤسس دولة، ولا كان يطمع في سلطة، ولم يناهض الحكم الروماني القائم وقت رسالته عليه السلام، ومن الأقوال المنسوبة إليه: «ليس مملكتي في هذا العالم»، وقوله: «أعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر»، وعندنا ـ نحن المسلمين ـ: أن ملك السموات والأرض لله وحده وأنه المالك لكل شيء.

إن اعتبار الشرع الإسلامي مرجعية الدولة الوحيدة في نظمها وتصرفاتها وتوجهاتها، يعبر عن جانب من الاستقلال الوطني، وهو الاستقلال التشريعي، فالشريعة لدينا ـ نحن المسلمين ـ هي الشرع القائم والدائم والمحقق للمصالح العامة والخاصة، والذي يثق المسلمون في أن الخضوع له خضوع لمشيئة الله ـ عز وجل ـ وإرادته.

ولقد كانت الشعوب العربية بعد أن استقلت عن النفوذ الأجنبي، تتطلع جميعها إلى أن يسود حكم الشريعة، باعتبارها القانون الذي يتفق مع عقيدتها وقيمها الخلقية ومصالحها الحقيقية.

لقد فتح الملك عبدالعزيز بالنص على تلك المرجعية الوحيدة في النظام الذي أصدره الباب أمام الشعوب الإسلامية لتحقيق آمالها، ولا أدل على ذلك من أن ما أورده الملك عبدالعزيز في النظام الصادر عنه سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦م)، كان له صداه في دساتير بعض البلاد الإسلامية، ولكن بعد ذلك بعشرات السنين (المادة الثانية من الدستور المصري سنة ١٩٧١م المعدلة ١٩٨٠م).

وبهذا جاء أول نظام وضعه الملك عبدالعزيز باسم التعليمات الأساسية؛ لأن هذا النظام يمثل فكر الملك عبدالعزيز في الوقت الذي نشأت فيه الدولة موحدة

ومستقلة، وقد أشير إلى ذلك في التعليمات الأساسية، فالمملكة مرتبطة ببعضها ارتباطاً لا يقبل التجزئة، ولا الانفصال بوجه من الوجوه.

وهذا التعبير نص في وحدة المملكة، ووحدة السلطة المركزية فيها، الهدف الأول للملك بعد السنوات الطويلة التي كان يجاهد فيها كل القوى داخلياً وخارجياً، لكي يوحد المملكة في دولة واحدة، ويبدو أن فكر الملك الذي قضى حياته يسعى نحو الوحدة في بلاده عبر عن نفسه في وصف المملكة بأنها: «مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً لا يقبل التجزئة، ولا الانفصال بوجه من الوجوه».

ومن ناحية أخرى، فقد كان الملك حريصاً على تأكيد استقلال الدولة استقلالاً تاماً في داخليتها وخارجيتها، وهذا الفكر أيضاً استقر لدى الملك نتيجة سنوات طويلة من النضال ضد خصوم في الداخل وسياسات في الخارج، لأن شبه الجزيرة قبل الملك عبدالعزيز آل سعود، لم تكن مستقلة داخلياً، أو خارجياً؛ إذ كانت المناطق تخضع لحكم قبلي، أو حكم الأمراء الصغار نتيجة للمعارك التي كانت مستمرة بين حكام المناطق والقبائل، فقد كان استقلال أي منطقة مؤقتاً، تابعاً للظروف التي كانت تزيل هذا الاستقلال بالقتال، أو بالاتفاق، أو الانضمام إلى كيان آخر، إما اسماً أو فعلاً، لسيطرة قوى أجنبية ـ الأتراك أو غيرهم ـ ولم تكن فكرة الاستقلال الوطني التام موجودة لدى الأمراء المتنازعين، أو القبائل المتناحرة في شبه الجزيرة؛ ولذلك فقد ورد استقلال المملكة داخلياً وخارجياً في البند الثاني من التعليمات الأساسية واضحاً وصريحاً، ويعني الاستقلال الداخلي للمملكة: أن تكون السيادة فيها في كل أمورها الداخلية، لمن

يتولون الحكم والسلطة بطريقة شرعية، وهي البيعة، وقد كان ذلك لعبدالعزيز آل سعود، الذي بويع بالملك قبل توحيد المملكة وبعده، وانتفى كل نفوذ قبلي أو عشائري في الأمور الداخلية للبلاد.

ولا شك أن الملك كان يعي ذلك حتى قبل النظام الدستوري، فقد واجه فتناً كانت تتطلع إلى تقاسم النفوذ والمشاركة في السلطة، كما أن الاستقلال الخارجي كان من أهم أهداف الملك، وقد حققه بتدرج وثبات كامل، فقد انتهى كل نفوذ أجنبي يمس سيادة الدولة: نفوذ الأتراك، ونفوذ البريطانيين، وسائر القوى العالمية التي كانت تعمل في المنطقة العربية كلها، وبإيجاز كان التحرير مقارناً للتوحيد.

وفي التعليمات الأساسية للمملكة نجد النص: (على أن الدولة ملكية شورية إسلامية)، والملكية - كما نعلم - نظام سياسي قديم في المجتمعات الإنسانية. أما الشورية والإسلامية - وهما صفتان للدولة التي أقامها الملك عبدالعزيز - فلا تعني أيهما أن الدولة دينية بالمفهوم الغربي، بل تعنيان أنها دولة مدنية تأخذ بمبدأ الشورى، وهو مبدأ إسلامي، وأنها دولة إسلامية تحكم بالإسلام، وكل شعبها يدين به، والدولة الدينية بالمفهوم الغربي يتولاها رجال الدين وبطريقة تؤثر في طبيعة الحكم المدني، وهو ما لم يكن في الدولة التي أقامها الملك عبدالعزيز، جعل مرجعيتها الوحيدة في كل أنظمتها وأحكامها وتصرفاتها هي الشريعة الإسلامية.

فهي دولة إسلامية تجعل الشريعة قانونها ودستورها ونظامها الأساسي، وقد نصت التعليمات الأساسية على أن جميع أحكام المملكة تكون منطبقة على

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح.

إن التعليمات الأساسية التي أصدرها الملك عبدالعزيز، تكشف لنا عن فكر الملك عبدالعزيز، وتصوره للدولة الإسلامية الحديثة، فهي ليست دولة رجال الدين بحسب المعايير الغربية في النظم السياسية، والنص على أنها دولة شورية منذ تأسيسها يعني: أن السلطة فيها بيد من يبايعهم الناس لتولي السلطة، وهو جوهر نظام الحكم الإسلامي الحقيقي، وهذا ما سارت عليه المملكة منذ نشأتها.

واتخاذ الشريعة الإسلامية مرجعاً وحيداً وأساسياً، يعني: أنها أخذت بالتشريع الوحيد الذي يلبي حاجات مجتمعها، ويتفق مع عقيدته وقيمه الخلقية وتقاليده العربية الأصيلة. ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الملك عبدالعزيز رحمه الله، أول من وضع نصاً في نشأة المرجعية الوحيدة للدولة في العصر الحديث، وأنها الشريعة الإسلامية، وقد حمى ذلك الدولة والمجتمع السعودي من الانحراف نحو مرجعيات أخرى طبقت في كثير من الدول العربية والإسلامية منذ بداية القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ولم تنجح في الحفاظ على الهوية الإسلامية، بل ولم تنجح في تحقيق تقدم مادي، أو اقتصادي لهذه الدول. وثمة حقيقة لا بد من ذكرها، وهي أن حركة التغريب التي انتشرت في البلاد العربية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، لم تستطع أن تقتحم المملكة، فقد كان الملك عبدالعزيز طوال رحلة كفاحه في سبيل وحدة المملكة، لا يكف عن التذكير بمرجعية الشريعة وسيادتها على المملكة، بل ولا يكف عن مهاجمة الأفكار المنحرفة التي ينطوي عليها التغريب ثقافياً أو سلوكياً، لقد خاض الملك عبدالعزيز المعركة ضد التغريب منذ وقت مبكر، فحمى

ذلك المملكة من خوض التجارب الفاشلة في المجال السياسي والاجتماعي، هذا الذي واجهه الملك مبكراً هو السبب في نشأة القوى التي تحارب التغريب بعد ذلك بعشرات السنين.

لقد كان لتجارب الملك عبدالعزيز التي خاضها منذ مطلع شبابه وحتى توحيد المملكة أثر بالغ في تكوين فكره السياسي، ولقد حقق بجهده في سنوات طويلة، هذا الفكر في صورة دولة حديثة، موحدة، مستقلة استقلالاً كاملاً، وهي دولة مدنية بحسب المعايير المقبولة في تحديد شكل النظم السياسية، وهي دولة تأخذ بالشورى منذ تأسيسها، وبذلك ابتعدت فكراً وتطبيقاً عن النظم الاستبدادية التي ظهرت وساد بعضها في القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) في بعض الدول الأوروبية، أو حتى الإسلامية، ويرجع ذلك في الأساس إلى التكوين الأساس لشخصية الملك، إذ استطاع أن يقاوم، ويصد كل ما انتشر من فكر سياسي يتعارض مع الإسلام أو مع عروبة شعبه. لقد انتشرت النظم الاستبدادية في كثير من دول أوروبا في الوقت الذي كان الملك عبدالعزيز يؤسس فيه دولته، فمن تلك النظم الاستبدادية النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، وكذلك في أسبانيا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد اختار الملك على الرغم من كل الصعوبات التي كانت تكتنف بناء دولة إسلامية حديثة، اختار الشورى نظاماً سياسياً للمملكة.

بقيت مسألة ارتباط المملكة التي أقامها الملك عبدالعزيز ببقية العالم الإسلامي، ونعني الارتباط السياسي، فقد كانت الخلافة العثمانية حتى إلغائها عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م) تمثل رابطة سياسية إسلامية بين الدول التي سيطرت

عليها الدولة العثمانية، وقد امتدت هذه السيطرة تاريخياً لعدة قرون، وكانت شبه الجزيرة ترتبط بالخلافة العثمانية فعلياً في بعض مناطقها، واسمياً في مناطق أخرى، ولكن الملك عبدالعزيز بعد إقامة دولته الموحدة المستقلة عن الدولة العثمانية، جعل الرابطة السياسية بين مملكته وبين سائر البلاد الإسلامية، «رابطة سياسية دولية»، أي علاقة تقوم بين دول متكافئة ومستقلة، وليس فيها تبعية من دولة لأخرى، وقد كان ذلك تحرراً من النفوذ والسلطة التي كانت تحمل اسم الخلافة المركزية في مقر الخلافة في الآستانة (استانبول)، ولم تكن تلك السلطة شورية، أو إسلامية بالمعنى الدقيق، فقد كانت في عهودها الأخيرة مستبدة تماماً، ولم تكن مرجعيتها الوحيدة في نظمها - داخلياً - وفي سياساتها - خارجياً - هي الشريعة الإسلامية، إذ كانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها، تتجه إلى الأخذ من النظم الغربية في القوانين والسلوك الاجتماعي، بسبب ضعفها وخوفها من الدول الأوروبية، واتجهت إلى التعصب للقومية «الطورانية»، ولذلك اختار الملك عبدالعزيز إقامة دولة إسلامية حديثة، ومستقلة عن رابطة سياسية تمثل التبعية والخضوع.

ونشير هنا إلى أن صياغة الدولة الإسلامية على النحو الذي وضعه الملك عبدالعزيز رحمه الله، لم تتغير في عهد خلفائه من آل سعود وحتى اليوم، بل ترسخت، ونمت، وتوسعت آفاقها.

فالمملكة العربية السعودية دولة إسلامية حديثة موحدة، مستقلة استقلالاً كاملاً، داخلياً وخارجياً، دولة مدنية السلطة والطابع، شورية في سلطاتها، ذات مرجعية وحيدة، هي الشريعة الإسلامية، ونستطيع أن نقرأ بوضوح في نظام

الحكم الأساسي الصادر في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود الصياغة نفسها، لفكر الملك المؤسس، والذي يعني بكل الإجمال والإيجاز: أن المملكة العربية السعودية دولة إسلامية حديثة، موحدة، مستقلة، مدنية، شورية، ذات مرجعية وحيدة وحاسمة، هي الشريعة الإسلامية.

لا تزال المملكة العربية السعودية بفضل من الله، ثم بحكمة قادتها من الملوك أبناء الملك عبدالعزيز، تحمل صفات الدولة الإسلامية التي وضعها الملك عبدالعزيز، دولة إسلامية حديثة، ملكية، شورية، مرجعيتها الوحيدة هي الشريعة الإسلامية، وهي بفضل الله دولة مستقلة استقلالاً كاملاً، ورابطتها بالعالم الإسلامي ودوله العربية ودول العالم رابطة سياسية إسلامية وعربية، تقوم على التعاون والتضامن ورعاية المسلمين في كل مكان، وهذه الرابطة الدولية تعود على المملكة والمسلمين بالخير، فقد أثبتت نجاحها وفائدتها للمسلمين على المستوى الدولي، إذ أنشأت ورعت منظمات دولية إسلامية، أو إقليمية، تتولى توثيق التعاون والتضامن بين المسلمين، أو بين العرب، كالمؤتمر الإسلامي، وجامعة الدول العربية على سبيل المثال، وقد أدى ذلك إلى بروز المملكة العربية السعودية دولة إسلامية عربية حديثة، لها مكانها الفعال على المستوى الدولي فيما يتعلق بالقضايا العربية والإسلامية.

وربما يحار الباحث بعد أن تتضح له خصائص الدولة التي أنشأها الملك عبدالعزيز آل سعود، في معرفة السبب أو الأسباب التي هيأت للملك عبدالعزيز كل هذا النجاح، وإقامة دولة لها خصائص الدولة الحديثة كلها في مجتمع منقسم، لم يكن فيه من قبل سلطة مركزية واحدة.

ومبعث الحيرة ليس فيما واجهه الملك من صعوبات، وما تحمله من جهد في إقامة هذه الدولة، فالذين يتاح لهم من الملوك والسلاطين أن يقيموا الممالك والدول يتحملون في سبيل ذلك الكثير، ويسري ذلك على الدول الإسلامية التي نشأت بعد انتهاء عصر الخلافة الراشدة: الدولة الأموية، والدولة العباسية، ودول الإسلام، ودول المماليك والسلاطين، وانتهاء بالدولة العثمانية.

إن إقامة الدول ليست بالأمر الهين اليسير على الملوك والقادة وعظماء التاريخ، ولكن يميز الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله في إنشاء المملكة العربية السعودية بخصائصها وصياغتها التي ذكرنا عناصرها المميزة من قبل، عدة أمور، تجعل عطاءه للإسلام والعروبة مميزاً بين ملوك العرب والمسلمين في تاريخ الإسلام والعروبة.

أولاً: إن عصر الملك عبدالعزيز ١٣١٩ ـ ١٣٧٣هـ (١٩٠١ ـ ١٩٥٣م) كان عصر انحسار عربي عام، وكان تخلص الدول العربية في المشرق والمغرب من الاستعمار والنفوذ الغربي أو العثماني، هو نهاية الآمال والتطلعات للشعوب العربية، وشبه الجزيرة لم تكن تخلو من النفوذ الأجنبي ـ الغربي أو العثماني ـ فاستطاع الملك عبدالعزيز أن يوحد، ويحرر بلاده في آن واحد من كل نفوذ أجنبي، لم تكن قضية الوحدة العربية واردة إلا في إرهاصات بعض المفكرين في الشام، (ومعظمهم ليسوا من المسلمين)، وربما كانت دعوة القومية التي نشأت بواكيرها في منطقة الشام تتحسب لانحسار النفوذ الأجنبي والخوف على مصالح غير المسلمين من رابطة سياسية تقوم على الإسلام، أو مرجعية وحيدة في المنطقة تتمثل في الشريعة الإسلامية، ومع ذلك استطاع الملك عبدالعزيز أن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقيم دولة موحدة في شبه الجزيرة تقوم على الإسلام وعلى العروبة أيضاً، ولم تواجه هذه الدولة بما ووجهت به الدعوة إلى «دولة الإسلام» في المشرق أو المغرب العربي، لأنها جمعت بين الإسلام والعروبة جمع التكامل وليس التجزئة، ولأن أهل المملكة كلهم من المسلمين، وأصولهم أصول عربية، ولم يكن هناك في وقت من الأوقات أية بواعث دينية أو دعوات قومية تتعارض مع الإسلام أو العروبة في المملكة، كما حدث في بعض البلاد العربية.

ثانياً: كان عصر الملك عبدالعزيز رحمه الله أيضاً عصر انحسار لمرجعية الشريعة، ذلك أن النفوذ الغربي الذي صاحب استعمار المنطقة، استطاع خلال عشرات السنين في بلاد المشرق والمغرب العربي أن يرسخ «التغريب» في الفكر، وفي السلوك الفردي والاجتماعي أيضاً، وعلى الرغم من جهاد كثير من المفكرين المسلمين في أرجاء الوطن العربي، في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر (العشرين الميلادي)، لكي تحتفظ المنطقة العربية بهويتها الإسلامية كاملة، في تشريعها ونظامها الاجتماعي، إلا أن دعاوى التغريب كانت عالية الصوت، وشديدة التأثير في قوانين الدول العربية ونظمها في تلك الفترة، وفي السلوك الاجتماعي لشعوبها، وفي ظل هذا الانحسار والتراجع لمرجعية الشريعة الإسلامية، فكراً ونظاماً اجتماعياً، كان الملك عبدالعزيز رحمه الله، يحافظ على مرجعية الشريعة قولاً وفعلاً، ولم يترك فرصة في خطاب الناس في شبه الجزيرة، إلا وذكرهم بالمرجعية الوحيدة التي يلتزم بها، ويلزم الناس بها في دولته، كما أنه في كل ما كان يواجهه من صعوبات أو خلافات في الرأي بينه وبين الخصوم، كان يلجأ إلى استشارة علماء الشريعة؛ لمعرفة الصواب الذي

كان بفضل الله يلازم تصرفاته مع الخصوم، والأعوان.

ثالثاً: على الرغم من الظروف الدولية السيئة، التي كانت تسود المنطقة العربية في فترة الحرب العالمية الأولى وما تلاها، ابتداء من سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٤م)، والصراع الدولي بين الدول على النفوذ في المنطقة العربية، فإن الملك عبدالعزيز كان حريصاً في سياسته على النظر إلى مصالح شعبه فحسب، ولم يبادر إلى الانحياز لطرف من الأطراف، بقدر ما كان يراعي مصالح المملكة في وحدتها واستقلالها السياسي، ولم يخضع لأي إغراء بذل له، على الرغم من علاقته الجيدة بالحلفاء، وهم الطرف الذي كان له النفوذ الأكبر في أطراف شبه الجزيرة.

لقد ساس الأمور بحكمة أدت في نهاية الأمر إلى توحيد المملكة واستقلالها مع وجود تلك القوى، بل مع اعتراضها أحياناً، إذ لم يكن من مصلحة القوى المتصارعة على النفوذ في المنطقة، أن يظهر فيها حاكم عربي مسلم قوي، مثل الملك عبدالعزيز، ينزع إلى الاستقلال والتحرر من النفوذ الأجنبي، ويقود حركة توحيد في شبه الجزيرة انتهت بالنجاح.

إن نجاح الملك عبدالعزيز يرجع إلى شخصه وما وهبه الله من مواهب، وما تحلى به من صلاح الدين وفضائل العروبة، ولقد كانت شيم الملك حسبما أجمعت عليها المصادر، تمثل الحاكم العربي المسلم الذي تتطلع إليه شبه الجزيرة، بل المنطقة العربية كلها، نظراً لانحسار القوى الإسلامية والعربية وقتذاك، ولذلك كان العرب يستقبلون انتصارات الملك عبدالعزيز بالفخر، والمسلمون يتطلعون إلى الدولة التي على وشك الظهور في العالم الإسلامي

بالأمل في نصرة الإسلام، يظهر ذلك في كتابات الكثيرين، وآرائهم في شخصية الملك عبدالعزيز من معاصريه، أو من عاشوا تحقق الأمل، وقيام المملكة العربية السعودية.

وإذا أردنا أن نحدد سبباً تتوارى خلفه كل الأسباب في نجاح الملك عبدالعزيز رحمه الله، وجدناه في قول الله تعالى، ووعده للصالحين من عباده: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

(١) الوجيز في تاريخ الملك عبدالعزيز، لخير الدين الزركلي، ص ١٧ .

(٢) نقلاً عن كتاب الملك عبدالعزيز (رؤية عالمية)، د. سعد العرابي الحارثي، ص ١٤٧.

(٣) المجع السابق، ص ٣٠٦.

(٤) الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز، ص ٥٥.

(٥) صقر الجزيرة، أحمد عبدالغفور العطار ج ١ ص ٢٦٠.

(٦) صقر الجزيرة جـ ٢، ص ١١٢٠ .

(٧) طبع بيروت، سنة ١٩٧٠م.

عبدالعزيز ومعنى أن من الملك رحمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* الشيخ أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

ورد الخبر الشرعي الصحيح أن الخلافة ثلاثون (والمراد الخلافة الراشدة التي انتهت باستشهاد علي رضي الله عنه)، وأن بعد الخلافة الراشدة أنماطاً من الحكم؛ منها ملك جبرية، وملك رحمة.. ودولة آل سعود ملك رحمة، وتلك خصوصية تليق بخصوصية جزيرة العرب؛ فمن خصوصياتها ـ كما استقرأها شيخنا الشيخ الدكتور بكر أبو زيد ـ أنها دار توحيد خالص في الجملة، وإن دب الخلل في جزء أو أجزاء منها، والكمال أن يخلص لها التوحيد.. ولآل سعود أولوية جمعها على التوحيد بعد تفتت شملها؛ فكان ذلك مصداقاً ـ على الكمال ـ

لقول رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب.. ولكن في التحريش بينهم .. رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه.»

وعلى تأويل من تأول أن المراد جميع الأمة ـوهذا صحيح بغير دلالة هذا الحديثـ فيكون لتخصيص الجزيرة بالذكر معنى بلاغياً، وهي أنها دار الإسلام، ومادة المسلمين؛ فتكون الدولة المتميزة بتحقيق مدلول الحديث، دولة جامعة لأهل أكرم بقعة على أقوم دين؛ فتكون دولة رحمة.

ومن خصوصية الجزيرة حرص الرسول ﷺ أن تكون داراً خالصة للمسلمين؛ لقوله ﷺ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً».. رواه مسلم في صحيحه من حديث عمر رضي الله عنه، ولقوله ﷺ: «لا يبقين دينان في أرض العرب».. متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

وجاء ت الدولة السعودية بخصوصية المنع من منح الجنسية لكافر، وبالمنع من إحداث الكنائس والبيع والصوامع ومعابد الوثنيين.

ومن خصائصها منطوق حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي رواه مسلم في صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها».. فتأسّت الدولة السعودية بهذا الحديث، وكانت مأوى لكل مضايَق في دينه الإسلامي، ولا تصدق الغربة لمن يأوي إليها إلا على من كان سلفياً؛ لأن الغربة غربة ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

قال أبو عبدالرحمن: ومن خصوصيتها أنها دار العرب، والدولة عربية صميمة، والعرب مادة الإسلام لخلائقهم التي لا يزاحمهم فيها أي جنس.. قال شيخنا الدكتور بكر أبو زيد: «وعن خصائصهم تتبعت وقيدت كثيراً؛ فوجدت أن ما وقفت عليه مشمول بما هو مدون في كتاب أم القرى ص ٢١٨ ـ٢٢٢، وعنه في مجلة المنار ٥/٨٦١ـ٨٦٢؛ فها أنا ذا أسوقه باختصار قليل: «وحيث كانت الجمعية لا يعنيها غير أمر النهضة الدينية: بناءً عليه رأت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها، وأهلها ومن يجاريهم، وأن تبسط لأنظار الأمة ماهي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً؛ وذلك لأجل رفع التعصب السياسي أو الجنسي.

ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب، فنقول:

١ـ الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي.

٢ـ الجزيرة فيها الكعبة المعظمة.

٣ـ الجزيرة فيها المسجد النبوي، وفيه الروضة المطهرة.

٤ـ الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية؛ لتوسطها بين أقصى آسيا شرقاً وأقصى أفريقيا غرباً.

٥ـ الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط، جنسية، وأدياناً، ومذاهب.

٦ـ الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.

٧ ـ الجزيرة أفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرار؛ لبعدها عن الطامعين والمزاحمين؛ نظراً لفقرها الطبيعي.

٨ـ عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الإسلامية؛ لظهور الدين فيهم [١].

٩ـ عرب الجزيرة مستحكم فيهم التخلق بالدين.

١٠ـ عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين؛ لأنهم أعرقهم فيه، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان.

١١ـ عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصا على حفظ الدين، وتأييده، والفخار به.. خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز، واليمن، وعُمان، وحضرموت، والعراق، وإفريقيا [٢].

١٢ـ عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفاً، سلفياً، بعيداً عن التشديد والتشويش.

١٣ـ عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية، وأشدهم أنفة؛ لما فيهم من الخصائص البدوية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٤ـ عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تختل عزتهم.

١٥ـ عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنية مهذبة؛ بدليلي: سعة لغتهم، وسمو حكمتهم وأدبياتهم.

١٦ـ عرب الجزيرة أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهم، وأنشطهم على التغرب والسياحات؛ وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله.

١٧ـ عرب الجزيرة أحفظ الأقوام على جنسيتهم، وعاداتهم؛ فهم يخالطون ولا يختلطون.

١٨ـ عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم(٣).

١٩ـ العرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.

٢٠ـ العرب لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم ٣٠٠ مليون(٤).

٢١ـ العرب لغتهم هي اللغة الخصوصية لمئة مليون من المسلمين وغير المسلمين.

٢٢ـ العرب أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق، وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية.

٢٣ـ العرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية(٥).

٢٤ـ العرب أهدى الأمم لأصول المعيشة.

٢٥ـ العرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة، واحترام الذمة إنسانية، واحترام الجوار شهامة، وبذل المعروف مروءة.

٢٦ـ العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين، وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء؛ فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً.

والجمعية تسأل الله تعالى أن يوفق ملوك المسلمين وأمراء هم للتصلب في الدين، وللحزم، والعزم.. عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن يحميهم من التعصب السيء للسياسات والجنسيات، ومن الكبر والأنفة، ومن التخاذل والانقسام، ومن الانقياد إلى وساوس الأجانب الأضداد.. وإلا فينتابهم الخطر القريب المحدق بهم، وتتخاطفهم النسور المحلقة في سمائهم.

والله الموفق، وإليه ترجع الأمور .. انتهى باختصار يسير»[٦].

وقال الشيخ الدكتور بكر: «وقد عقد الله بين العرب والإسلام، ثم بين الحجاز والأمة الإسلامية، ثم بين الحرمين الشريفين وقلوب المسلمين للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر»[٧].

وقال: «سلطان الحاكمية فيها [أي جزيرة العرب] لا يجوز أن يكون لغير دولة التوحيد، وراية التوحيد .. ومن عجائب المقدور ولطائف الحي القيوم، ولأمر خير يريده الله ـ وهو سبحانه أعلم بالأحوال في هذه الأمة المرحومة إن شاء الله تعالى: صار العَلَمُ الولائي في قلب هذه الجزيرة يحمل كلمة التوحيد، وهكذا كان اللواء الأبيض للنبي ﷺ مكتوباً عليه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».. رواه أحمد والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما[٨]؛ ولهذا فإن الأعلام إن نكست ـ ابتداعاً ـ لموت العظماء: فإن هذا هو العلم الوحيد الذي يكون تنكيسه من أشد مواطن الإثم والجناح.

وبالجملة، فلا تساس الأمة بغير شرع الله (الإسلام) كما قال حسان رضي الله عنه:

وما الدين إلا أن تقام شرائع   وتُؤْمَنَ سبل بيننا وهضاب»(٩)

قال أبو عبدالرحمن: إن دولة آل سعود قائمة على بدهيات تؤكد أنها ملك رحمة؛ فهي خير مثال للحكومة بعد قضاء الله الكوني بأن مدة الخلافة الراشدة ثلاثون عاماً من صدر عهود الإسلام .. وعلى الرغم من بدهية تلك المؤكدات إلا أنها تغيب عن بال أكثر الباحثين، وهي ملخصة في التالي:

١ـ البدهية الأولى: من أنواع الدول سواء أكانت ملك جبرية، أم ملك رحمة، أم صورة جمهورية في حقيقة ملك ـ ما قام على أنقاض دولة مسلمة طمعاً في السلطة .. وهذا النمط لم يمر في الحكم السعودي البتة؛ لأن المؤسس الأول محمد بن سعود رحمه الله تعالى لم يقم دولته على أنقاض دولة إسلامية قائمة بأمر الله طمعاً في السلطة؛ بل كانت البلاد مجزأة إلى إمارات على مستوى الحاضرة، ومشيخات على مستوى البادية.. بل كان أمير القرية حاكماً بأمره!!.. والعلماء والفقهاء موجودون في البلدان (بل تتميز بعض القرى بكثرة علمائها في مثل أشيقر) ولكن ليس هناك قضاء شرعي ملزم، وإنما يفتي العالم إذا سئل، ثم ينكفئ على لذاته العلمية مؤلفاً، أو ناسخاً، أو مراسلاً لغيره من العلماء، أو راحلاً إليهم، أو مدرساً.. وقد يرحل إليه بعض طلبة العلم من الآفاق.. ومهمتهم الإمامة في المساجد، والقيام بخطب العيدين والاستسقاء، وبعد ذلك فأثرهم في عموم المجتمع ضعيف، لأنه لا بد للفتوى من دولة تنظمها، ولا بد للقضاء من دولة تلزم به.. وقد يوجد في القرية أمير متدين يلزم بالقضاء، ولكن هذا في النادر؛ بل الأغلب صدور السلوك بغياب القضاء والفتوى أو بعصيانهما.. يظهر ذلك في الحروب التافهة المبيرة بين القرى، وتديُّك الزعماء على أهل القرى بفرض

الجبايات والحمالات.. أما البادية فهي أبعد ما يكون عن سلطة القضاء، والاستضاءة بالفتوى.

وكانت تنمية الإنسان والموارد معدومة ، وكانت الحاجة ماسة إلى الدولة بأي شكل من الأشكال؛ للإبقاء على النفوس والدماء المهدورة في الثارات والسلب والنهب، ولتوحيد الفروسيات والقدرات البشرية لهمٍّ جماعي واحد، ولإزالة آثار ذلك من الخوف والجهل والمرض ـ بقدر ما تسمح به إمكانات العصر ـ والمظالم وضياع الحقوق؛ فجاءت دولة آل سعود، وليست أي شكل من أشكال الدول لكل هذه الهموم الدنيوية أو بعضها.. بل جاءت ملك رحمة لكل هموم الدنيا والآخرة، وتحكيم شرع الله في خلق الله، وتميزت بين الممالك الإسلامية بحمل لواء السلفية التي تعني عقيدة وعلناً الكينونة على مثل ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه؛ فلم تتدين لله بالآراء، والأهواء، وأكاذيب الأخبار، والمنامات، والحكايات، وأقوال من لا تقوم الحجة بقوله، وتأويل نصوص الوحي ـ بعد إعلان وجوب الإيمان به وطاعته ـ بتأويلات لا تدل عليها لغة العرب (مفردة، وصيغة، ورابطة، ونحواً، وسياقاً) من غير مانع من الظاهر، ومن غير مقتض لتأويل معين صحيح.. بل سلكت ضرورة الدين والعقل، فتلقت الشرع بقوانين لغة العرب؛ لأن الأمة عربية، والرسول ﷺ عربي، والشرع بلغة العرب، ولا واسطة بيننا وبين الله لفهم مراده غير كتابه الذي جاء بلغة العرب، وبيان رسوله ﷺ الذي جاء بلغة العرب؛ فكان فهمها لدين ربها وفق منطوق لغة العرب الصريح القطعي الذي لا يقبل تأويلاً، ووفق ما تقتضيه لغة العرب في النصوص القابلة للتأويل شريطة أن يكون التأويل صحيحاً؛ فيكون تفسيرها قطعياً أو رجحانياً أو توقفياً؛ لتكافؤ

الاحتمالات.. وهذا الضرب الأخير القابل للتأويل هو الذي يتمايز فيه العلماء، ويرفع الله به درجات بعضهم على بعض.. وهو الذي يكون للمصيب فيه أجران، وللمخطئ أجر واحد وعذر إذا كان الاجتهاد نزيهاً صادقاً في تحري مراد الله.

والقرآن قطعي الثبوت، وسنة الرسول ﷺ فيها الثابت، وفيها المنسوب للرسول ﷺ خطأ أو كذباً؛ فلم يسعهم إلا تسليط قواعد التوثيق التاريخي؛ لمعرفة الثابت من غير الثابت؛ لأنهم مطلوب منهم بالنص القرآني القطعي دلالة وثبوتاً طاعة الرسول ﷺ والرد إليه، ولأن هذا النص الكريم أخبرهم أن الرسول ﷺ مبين لشرع ربه، ولأنهم وجدوا في القرآن أوامر ونواهي لم تعرف إلا ببيان الرسول ﷺ ،كهيئات الصلاة وأقوالها وأفعالها؛ فعلموا ضرورة أنه لا بد من نص صحيح حاضر عن رسول الله ﷺ يرجعون إليه في البيان، ويردون إليه عند التنازع.. وأن هناك نصاً صحيحاً من الرسول ﷺ عن شرع زائد على ما في القرآن؛ لأن الله أمرهم بالنص القرآني القطعي دلالة وثبوتاً أن يأخذوا ما آتاهم الرسول؛ ولأنها مضت السيرة العملية بإيجاب شرعه الزائد عن القرآن وهو من عند الله؛ لأن الرسول ﷺ مبلغ، ولأن الوحي وحيان: متلو وهو القرآن، وغير متلو وهو السنة المطهرة.. فلما صح لهم كل ذلك، وصح لهم أن الكذب والخطأ موجود فيما نسب إلى الرسول ﷺ: لزمهم تحري الصحيح الثابت، وهم ضامنون إذا صدق الاجتهاد، وكان نزيهاً في تحري الحق أن يحصِّلوا دين ربهم؛ لأن السنة من الذكر، وما يتوقف عليه فهم الذكر فهو من الذكر، والله ضامن حفظ الذكر، وأنه لن يضيع، وأنه لن يلتبس بغيره التباساً لا يحصل معه التمييز، فلما سلطوا

طرق التوثيق التاريخي التي جعلها الله ـ بأمره الشرعي، وقدره الكوني ـ سبيلاً محدداً للسلف في تمييز الخطأ من الصواب والكذب من الصدق، وصرف بقدره الكوني جهد علماء الأمة وعدولها: إلى معرفة حقائق الرواة، وتحري داخلتهم، والوعي بملابسات روايتهم .. وجعل الله ذلك ألذ وأحلى وأجل في عقولهم ومشاعرهم وسلوكهم من التفاخر بالبنيان، والتنافس في جمع الكنوز، والانهماك في لذائذ العلوم البشرية الأخرى التي لا يترتب عليها منفعة شرعية .. لما سلطوا طرق التوثيق هذه وُجد ما وُجد عندهم في الضرب المحتمل الدلالة؛ فحصل لهم يقين قطعي، أو رجحان، أو توقف.. وحصل لهم أجران، أو أجر ومعذرة.. هذه هي أصولهم التي لا تقتضي ضرورة الفكر والشرع غيرها، وهذه هي الأصول التي حققت لهم اليقين بأن من سلكها تحققت له صفة السلفية (التي هي ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه) والطائفة المنصورة التي لا تخذل عند كثرة المعارض.

وأرادوا أن يطمئنوا على سلامة نتائج هذا المسلك؛ فنشروا صحف القرون الثلاثة الممدوحة؛ فوجدوا هذا المسلك هو مسلك علماء الأمة وعدولها، ومسلك الصحابة كافة، ومن اقتدى بهم من التابعين وهم الجمهور، وهكذا تابعو التابعين، وهكذا من أهلهم علمهم وورعهم وقلدتهم الأمة الإمامة في الدين من كبار الفقهاء والمحدثين، ووجدوا المحك بين المصيب والمخطئ والنّزاع والشذاذ محجة بيضاء لاحبة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، ووجدوا تشريعات في المعتقد والسلوك تقشعر منها مشاعرهم، وينبو عنها ذوقهم المتربي في إطار «ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه»، وتأنف منها عقولهم التي تستشرف وتتطلع

للحقائق بقيد العبودية لله خالقها .. ولم يشكوا لحظة في أنهم على حق من هذه النفرة؛ لأن ما وجدوه كان متصفاً بأنه في عرف معتنقيه تدين، والدين تم ببلاغ رسول الله ﷺ، ولم يوجد هذا الغريب (الذي تقشعر منه أبدانهم، وينبو عنه ذوقهم) في النص الثابت يقيناً أو رجحاناً، ولم يجدوه في السيرة العملية المعتبرة - ومثالها جيل رسول الله ﷺ، وأصحابه رضي الله عنهم - ولم يجدوا مسلك الاجتهاد فيها مسلكاً شرعياً؛ لأنها تقوم على معارضة القطعي والأصح، والتمسك بالضعيف والموهوم والمكذوب.. وعلى الحكايات والمنامات واتباع من لا تقوم الحجة به، وعلى الأهواء والآراء المرسلة، وعلى الحمية لما انعقد عليه عرف المذهب ومأثور أهل ذلك البلد.

ووجدوا عقيدة الأئمة العدول مجتمعة على أحكام عقدية، وعلى ضرورة المسلك لكل ماهو موضوع للمعتقد، وعلى اليقين بأن لله غيوباً، ولم يضمن لنا بيان حقائق وكيفيات ومقادير ما غاب عنا، وليس في وسائل علمهم العقلي والحسي استكناه كل مغيب؛ فوكلوا العلم إلى عالمه، وتلقوا الخبر والوصف بالقبول وقالوا: آمنا بخبر الله على مراد الله ... ووجدوا مسائل يسع فيها الاختلاف، ويكون فيها الأجران والأجر والمعذرة، ووجدوا أن هذا هو اختلاف أئمة الأمة وعدولها؛ فاختاروا لعامتهم مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله بقيدين:

أولهما: أنهم لا يزعمون أن الحق مع أحمد دون معارضيه من الأئمة، ولكنهم اختاروا للعامة وأشباه العامة اتباع هذا المذهب؛ لأنهم عاجزون عن الاجتهاد والترجيح، ولأنه محال اتباع جميع الأئمة مع اختلافهم، ولأن موضوع

الاختلاف ـ وهو فروعي فقهي كالجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية، أو عدم الجهر بها ـ مما يسع فيه الاختلاف؛ لأن فيه للمخطئ أجراً ورحمة متمثلة في العذر ورفع الوزر، ولأنه ثبت لهم الإجماع على تميز الإمام أحمد بالصدق في ذات الله، والورع الصحيح، والزهد الصادق، والإحاطة بالنصوص، وتغليب جانبها.. لم يوجد قط من ينبز أحمد في صدق تدينه، وصدق تحريه لمراد ربه، وإن رأى بعض المجتهدين تخطئته في بعض المسائل الفقهية، أو ترجيح غير قوله.. وما دام غلبة العلم والصواب مرهون بغلبة التقوى: اختاروا لعامتهم مذهب هذا الإمام تغليباً لطريق السلامة في منهجه: من الوقف عن القول بغير علم، والاحتياط، وسد الذرائع، وتغليب النص على الآراء والبدوات.. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وفي الحنبلية أيضاً مبتدعة (وإن كانت البدعة في غيرهم أكثر)، وبدعتهم غالباً في زيادة الإثبات في حق الله، وفي زيادة الإنكار على مخالفهم بالتفكير وغيره؛ لأن أحمد كان مثبتاً لما جاءت به السنة؛ منكراً على من خالفها، مصيباً في غالب الأمور، مختلَفاً عنه في البعض ومخالَفاً في البعض»(١٠).

وثانيهما: أنهم لم يتقيدوا، ولم يقيدوا علماء هم بمذهب أحمد؛ بل كانوا يتبعون الدليل، وتجد إشهار ذلك في رسائل علماء نجد ومسائلهم.. وإنما وحدوا الفتوى لحاجة العامة إليها، وعدم حاجة العالم إليها في خاصة نفسه وأهله، ووحدوا القضاء؛ لأنه إلزام، ولا تطيب نفوس الخصوم من العامة باجتهاد مختلف.. والقضاء سائر في طريقه اليوم إن شاء الله إلى الاتحاد مع الفتوى التي تصدرها هيئة كبار العلماء .. وها هو سائر إن شاء الله إلى اكتمال أهلية

الهيئة بأطراف متعددة الاختصاص في العلوم الشرعية الأصلية كالمحدث والمفسر والأصولي، إضافة إلى الفقيه .. وفي العلوم المساعدة كاللغة والصرف والنحو والبلاغة والفكر.

إذن دولة آل سعود قامت على هذه المنهجية من ضرورات الشرع والفكر التي يضمن بها تحقيق مفهوم السلفية والطائفة المنصورة .. والحاكم بشر معرض للنقص البشري، ولكنه على دولة صالحة مرحومة واجبة الطاعة والمحبة؛ لأن العلماء جمهرة أولي الحل والعقد، ولأن الدستور بالمنهجية التي ذكرتها، ولأن البيعة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .. وفي الكتاب والسنة علاج للضعف والنقص والصغائر في حق من انعقدت له البيعة الشرعية، والمعادلة بين المصالح والمفاسد ميزان شرعي فكري، والوفاء بحق البيعة من الرعية مسؤولية كبرى إن أخلت بها عرضت نفسها للفتنة في الدنيا والآخرة.. وليس معنى ذلك أن تعتقد صحة كل خطأ، وإنما معنى ذلك أن تظل علاقة الرعية بالراعي ـ حال الخطأ والصواب ـ في معالجة ما وقعت البيعة عليه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .. وعقيدة السلف صريحة واضحة في ذلك، وقد صدرت في هذا المجال مؤلفات قيمة نفيسة من تراث السلف قديماً وحديثاً.

وكانت الدولة السعودية (التي لم تقم على أنقاض دولة مسلمة قائمة حباً للسلطة) ذات أَوَّلِيَّة كريمة مرحومة أيضاً؛ ذلك أنها أول دولة تقوم في جزيرة العرب؛ لتجمع الأمة على عقيدة السلف وسلوكهم، وتزع بالذكر الحكيم وعصا السلطان الحكيمة الرحيمة من شذَّ لجهل، أو هوى.

وهذا المجتمع السلفي - لطبيعة سلفيته - لم يكن في تحسير ولا تقصير؛ فلم يلغ بالتقصير حكم الله بالكفر والفسق في أفراد معينين، وفي جماعة مطلقة الصفة غير معينة الأفراد، وفي مسائل من العقيدة والسلوك؛ بل قالوا: نكفِّر من كفره ربنا، وما كفره ربنا، ونخشى عقوبته إن أهملنا ما أعمله الله .. ولم يعتدِ هذا المجتمع بالتحسير على المعيَّن بتكفيره، وإنما كفر ما صح أنه كفر من قول وفعل ومعتقد .. وبناء على أنه لا تلازم بين الكفر والتكفير لم يكفروا المعين بكفر صدر عنه إلا بعد العلم بقيام الحجة عليه، أو جعل التكفير حكماً قضائياً يقوم على المرافعة، والإثبات، ورفع العذر.. ثم هو تكفير من وقائع علمهم الدنيوي تترتب عليه الأحكام الدنيوية من المواريث والولاء والبراء .. إلخ؛ لأنهم لا يشهدون لمعين بجنة أو نار إلا من شهد له الشرع بأحد ذينك، ويرجون للمحسن الثواب، ويشتد رجاؤهم بما يرونه من شواهد الإحسان.. ويخافون على المسيء العقاب، ويشتد خوفهم بما يرونه من شواهد الإساءة.

ARCHIVE
http://Arch

قال أبو عبدالرحمن: إذن البدهية الأولى أن الدولة السعودية ملك رحمة لا جبرية؛ لأنها أسست دولة شرعية لم تكن موجودة، ولم تكن على أنقاض دولة قائمة بأمر الله من أجل السلطة، وكانت سلفية ذات حسبة، وكانت حكومة بيعة شرعية بشرطها السلفي، وكانت في البداية إكراهاً لمشيخات قبائل، وتجزئة زعماء قرى متسلطين: لا تحكمهم دولة واحدة، ولا يشعرون بهمٍّ جماعي واحد، ولا يحلون دين الله محله - عن علم - من الفتوى والقضاء والتعليم والدعوة؛ فلما وجدت الدولة، ونعم المجتمع برفدها - بإحياء شريعة وعقيدة، وتنمية مواهب بشرية، وموارد طبيعية، وتوحيد قدرات، وتخليص حقوق، ورفع مظالم: كانت

الرعية هي المنافحة عن دولتها ووحدتها؛ إذ لم تقم الدولة على نصر عشيرة.. وألِفَتْ هذه الجزيرة (وهي ذات نزوع قبلي لا يقبل الخضوع لأحد) الحب والطاعة معاً لبيت هذه الأسرة الكريمة بشرط البيعة السلفية، وكان البيت السعودي رمزاً وطنياً دينياً يعتز به ويحافظ عليه كل بيت، وكان سلوك علماء الأمة وعدولها منذ الإمام محمد بن عبدالوهاب .. إلى سماحة الشيخ ابن باز.. إلى كل من صلحت ملته ونحلته على هذا الولاء والمعتقد؛ فمن لم يسعه ما وسع هؤلاء الأخيار فلا وسَّع الله عليه، وخليق أن تحيق به الفتنة.

قال أبو عبدالرحمن: والطاعة والولاء للدولة الإسلامية ـ وإن ظهر بعض الجور ـ قرره علماء السلف لدول إسلامية قامت على أنقاض دولة وجماعة، وسموها دولة الغلبة والقهر، وهي ملك الجبرية (التي لم يساعد على قيامها أحد من أهل العلم)؛ وذلك لصالح الجماعة، وتغليب دفع المفسدة الكبرى على تحقيق المصلحة التي تصغر بجانب المفسدة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال أبو عبدالرحمن: فهذا هو الحق الشرعي لدولة ملكية جبرية فيها جور لم يساعد على قيامها أحد من أهل العلم والدين، وكانت على أنقاض دولة وجماعة.. وبضدها تتبين الأشياء؛ فملك آل سعود ملك رحمة لا جبرية؛ لأنه لم يقم على أنقاض جماعة ودولة، ولأنه قام بالدعوة ومن أجلها في بقاع متناثرة ليس فيها دولة ولا دعوة، ولأنها قائمة بفتوى ومناصرة ومواقف أهل العلم والدين الربانيين، ولأنها ذات أولوية في الرقعة، وذات ميزة بين الدول المعاصرة في التفرد ـ مجتمعاً ودولة لا أفراداً ـ بالسلفية، وإخلاص الحكم للدستور الإسلامي؛ فهي جهة تنفيذ.. إن حقها ليس هو الولاء لدفع مفسدة كبرى؛ بل حقها الحب

العميق الخالص والولاء؛ لما تقوم به من دفع المفاسد وتحقيق المصالح معاً.

٢ـ والبدهية الثانية: بدهية معنى الحق التاريخي لعبدالعزيز في تصميمه على الجهاد والمغامرة والفداء.. وبيان هذه البدهية: أن هذه الدولة الكريمة نالها هزتان كانت من أجلهما ذات ثلاثة أدوار.. الدور الأول معروف ابتداء، وهو دور الإمام محمد بن سعود إلى سقوط الدرعية في عهد الإمام عبدالله بن سعود.. وهو سقوط تم على يد الأغيار المعادين في النحلة، المدخولين في الملة.. ودخلت عناصر وطنية من جفاة البادية؛ لما رأوه من عظمة القوة القادمة، وما معها من وجوه الإغراء؛ فهم ما بين خائف على نفسه، وطامع في الحظ لنفسه.. ومنهم من إيمانه ووطنيته على حرف.. ودخلت عناصر قليلة من جفاة الحاضرة ممن عوقب بما يستحق من إثم؛ فأخذها موجدة على دولته ووطنه وأمته ودينه.

والدور الثاني على يد الإمام تركي بن عبدالله آل سعود، وابنه الإمام فيصل ابن تركي.. وكانت عدتهم وعتادهم عناصر وطنية خالصة تريد نعيم الدولة السالفة، وكان العدو المشترك الباشوات الدخلاء، وأطماع بعض البادية في عودة السلب والنهب، وحنين بعض المتديكين من أهل القرى إلى التجزئة.. وهي على ما عليه سلفها من الجانب الدعوي السلفي الذي يدين به جيش الإمامين، وإنما وصف فيلبي هذا الدور بالسياسي الدنيوي لا الديني الدعوي؛ لأن الجهاد لطرد عدو مغتصب، ولرد أطراف من الرقعة إلى حضيرة الدولة.. وليست لبيان حقيقة الدعوة، وإقامة حجتها، ودحض معارضها من خرافة وبدعة وأهواء وآراء؛ فكل هذا متأصل في كيان الأمة، وإنما المراد رد الشارد إلى كيانه، وطرد الطارئ الأجنبي.. ثم سقط الدور، ولم يكن سقوطه على يد دولة دعوية تزعم الأصلح أو

الأمثل، وإنما كان قدراً كونياً بدءاً باختلاف وطني بين الأخوين الإمامين الكريمين عبدالله وسعود ابني فيصل، ثم استغله واستحوذ عليه ذحول وثارات القبائل، وهادنه ونماه وأظهر المحايدة عن شريعة السلطة من يريد التجزئة من زعماء بعض القرى، ثم جاء الوافد الأجنبي بتدبير وزعامة مدحت باشا؛ فكان السقوط بغيضاً تجزيئياً مخرباً، قسم البلاد إلى إمارات داخلية ليس عندها فكرة الدولة، ومشيخات قبلية تريد حياة الذحول والمناخات والسلب والنهب، والتحالف التركي البريطاني على سيادة الأخيرة براً، وبقاء سيادة الأولى محكوماً محدداً مراقباً في ذلك الجزء من الرقعة الذي اتضح فيما بعد أنه هزيمة لا غنيمة.

والدور الثالث على يد الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، وهو دور متميز في ظروفه الخانقة وفي خاصية قائده بميزات أربع.. الثلاث الأول منهن عن الظروف.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الميزة الأولى: صعوبة الظروف خارجياً، وهي أصعب من ظروف الإمام محمد بن سعود المؤسس الأول، وتلك الظروف علمانية الدولة المهترئة، وجنون النازية، وأطماع دول الصليب باسم الحلفاء (ثم انقسامها إلى معسكر صهيوني شيوعي شرقي، ومعسكر صليبي صهيوني غربي).. وعدة الدول الطامعة المتحكمة في العالمين العربي والإسلامي ليست كعدة القوم أيام الإمام محمد بن سعود لو كان هناك نفوذ أجنبي؛ بل أخذت الدعوة حريتها في عهد الإمام محمد وعبدالعزيز بعيداً عن النفوذ الأجنبي، ثم جاء النفوذ الأجنبي مزيجاً من تحالف يهود الدونمة وصنيعتهم بائع السجائر الأمي الألباني محمد علي[11] وذريته،

ومباركة وتعاون الدول الصليبية، ومهادنتهم للانتصار بمقدار.. وكان في هذه التجربة موعظة للإمام عبدالعزيز إذ رأى سلفه الإمام سعوداً رحمه الله في حماس ديني منقطع النظير لعقيدته ودعوته دون تقدير للقوة الأرضية المادية المناوئة.

والميزة الثانية: صعوبة الظروف داخلياً من ناحية الفقر وقلة العدة والعتاد، ومن ناحية الإحراج من مجتمع أمي لا يريد أن يتعلم، ولا يريد أوجه المدنية.. ومن مجتمع بدوي لا يقيم وزناً للقوة المادية حتى كانت تجربة طائرات الصليبيين ومدافعهم بالجهراء، وكان منطق عبدالعزيز - الذي يستنبطه الدارس -: لم آمر بها، ولم تسؤني.. ومن علماء قصرت خبرتهم، وبهرهم الوافد الجديد، فوقفوا منه موقف المحرِّم لمظاهر تمدينية عديدة.

والميزة الثالثة: صعوبة التحرك الديني عقيدة وشريعة بعيداً عن الضغوط العالمية الخانقة مع التصميم على سيادة الدين قضاء، وفتوى، وتعليماً، وإعلاماً، وحصر الخيار في أحد أمرين: إما تحقيق هذه الغاية، وإما الاستشهاد في سبيلها.

قال أبو عبدالرحمن: ومن هذه الميزات الثلاث تواشجت عناصر المغامرة والتضحية ابتداء، ثم عناصر الجهاد الشجاع العاقل الذي يرافقه جهاد سياسي فكري ليس أقل خطراً لأطراف كافرة قوية تريد لأمته ما لا يريده لها، وتريد منه مالا يريده من نفسه؛ لأنه محكوم بولاء صادق وامتثال دقيق لدينه وعروبته ووطنيته محكوميةً لا يعلوها أدنى غبش؛ فكان دوره رحمه الله جامعاً لهموم الدورين السابقين: الجهاد العسكري الوطني، والجهاد الدعوي.

وبدهية الحق التاريخي لعبدالعزيز أنه همٌّ جماعي مصلحي، وليس هماً فردياً نفعياً.

والميزة الرابعة: خصيصة لذات القائد استلمحها الشاعر ابن عثيمين بقوله:

خبيئة الله في الأكوان أخرجها (١٢) وللمهيمن في تأخيرها شان

إن عبدالعزيز بخصائصه الفردية والتاريخية التي أهلته للقيادة هو مجموع المواصفات التي تريدها الأمة لملء الفراغ باستعادة تاريخ محجوب محبوب يحنون إليه على الرغم من أن آخر عهدهم به حرب أهلية أكلت الأخضر واليابس؛ وبهذا يبعد اعتبار استيلاء عبدالعزيز على الرياض مجرد مغامرة شاب يائس في عملية فدائية انتحارية؛ بل هو مغامرة شجاعة من شديد الوثوق بالله ثم بالجماهير التي تعيش حنيناً مكبوتاً.. وحسبك بخصائص عبدالعزيز الفردية أن في أبطال المغامرة من هو أسن منه ويشاركه في الإرث.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن حادثة المصمك وفتح الرياض أعجوبة بلا ريب؛ ولكنها ليست مبتورة عن سياقها التاريخي الحقيقي الذي يجعل تصورها تصور أسطورة لمغامرة صبي راهن على حياته وحياة رفاقه في احتلال العاصمة الثانية لآل رشيد وهم قلة.. كلا.. إن عبدالعزيز في طور الفتوة وليس صبياً، ولم يأت برفاقه القلة لمحاربة الرياض المدينة، وإنما جاء للقضاء على عمال ابن رشيد الذين هم في الرياض قلة، واثقاً بأن أهل العارض كلهم ومن يليهم جنده؛ لأنه لم يأت إليهم طارئاً، وإنما جاء ممثلاً للتاريخ الذي قلت: إنه التاريخ الحبيب المحجوب الذي يحن إليه أهل نجد.. لا سيما وسطها وجنوبها.

ومن البدهي أن متن التاريخ البشري يعني الأحداث التي يصنعها البشر، أو الأقدار التي يجريها الله عليهم في كوكبهم.. ويراعى فيها أنها غير رتيبة ولا يومية عادية في حياتهم؛ فطلوع الشمس من مشرقها يومياً ليس حدثا تاريخياً، ولكن كسوفها حدث تاريخي.. وما استجد في حياة المجتمع من سكون أو فوضى حدث تاريخي، وما استجد في حياة الفرد من ولادة ولد أم موت والد حدث تاريخي تزداد أهميته بمقدار أثره في المجتمع.. واللب للمتن التاريخي أحداث الحرب والسلم والاقتصاد والثقافة في حياة الدول والمجتمعات.

ولا خلاف في أن للمتغيرات التاريخية بواعث وعوامل مادية ومعنوية وقدرية .. وإنما الخلاف في الفرد التاريخي «البطل» هل هو أحد البواعث والعوامل في المتغير التاريخي أم لا؟!.

وفردية عبدالعزيز تتكون من الخصائص التالية:

١ـ أنه ليس طارئاً على الغاية التي سعى من أجلها؛ بل هو سليل الوراثة لِبُناة تاريخ بلاده .. وهذه خصِّيصة ساعدته في تسهيل مهمته.. ولو جاء عبقري في حجم عبدالعزيز ليست له هذه الدالَّة التاريخية لتعذرت مهمته أو تعسرت.

٢ـ أنه عاين ساعات التأرجح في تاريخ بيته بأم عينه، وذاق في أول وعيه ونمو مداركه ومواهبه مرارة الغبن والظلم، وأبكى قلبه مصاب والده، وعمه عبدالله، وأبناء عمه، ورأى أن السياسة لا أخلاق لها، وأن العامل بالأمس للدولة، والمتشرف بالولاء لها: يعمل بجد وأنانية لبناء مجده هو، والتنكر لمن أوصلوه لِسُدَّة [١٣] المسؤولية.. وحفظ مشاهدةً بالسند الصحيح المتصل عن أبيه وأخيه

وعمه وأخته وعمته وأبناء عمه وحاشية أهله: عن جده الأقرب: عن جده الأعلى كل تاريخه المحلي ومتغيراته بما فيها من إيجابيات وسلبيات.

وليس معايش التاريخ الراضع لبانه كمن يتحراه بصيغ التمريض الشفوية، والفلتات المكتوبة.

٣ـ الوعي السياسي الفريد للمتغيرات في العالم بين مجتمع عامي، وزعامات محلية، وزعامات مجاورة لا تعي بالمتغير العالمي بإطلاق، أو يكون وعيها مبتسراً: بأقل من مقدار الحاجة!!

٤ـ الجبلة الفردية لشخصية بنيت على الطموح، وعدم الرضى بالعيش ـ لو كان راغداً ـ عوضاً عن المجد الأسري، والاستعداد الفردي.. وهو إباء وطموح يبلغ أقصى المدى إذا علمنا أن عيشه لم يكن راغداً، وأنه في تطويح بين قبائل شرق الجزيرة وزعامات الساحل، وعطاء مقطع بشرط المنة والمساومة.. بل كان والده الإمام عبدالرحمن في فاقة شديدة في الوقت الذي كان فيه لأخيه عبدالله وأبناء أخيه سعود قليل من الأمر قبل مغادرتهم دار ملكهم.

قال أبو عبدالرحمن: دارس التاريخ بحل وحرية في أن ينظر إلى عبدالعزيز بادئ ذي بدء على أن باعث حركته هموم فردية، ونفع شخصي؛ لأنه خرج من رقعة ذات تاريخ جهوري يديرها أجداده إلى جده القريب فيصل؛ فعمه عبدالله، فعمه سعود، فأبوه، وأبناء عمه سعود.. خرج من هذا العز الباذخ والمجد الشامخ مجرداً مسلوباً لا يملك قوت يومه!!.. ليس على الدارس أن يشعر هذا الشعور ما دام عبدالعزيز غادر بلاده في هذا المناخ التاريخي، وما دام تغيير هذا المناخ هو مطلبه.

ولكن حركة عبدالعزيز جهاد استمر نصف قرن، ويصحب كل نصر جزئي تغيير وإصلاح، ثم بعد الجهاد المستمر استقرت الأوضاع على نفع جماعي، وإزالة هموم اجتماعية.. إذن انكشفت النية بأنها بريئة من كل نزعة أنانية، وكثيراً ما ردد عبدالعزيز المثل العامي المشهور: السيرة تُبيِّن السريرة.. ومن بيان السريرة ما ذكره معالي الدكتور عبدالعزيز الخويطر.. قال حفظه الله عن أسباب حب الرعية لعبدالعزيز: «أما حب شعبه له فمن منطلق اعترافهم بالفضل الذي ساقه الله لهم على يديه؛ فأمنوا بعد الخوف، واغتنوا بعد الفقر، وتعلموا بعد الجهل.. ولقد آخى رحمه الله بينهم بعد أن كانوا متناحرين، وقرب بينهم بعد أن كانوا متباعدين، وجعل منهم أمة واحدة متماسكة.. أحبه أولئك الذين عاصروا عهد الخوف، وانعدام الأمان.. ذلك العهد الذي كان لا يستطيع فيه المرء الانتقال من بلد إلى بلد إلا تحت راية حرب، ولا يسلم فيه بلد من غارة قوي على ضعيف في اجتياح يأكل الأخضر واليابس دون خوف من الله ولا وجل.. وكان هذا بسبب ضعف الحكم المركزي، وتقسيم المناطق إلى قوى مفتعلة أنهكت الناس، وأرعبتهم، وأيأستهم من حياة هانئة كريمة؛ ولهذا لما نصره الله، وأخذ بيده، ورأوا ما كسبوا على يده: أحبوه، واستماتوا معه في سعيه لإقرار الأمن، وزرع الطمأنينة، والقضاء على الفوضى التي كانت سائدة، والحياة المزرية التي كان يحياها الناس.

ومن أراد أن يعرف ما كانت عليه الحال في تلك الحقب السوداء، والأزمان الداكنة: فليرجع إلى كتاب الكاتب المعروف محمد بن عبدالله بن بليهد[١٤]؛ ففيه ثلاث مذكرات، وسيرى نموذجا مختصرا لتلك الحياة التعسة التي كان الناس

يحيونها في ظل الفوضى، واختفاء الأمن، والعبث السائد، وعدم وجود حكومة مسيطرة حكيمة»[١٥].

قال أبو عبدالرحمن: وعن هذه الحالة قال الدكتور نفسه: «وكان الأمان مفقوداً داخل المدن، والطرق مخوفة، وكان المسافرون لا يسافرون إلا جماعات؛ خوفاً من سطوة القبائل، وتعديهم.. وكان من يحج ويعود يعتبر مولوداً جديداً؛ لأن السرق والنهب متركز على طريق الحاج، وتكاد تكون حياة أهل الصحارى التي تمر بها الحجاج قائمة على نهب الحجاج وسرقتهم.. حتى إن أمير الحاج يأتي معه بسرية مستعدة، ومع هذا فأطراف القافلة لا تسلم من النهب والاعتراض.. وكانت الحالة الاقتصادية في وضع سيء؛ لعدم انتظام تبادل السلع، وبيع المحصول.. وكان المحصول نفسه يتعرض للأذى؛ نتيجة الوقائع التي تقوم بين البادية والحاضرة، وبين الحاضرة أنفسهم؛ مما جعل الناس في شظف من العيش يبحثون عنه في أبسط صوره، وكثرت الهجرات إلى الهند والعراق والشام؛ لطلب الرزق، والبحث عن الأمان والسلامة أحياناً.. واقتصر التعليم على أبسط صوره من التعليم الديني، ولم يكن الوقت يسمح بالتعمق فيه إلا لأفراد قلائل.. كانوا سرج المجتمع في ظلمة كانت مسيطرة، وكان طالب العلم يرحل بعيداً عن وطنه طلباً للعلم، وبحثاً عن مظانه.. يتحمل المشاق والغربة في سبيل ذلك»[١٦].

وقال عن دوره رحمه الله في حماية الرعية من الأذى: «كان يحمي الرعية من الأذى، ويأخذ على يد العابث، ويزن ظرف المذنب معه قسوة، وليناً.. قد يتساهل إن كان الأمر دون الأذى العام، ودون حدود الله، ويتشدد إذا خشي أن

يكون الذنب ظاهرة ربما تتفشى، أو أن التساهل قد يغري بالاقتداء السيء، أو التمادي في هذا الجانب، ويهتم لأمر يظنه غيره صغيراً؛ لأنه مسؤول يدرك ما لا يدركه غيره، ويغض النظر عن أمر يعجب من حوله؛ لتجاهله له»[١٧].

قال أبو عبدالرحمن: وفي أحد تذييلات كشك عزا إلى بعض الدراسات الحديثة الزعم بأن بداية أمر عبدالعزيز كانت بلا هدف ديني؛ بل لطلب ملك أجداده.. ثم عقب بأن عبدالعزيز اكتشف فيما بعد دوره الحقيقي!.

قال أبو عبدالرحمن: يصح هذا الزعم لو لم يكن ملك أجداده هو أهم الأهداف الدينية، ويصح هذا الزعم لو أن عبدالعزيز اكتفى بكرسي الزعامة، وحكم حكماً عشائرياً، وتخلى عن الأهداف التي قام عليها امتداد تاريخ أجداده.. ولقد وجد من الأبالسة العوام من يشير إلى عبدالعزيز بأن لا يعلم شعبه حتى لا يطمح؛ ليبقى الجهل والتخلف عامل خنوع كما حصل في بعض البلاد المجاورة.. ولكن عبدالعزيز في سباق مع الزمن.. يشفع كل نصر عسكري بتمدين للمجتمع، ونشر للتعليم على مختلف مستوياته ومظاهره من الكتاتيب إلى المدارس النظامية؛ بل كان يبعث لأهل القرى من يقنعهم بابتعاث أولادهم للتعليم، وكان في أوقافه وأوقاف أجداده ريع للتعليم.. بل كانت دور الأيتام موجودة في عهد الإمام فيصل بن تركي رحمهما الله.. فلما أفاء الله عليه لم يجعل التعليم مجانياً فحسب؛ بل وضع له الحوافز والمغريات مادياً ومعنوياً.. إن جهاده في فرض التعليم على الأميين العوام الذين يريدون أولادهم للحرف البدائية في مستوى جهاده العسكري.. نضر الله ذلك الوجه، ورحم شيبته، ونور ضريحه؛ فلولا الله ثم عبدالعزيز لبقينا على حرف الآباء الساذجة، ولبقينا في

ظلمة الجهل.. فهل من شاكر أبوة هذا الزعيم القائم لنا مقام الأب والأستاذ؟.. كان في آخر حياته يُدَفُّ على عربية وقد أولم لطلبة العلم، وكان يستقبلهم إلى المائدة، وكان مما حفظ لي شيخي محمد بن عبدالرحمن بن داود رحمه الله قوله: يا عيالي قمت إن شاء الله بما يجب علي، وأدى آباؤكم دورهم في الجهاد، وبقي دوركم أنتم في تحصيل العلم وتعليمه.. ولا يخلو زعيم من مناوئ، ومن شانئ له بحق أو بباطل، ومن متقول عليه إلا عبدالعزيز لم يستطع أعداؤه وأعداء بيته وتاريخه وسلفيته أن ينالوا جهاده وبرنامجه السياسي بكلمة تعيبه؛ بل أذعن لإخلاص الثناء عليه كبار المثقفين كالعقاد وهيكل وكل من حج واعتمر لما رأوا واقع حاله وحال رعيته.. بل اعتبر وندربيل أن إنجاز عبدالعزيز هو النموذج الوحيد الذي تحقق في الواقع لكل دعاة القومية والوطنية، ولكل رواد الجامعة الإسلامية ثم الجامعة العربية.. وهذا صحيح؛ فمثلاً مصر أوسع وأحفل بلد بالزعامات القومية والوطنية على أن وحدة أرض مصر دولة ووطنية لم تتغير.. كانت قطراً واحداً، ودولة واحدة قبل النهضات الوطنية والقومية .. وعبدالعزيز جاء ولم يكن الوطن واحداً، ولا الدولة واحدة، ولا التنميات قائمة.. ودعك من أن تكون منتظمة، فوحدها بدعاية الإسلام؛ فتحققت القومية والوطنية ثمرة ونتيجة.. وكانت المزايدة بالقومية والوطنية مع هذا معدومة في كل أوجه إعلامه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولما قسم فيلبي أدوار الدولة السعودية ذكر أنها في عهد سعود الأول دينية بحتة، وفي عهد الإمام تركي سياسية بحتة، وفي عهد الملك عبدالعزيز دينية سياسية.. وهو تقسيم مردود، فما السياسية في لحن فيلبي إلا الامتداد الجغرافي وتوحيد السلطة، وكل ذلك موجود بين مد وجزر في الأدوار السياسية لآل سعود.

وما الدين إلا حكم الشريعة للحياة العامة، وصدور الدولة عنه؛ بحيث تكون جهاز حماية وتنفيذ.. وكل هذا أيضاً موجود في الأدوار السعودية بمقدار نفوذ الدولة وقوتها وامتدادها.

وإنما ميزوا عبدالعزيز بميزة الجمع بين الحركتين؛ لأنهما استقرتا معاً في عهده وفي عقبه في عصر تواصلت فيه الدول، وكان للعالم مواثيق دولية، ولأنه أراد أقصى ما يكون من الامتداد الجغرافي، وأقصى ما يكون من قوة ونفوذ ووحدة السلطة للدين والدولة، واستقرار ذلك، فأتم الله له ما أراد.

وهذان الهدفان لا مطلب لأسلافه غيرهما إلا أن الرعوية لم تستقر؛ بل كانت في مد وجزر.. وكانت سيادة الدين والدولة ثابتة قائمة فيما في أيديهم من الرقعة.

٥ ـ المواهب الشخصية الفردية التي جبله ربه عليها؛ فكانت له وَهِيبَة لانَهِيبَة من شجاعة، وصدق، وتوكل على الله، وثقة بعائدة الكفاح دون يأس.. مع الذكاء، والخُلُق، والشيمة في التعامل، وضبط النفس ضبطاً يمنعها من الغدر، والنكاية بالخصم نكاية تتجاوز السماح مع القدرة، والقوة البدنية، وكونه مهيباً.. فكل هذه منح ربانية.

http://Archivebeta.Sakhrit.com ARCHIVE

٦ـ مواهبه الفردية الاكتسابية؛ حيث أفاد من ثقافته ومعايشته وتجاربه وتجارب غيره، وطوَّع كل ذلك للائتمار لنداء العقل والدين، وضبط جموح النفس، وكسر شهواتها الغضبية والمرحية.. مع توظيف الوقت لحق النفس والأهل والرعية، وإحكام صنعة الإدارة مركزية ولا مركزية، وجلب الخبرات العصرية للمشورة، ومباشرة التمدين بما لا يحيف على الجذور.

قال أبو عبدالرحمن: أسلفت أن شعار عبدالعزيز ـ كما صرح بذلك في إحدى خطبه ـ أن السيرة تبين السريرة.. والسيرة بينت أن الغاية التي سعى إليها عبدالعزيز همٌّ فردي؛ لأن قدره الكوني قضى بأن تكون غايته في وحدة الأمة همًّا فردياً ابتداء؛ لأنه أحد أفراد الأسرة التي قادت ذلك التاريخ الذي أعاده عبدالعزيز بعناية الله.. والسريرة بينت أن الغاية التي سعى إليها عبدالعزيز كانت مشروطة بشرطها التاريخي السابق، بأن تكون ـ كما مضى ـ لخدمة الأمة.. غاية ما هنالك أن عبدالعزيز التمس أقصى الوسع لتاريخه الجديد بأن يكون في الذروة من خدمة الأمة؛ ولهذا تواتر تواتراً لا يقبل الشك دعاؤه المتكرر على نفسه ولها، فاشترط في دعائه لربه بالنصر أن يكون في نصره صلاح للإسلام وأهله.. تكرر هذا الدعاء في أكثر من مناسبة، وعند فئام عديدة، ونُقِلَ ذلك نقل كافة.

وأحفل مناخ لتغذية مواهبه المكتسبة معيشته بين بادية بني مرة والعجمان عام ١٣٠٨هـ و١٣٠٩هـ، وإقامته عشر سنوات ملازماً لمجلس مبارك الصباح وما يحفل به من أعلام محلية وأجنبية، وهو من هو في الدهاء والحيلة.

إن مغامرة عبدالعزيز في فتح الرياض مبنية على إدلال منه على كافة أهل نجد بتاريخ البيت السعودي المحبب إليهم بأنه جاء لإعادته إليهم؛ فنجاحه، وامتثال القوم له، وترحيبهم به: نجاح للتاريخ الذي جاء لإعادة صفحته.. ولو كرهت الأمة التاريخ السعودي ـ وقد جاء بقوة صغيرة لا تستطيع التغلب عليهم ـ لقالوا: لا حاجة لنا فيك؛ فقد سئمنا من تاريخ أسرتك، وعانينا الظلم، أو الفقر، أو الجهل، أو الأمراض، أو التناحر في ظله، ونحن تحت أمير رضيناه، وحكومة

عادلة لا نريد غير ظلها.. ولكن الواقع غير ذلك؛ بل كانوا يترقبون منقذاً من آل سعود بالذات، وكانوا يحنون إلى نظام الحكم السعودي الذي عاشوا في عزه قوة وأمناً وجماعة وتديناً، وكانت مخيلتهم تحلم بمثل سعود الأول، أو تركي بن عبدالله، أو ابنه فيصل الذي أسر - بحب الناس له - القلوب والمشاعر مدة حياته المتأرجحة قوة وضعفاً.

إن عبدالعزيز غادر نجداً هو وأسرته وهو على علم يقيني وثيق بالحنين المكبوت إلى التاريخ السعودي لدى الأمة، وهذا الحنين المكبوت من أهم مقومات العزم لدى عبدالعزيز.

ولقد شقيت الأمة بالحرب الأهلية منذ وقع التصادم بين الإمامين عبدالله وسعود ابني فيصل رحمه الله إلى انتهاء الدور الثاني.. شقوا بهذا الصدام ثكلاً وتمزقاً وجلاء وفقراء ووباء، وها هم يتخلصون من هذا البلاء، ويتَّحِدُون على ابن رشيد؛ فلو كان التاريخ السعودي مكروهاً لديهم لكانوا يرون التمسك بواحد من آل سعود إحداث فتنة وفرقة، ولكانوا يأخذون من الشقاء من الحرب الأهلية حجة على الشقاء بالتاريخ السعودي.. ولكن الواقع خلاف هذا كله؛ فهم يحلمون بأي صوت من آل سعود، ومشاعرهم لا تفتأ تتوثب لما ألفوه من مرحمة التاريخ السعودي.

والسيرة كشفت أن سريرة عبدالعزيز هي التي أنجزت - بعد الله - أنجح مشروع وطني قومي ديني وحدوي؛ فكان كما قال وندربيل: أسوة للحركات القومية الوطنية التي لم تتحقق كما تحققت لعبدالعزيز؛ فالحركة القومية والوطنية في مصر مثلاً كانت ومصر دولة واحدة في رقعتها؛ فلم يتغير غير تبدل

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

دولة بدولة، وهكذا بقية الحركات في العالم العربي، وليس هكذا جزيرة العرب.. بل كانت دويلات لمقاطعات مجزأة، وكل مقاطعة يمزقها استقلال زعامات بقرية أو قبيلة، وكانت المشاعر والنخوات عشائرية أو إقليمية ليس فيها شعور بالأمة الواحدة والوطن الواحد؛ فجمع عبدالعزيز القوى على هدف واحد، وجعل الأمة واحدة، والوطن للجميع.

وكان من المتوقع أن يكون في سيادة عبدالعزيز على نجد مقنع له؛ لأنه حقق سيادة جده فيصل.. ولكن الواقع خلاف ذلك؛ لأن سريرته تريد وحدة الجزيرة كلها على دولة التوحيد ودينها.. وكان رحمه الله أمام قوى كبرى بسطت نفوذها على الخليج والساحل وفي الجنوب، وارتبطت مع الزعامات المحلية بمعاهدات ومحالفات؛ فاتخذ دعوى وحدة ما وصل إليه ملك أجداده ذريعة حق تاريخي يطالب به؛ فكان يختلس تلك القوى عسكرياً، ويراوغها سياسياً.. وهي تتعامل مع طموحه بحذر ومحاورة؛ فصانعته على مضض في توحيد ما وحَّده من تركة أجداده، ورأت أن تَخَلِّيه عن الأجزاء (التي ارتبطت معها بأحلاف ومعاهدات) ميزان التعامل معه، والمصانعة له.. وكل هذا هو محك المعاهدات التي أبرمتها بريطانيا معه، وهي الدولة التي كانت منذ عهد بيلي تسعى إلى تقليص نفوذ فيصل بن تركي، وكانت قبل ذلك على يد سادلير تبارك خطوات محمد علي في محيط دون محمياتها.

ولا يوجد مفهوم الدولة لأهل الجزيرة، ولا مفهوم الانتساب إلى رعوية مفهومة في الخارج؛ فالحاجة إلى عبدالعزيز حاجة إلى تحقيق مفهوم أمة بالوجود المعتبر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٧ ـ المعايشة الفردية والتاريخية لآلام وآمال الأمة، وكان عبدالعزيز رجل هذه المعايشة.. عاش مصائب بيته وأمته عند تفتح مداركه، واستوعب تاريخه المحلي بأوثق سند متصل الرواية.

وبهذه الخصيصة والتي قبلها أشربت نفسه الجد والعزيمة، وبعدت عن الترف والركود، وملّك الأهلية الثقافية والفكرية لتطلعه، ومن ثم فَقُه في الغابر والحاضر والناظر، وكان ذا وعي بالمتغيرات العالمية حوله، ورسم طريق الإفادة منها دون أن يسبح في التيار.. وبهاتين الخصيصتين كان يملك نظام الحكم من تدينه، وطبيعة تربيته، ومذخور تاريخه الأسري؛ فليس هو بحاجة إلى حضانة يستعير منها نظام الحكم، وليس هو مضطراً إلى التخبط في التجارب؛ بل كل نصر عسكري حققه فإنه يتبعه مباشرة بتنفيذ برنامجه الإصلاحي؛ لأن عنده برنامجاً مسبقاً.

قال أبو عبدالرحمن: يؤكد القول بأن الحق التاريخي لعبدالعزيز همٌّ جماعي لمصلحة الأمة أنه منذ غادر آل سعود دار ملكهم والأمة تتشوق إلى منقذ منهم.. وهذه الرغبة الجماهيرية حجة متكررة في عبارات عبدالعزيز وأبيه عبدالرحمن في شرح بعض المناسبات؛ ففي شهر ربيع الثاني سنة ١٣١٨هـ كتب الإمام عبدالرحمن لنقيب البصرة قبل خروج الحملة الخطاب التالي: «ما يخفى شريف علمكم قِدَمُ خدماتنا للدولة العلية أدامها رب البرية من وقت الآباء والأجداد، وتعديات ابن الرشيد على بلداننا وعشائرنا، وظلمهم إياهم، وهو ليس له حق في ذلك.

وبمقتضي تعدياته وظلمه أكثر علينا أهل نجد الإلحاح أن نتوجه لأجل

استنقاذهم من يده، وتوجهنا لذلك؛ فنرجو من تفضيلاتكم أن تسترحموا لنا من حضرة والي ولاية البصرة أن يكتب لابن الرشيد أن لا يتعرض لنا، ولا يحرك أحداً من عشائره علينا؛ حذراً أن تقع فتنة قتل ومقتول وسفك دماء المسلمين، وهو السبب في ذلك؛ ونحن خدام الدولة قديمين، وعلى هذا عهد الله وميثاقه أننا لا نزال نؤدي الخدمات اللازمة لحضرة أمير المؤمنين أدام الله مجده وعزه، ونحامي أتم المحاماة على جميع أطراف الدولة العلية الأحساء والقطيف وعشائرهما.. إلخ»(١٨).

قال أبو عبدالرحمن: دافع مثل هذا الخطاب أن السلطة في داخل الجزيرة التي سمحت بها بريطانيا ما بقيت لها السيادة البحرية إنما هي لتركيا؛ إذ هي التي أجهزت على الدولة السعودية بحملة مدحت باشا، وساعدت إمارات التجزئة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان عبدالعزيز يعرض على مبارك الصباح الرسائل التي كانت ترده من أكابر نجد ووجهائها.. وعلى الأخص رسائل أحفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذين كانوا يحثون بها الأمير عبدالعزيز على استرجاع مجد آبائه، ويخبرونه بأن أهالي نجد كلهم بما فيهم أهالي القصيم تؤيد آل سعود، وتتمنى اليوم الذي ينهضون فيه لاستعادة ملكهم، وتخليصهم من الذل والهوان الذي لاقوه.

قال أبو عبدالرحمن: المحاولة الأولى للاستيلاء على الرياض كانت فيما بين يومي ١٣١٨/١٠/١٦هـ و١٣١٨/١١/٢٦هـ، وكان قد استولى عليها ولم يستعص عليه شيء غير عامل الأمير عبدالعزيز ابن رشيد حيث تحصن في القصر، وامتنع عن التسليم؛ فعزم عبدالعزيز على نسف القصر.. وفي أثناء ذلك

وردت عليه الأخبار باندحار الشيخ مبارك في معركة الطرفية (الصريف)، وتمزيق جيشه؛ فاستعجل الخروج من الرياض خشية مداهمة الأمير عبدالعزيز ابن رشيد له.

ويُعتبر أمين الريحاني كابن عبدالظاهر في كتابه سيرة بيبرس؛ لأن الملك عبدالعزيز أملى عليه جل كتابه [١٩].. والريحاني ذكر حدوث المعركة في ١٣١٨/١١/٢٦هـ، وتابعه ابن عبيد والمحققون، وذكر أن عبدالعزيز لما علم بوقعة الصريف أخلى الرياض التي احتلها أربعة أشهر فقط، وعاد برجاله إلى الكويت.. ولم يذكر الريحاني كيف علم عبدالعزيز؟[٢٠].

وما أرى الأربعة أشهر صحيحة إلا إذا حسبنا مدة المسير والمقاتلة قبل تسلق الأسوار، وتقصر المدة مع ذلك؛ لأن عبدالعزيز غادر الشوكي خلال شهر رمضان أو شوال عام ١٣١٨هـ، وغادر الرياض آخر ذي القعدة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحدثني أحد مواليد عام ١٣١٤هـ (وهو الشيخ محمد بن عبدالله المرشد رحمه الله) أن المدة ثلاثة أشهر.. ويظهر لي أن الصحيح قول من قال: إن عبدالعزيز حاصر الرياض أربعين يوماً، وعلى هذا يكون وصوله إلى الرياض في حدود ١٣١٨/١٠/٢٠هـ، وهو التاريخ المقارب لتاريخ توجه ابن الصباح إلى القصيم حيث توجهت حملته في ١٣١٨/١٠/٢٢هـ.

ويظهر لنا أن الزركلي نقل نقلا سريعاً مخلاً عن ابن عيسى عندما ذكر أن عبدالرحمن مر بالرياض؛ فقد ذكر أن المعركة سنة ١٣١٨هـ في ١٧ ذي القعدة، وذكر سقوط الرياض في يد عبدالعزيز وحصاره لحامية ابن رشيد في القصر..

قال ابن عيسى بالحرف الواحد: «وانهزم عبدالرحمن بن فيصل إلى الرياض؛ فلما قرب منها أرسل إلى ابنه عبدالعزيز وأعلمه بالخبر؛ فخرج عبدالعزيز هو ومن معه من الرياض؛ فسار هو وأبوه ومن معهم إلى الكويت»[٢١].

ويذكر يوسف يزبك أن عبدالعزيز حاصر الرياض ستين يوماً ثم بدأ يحفر خندقاً تحت السور؛ ليصل إلى قصر الحاكم وهو يومئذ عبدالرحمن بن ضبعان[٢٢] عامل ابن رشيد[٢٣].

وسمعت من فضيلة الشيخ عبدالعزيز ابن الشيخ عبدالرحمن المبارك (ومن غيره) أن أبرز من كان يحفر الخندق ابن هدهود، وأن أمير الرياض من قبل ابن رشيد آنذاك قطع إحدى يديه عندما فك ابن سعود الحصار[٢٤].. واسمه سليمان بن هدهود من أهل قرية المصانع جنوب منفوحة.. وفي دخول الرياض عام ١٣١٨هـ كانت أحدية عبدالعزيز:

يا دارنا لا ترهبين   لا بد ما نرجع عليك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال المؤرخ عبدالرحمن بن ناصر[٢٥]: «وكان من عناية الله بالشهم الهمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن حفظه الله أن استأذن والده على الموضع المعروف بالشوكي أن يذهب إلى الرياض؛ فلم يحضر هذه الوقعة الشنيعة؛ فدخل بلد الرياض بعدما قاتلوه، وكان أمير ابن رشيد حينئذ عجلان وابن ضبعان[٢٦] في قصر منيع؛ فتحصنا فيه مدة حتى بلغهم خبر الوقعة؛ فانصرف عبدالعزيز وتركهم، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من هذه السنة».

وإذا كانت مقومات وخصائص الفردية في حياة عبدالعزيز ذات أثر فعال

في نجاحه، وتحقيقه لأنجح مشروع على الصعيد الوطني القومي الديني في تاريخ العرب الحديث: فلا ننس العوامل الخارجية المساعدة، وأوجزها في التالية:

١ـ أن الغاية التي تحرك عبدالعزيز من أجلها (وقد أبديت رفع الحرج عن كل دارس للتاريخ ينظر بادئ ذي بدء إليها على أنها نفع شخصي لعبدالعزيز، وهمٌّ فردي): كانت حبوراً اجتماعياً تطلع لها المجتمع، ويرى المجتمع والأمة فيها كسباً له وضرورة لحياته.. لا يهمه أن يكون باعثها لدى عبدالعزيز همٌّ مجد فردي، أو هم فرد عن مصير أمة!!؟.. لماذا؟.. لأن التاريخ الذي جاء عبدالعزيز من أجله لم يكن مكروهاً لدى الأمة، ولم يسقط برغبة من الأمة، ولم يوجد لدى الأمة باعث أيديولوجي أو إصلاحي تلتمس به تاريخاً غير التاريخ السعودي.. إنما سقط تاريخها المغتصب على الرغم منها بعد معاناتها من أجله الثكل والأمراض والمجاعات والتشرد والانقسام في الحرب الأهلية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والذين اغتصبوا تاريخها لم يتحركوا ابتداء بمقتضى برنامج سياسي سحر الأمة شعاره ودعايته، وإنما تحركوا باسم حماية ذي الشرعية الإمام عبدالله بن فيصل، والاحتفاظ بحقه، والتمكين لامتداده التاريخي المبني على حفظ الأمن، وتحكيم الشرع، وتهيئة الفرص.. ثم جاء اغتصاب التاريخ السعودي تحت هذا الترويج.

لم يكن سقوط الدور الثاني بدافع كره أو ملل لدى المجتمع من التاريخ السعودي، ولم يكن بباعث طموح لدى الأمة متجمد لدى القيادة الجديدة، وإنما كان انقساماً في البيت السعودي نفسه.. كان انقساماً تلاحمت فيه خيوط مسمومة كريهة من الأنانية، وطلب السلطة، ومقابلة ما بدر من غبن أسرى أو

بعض حيف بحنق فردي لا يفكر في العواقب.. إن ما حدث ـبكل المقاييس لدى الأمة مصيبة وفتنة وبلاء لم تسع إليه، ولم تفرح به.. وبعد هذا فالأمة مرغمة غير مختارة في تحمل مسؤولية هذه الفتنة، غير قادرة على الحياد.. فمن كان في صف الإمام عبدالله الفيصل فحجته أنه مع إمامه الشرعي يرى الدينونة لله بنصره مهما كان يسمع من وجهة نظر الطرف الآخر المتظلمة.

ومن كان بصف الإمام سعود يرى أنه مع أحد بُناة تاريخه المحبوب لم يخرج عنه إلى أجنبي.. وقد تجسَّد له ما يسوِّغ له الوقوف بهذا الصف من نقدات وجهت لذي البيعة الإمام عبدالله.. لا سيما بعد صدور فتوى المشايخ لصالح الإمام سعود بعد استقدام الدولة التركية التي حكى لوريمر عنها ـ بتدبير مدحت باشاـ أنها شحنت لجنودها باخرة من النبيذ والبغايا بحجة حماية أهل الأحساء من إباحية الجند!!.. وهذا أمر لا تقوى على تحمله نفسية تلك الأمة في ذلك المجتمع الطاهر.

ولم يُحسم الأمر لصالح أحد الطرفين؛ لتقول الأمة: أهلاً بأي واحد من الطرفين؛ فنحن إذن لا نزال مع تاريخنا المحبوب.. بل استمر الانقسام، وتضخم، وتقطعت أوصال الدولة، ثم غُلبت بتاريخ آخر لم تقبله ابتداء، ولم تأنس له بآخرة؛ فترغب في امتداده.. بل ظلت في تطلع إلى عودة تاريخها المحبوب .. إذن الغاية التي سعى عبدالعزيز من أجلها مطلب جماعي سواء أكان عند عبدالعزيز هما فرديا أم كان بهذا التفسير عند غيره من أفراد المجتمع، أو من أفراد غير أفراد المجتمع السعودي.

٢ـ أن الغاية التي تحرك عبدالعزيز من أجلها، وكانت هماً جماعياً: لم تكن

محبوبة لدى عامة المجتمع بشعور عاطفي غامض غير مفسر، ولم تكن هماً جماعياً حسب أغلبية تستأثر بمنفعة ذلك التاريخ المحجوب من أفراد قبيلة أو أهل إقليم.. بل كان الهم الجماعي بعامة، المتشوق إلى ذلك التاريخ الذي سعى عبدالعزيز إلى إعادته: هم وشوق كل شرائح المجتمع؛ لأن تاريخ آل سعود منذ نشأته لم يقم على قوة قبيلة ذات منعة؛ بل كان بنو حنيفة -قبيلة آل سعود يومها- أسراً متحضرة ليست حربياً في ثقل عنزة أو شمر أو عتيبة.. ولم يقم على قوة إقليم من رقعة الجزيرة كالعارض مثلاً.. وإنما كانت قوة الدولة أخلاطاً من القبائل والأسر والأقاليم جعلت للأسرة السعودية تحقيق وحماية وحدتها القومية والوطنية والدينية (وإن لم تكن يومها -لغلبة العامية- تحسن التعبير عن الوحدات الثلاث، وإنما كانت تعلم أن المسلمين في ظل كل دولة مسلمة يجب أن يكونوا أمة واحدة، ويعون توصية الله عباده في كتابه الكريم بالاجتماع، والتحذير من الفرقة وذهاب الريح، واشتراط أن تكون الوحدة على ما يرضي الله).. ولما استقر الأمر لعبدالعزيز سمع شعوراً إقليمياً ضيقاً، وسمع بشعر عامي لابن دحيم يغذي ذلك؛ فتحرى اجتماع القوم بمسجد الإمام عبدالرحمن بشارع الثميري؛ ففاجأهم بقامته الفارعة، وطلعته المحبوبة المهيبة؛ فقام خطيباً كعادته، وسوَّى بالرَّغام ذوي النعرة، وأسهب في شرح مكارم الأمة من كل إقليم وقبيل في بناء الوحدة، وحذر من العودة لمثل هذه الثرثرة، ولوَّح إلى مغبة النكال الشديد؛ فزالت كل منغصات الوحدة من ساعتها.

والشوق إلى ذلك التاريخ المحبوب لم يكن شعوراً غامضاً إرادياً حراً غير مفسر كما أسلفت.. وإنما كان حتمية سلوكية، وإيجابية فكرية مفسراً بكل

الشمعات المضيئة في ذلك التاريخ، ومفسراً بانتفاء كل عوج أو أمت في نظامه.. وهذا الانتفاء بميزان المعادلة بين المصالح والمساوئ، وبميزان واقعية النظرة، وبتجربة المجتمع الراهنة وذاكرته التاريخية عن ذلك البيت السعودي، وأنه عناصر خير في الجملة، وأنه ذو تدين وحياء ورحمة وشيمة وشعور بهموم الأمة، وأنه تُنال بصيغة المجهول منهم البغية بالوازع الذاتي عندهم أكثر مما ينالون هم بالوازع السلطاني لديهم.. ولا يعني ذلك الانتفاءُ الكمالَ المطلق؛ فإن القرون الممدوحة لم تخل من الشوائب المنغصة.. وتعني النظرة الواقعية أنهم خير الموجود فيما حولهم.. ولا تكتفي منهم أمتهم بذلك؛ بل ظلت ـ وستظل ـ تدفعهم من الحسن إلى الأحسن بالمسارَّة والمعالنة، وشروط البيعة على كتاب الله سبحانه وسنة رسولهﷺ، وتحمل الرعية مسؤولية العمل الذي يناط بها بشرطه في تنظيم القيادة.. ولم يستمر قط في تنظيم ولاة الأمر تنظيم تكرهه الرعية ويأباه الدين.. وجوهر حياة الأمة (مجتمعاً ودولة) النظام وسيادته؛ فما كان من النظام ذو استمرار لانتفاء حاجة جديدة تقتضي التغيير فقد صادف الحق بقطيعة أو رجحان من ذوي النظر الشرعي، واختصاص ذوي الخبرة.. وهذان الطرفان هما ذوا المسؤولية في سن النظام (٢٧)، وما لم يكتب له الاستمرار من التنظيم ـ على قلته ـ كشف التطبيق مرجوحية بعض عناصره؛ فتداركته رعاية الله ثم عناية ولي الأمر باللوائح، والتعديلات.

ومن الشمعات المضيئة في التاريخ الذي سعى عبدالعزيز إلى إعادته، وأيَّدته الأمة بالقبول؛ فبسطت يد البيعة: تمخضت الحقيقة بأن ذلك التاريخ منذ نشأته قائم في الشرح التنظيري والتطبيق العلمي السلوكي على العبودية لله بأداء حقه

الشرعي، والوفاء برغبة الرعية من أمور معاشها، وتحقيق القوة لحماية هذين الهدفين؛ فندبت العلماء الموجودين، وأكملت نصابهم بالتعليم في المساجد ثم المدارس؛ فجعلت عليهم مسؤولية تحقيق العبودية لله فتوى وقضاء ووعظاً وحسبة وتدريساً وإعلاماً.. وكان الحكم قبل التاريخ السعودي، وخلال الانفلات آخر الدور الأول والثاني حكم هوى الفرد من زعيم أهل قرية أو شيخ بادية.. لا حضور للقضاء والفتوى والحسبة البتة.

وأما تحقيق مصلحة الرعية مما جعله الله إلى نظرها، فكان تواشجاً من الاجتهاد الفردي الذي يملكه العقل المجرَّب للقائد، ومن الشورى ذات الأنماط؛ فمجلس القائد مع خاصة شيوخ القبائل وأمراء القرى ـ وهي مجالس علنية مشتركة ـ مجالس شورى، وأهل الحرف والمهارات وأهل القضاء والفتوى مجالس شورى في بيان الواقعة وحكمها ومنفعتها، وسلوك المجتمع مبني على النظام.. والتنظيم نتيجة شورى من أهل الشريعة والخبرة.

والقوة قوتان: قوة عسكرية للردع والحماية، وقوة تنمية تظهر بها قوة المجتمع واستعداد الفرد؛ فقام التاريخ السعودي على إسقاط الثارات والنعرات، وجمع القدرات الحربية على راية واحدة، وشعور بأمة واحدة، وكان تهجير البادية بآخرة.

وقام التاريخ السعودي على تنمية الفرد بتعليمه، وحماية أمنه ليعمل، وتحقيق تكافؤ الفرص.. وعندما دخل الملك عبدالعزيز الرياض وجلس للبيعة أعلن للقوم هدف بناء القوتين؛ فالفلاح يذهب إلى حرثه، وطالب العلم إلى حلقته.. إلخ... إلخ.. والزكرتي ـ وهو العاطل عن العمل ذو القوة البدنية ـ يلتحق بخدمة

الدولة.. ذكر ذلك محمد آل الشيخ في ضميمة له لم تطبع بعد.

وقال أبو عبدالرحمن: ولقد أسلفت في الكلام عن خصائص الملك عبدالعزيز تربيته الأسرية العربية الإسلامية؛ فهو أسرياً سليل مجد وملك؛ فتربيته تربية كبراء عظماء، وهو عربياً من العروبة في الذروة يحمل بين جنبيه كل هم عربي دون تعمُّل، وهو إسلامياً تربية مشايخ، في مجتمع متدين، وملكه السليب يُسَمَّى دولة التوحيد أكثر مما يسمى ملك آل سعود، والدين باعث تاريخ أجداده وشرط وجوده واستمراره.

وهذه التربية ذات الأبعاد الثلاثة من أهم مقومات الشخصية لعبدالعزيز؛ لأنها عربون تعامل الأمة معه؛ لأن الأمة المشردة المكبوتة لا تثق بعودة تاريخها الحبيب لديها، ولا تراهن على المغامرة في سبيله إلا بقيادة عَلَمٍ من أعلام ذلك التاريخ يُمثِّل طموح ذلك التاريخ بأن يكون شديد الحماس للدين؛ لأن ذلك التاريخ هو تاريخ دولة التوحيد، وبأن يكون العَلَم من البيت السعودي ذاته ومن تربية كبرائه وعظمائه؛ لأن الأمة لم تنقد لغير هذا الحي من آل سعود، ولم تقم لهم دولة على غير هذا البيت، وذاقت عزَّ الوحدة والأمن والقوة والرغد وسيادة الدين في ظله، وجربت العزائم والمغانم في ظل نوادر من ذلك البيت من أمثال عبدالعزيز الأول، وسعود الأول، وفيصل، وعبدالله؛ فلن يقوِّي عزمها، ويسهِّل لها أمر المغامرة سوى واحد من أمثال أولئك يملأ الفراغ؛ فكان عبدالعزيز هو الأعجوبة التي منّ الله بها لملء الفراغ.

٣ـ ومن العوامل الهامة أن المنطقة تشكو فراغاً وإن كان إقليم نجد يدين

بالسلطة لحكومة واحدة؛ فليست الحاجة إلى عبدالعزيز حاجة استبدال حكومة جديدة بحكومة تاريخية.. كلا.. بل الأمور غير مستقرة؛ فمناخات البادية باقية، والثارات في البوادي فيما بينهم، والثارات لدى أهل القرى لا تزال تتجدد، وعناصر التمدين لا تزال معدومة، والتعليم في فئة محصورة لا يتجاوز الكتاتيب لمجرد الهجاء، وسلطة الشرع غائبة، ودور العلماء أقل من كونه ثانوياً، والسلطة مجزأة في نجد والحجاز والأحساء والشرقية والجنوب، وكافة طبقات المجتمع الأمي العامي تعي أوجه الفراغ هذه باستثناء ما يتعلق بضرورة الوحدة؛ فهذا كائن في وعي الخاصة من العلماء والمثقفين على قلتهم، وذوي المتابعة التاريخية.

إن التاريخ السعودي ليس غلبة عشائرية مجردة، وإنما هو إرادة شرائح المجتمع الموحدة الهدف على الدين وخصائص الجزيرة العربية الشرعية.. مع اختلاف الأنساب والنزعات الإقليمية المؤذية التي قضى عليها التاريخ السعودي؛ ولهذا كان من نظام هذا البلد الصريح أن لا تمنح الجنسية لكافر؛ لأن من خصائص جزيرة العرب الشرعية أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان.. ولعل دولتنا وحيدة في هذه الظاهرة، وأن لا تُبنى الكنائس في المملكة؛ لأنه لا يجتمع في جزيرة العرب دينان أيضاً، وأن لا يدخل الحرم كافر، وأن لا تُنكس راية المملكة في أي ظرف، وأن لا تكون السعودية طرفاً في موقف مخز كالانفتاح على إسرائيل.. ومن الاستماتة في الحفاظ على خصائص الجزيرة، وملك الرحمة: التصميم على إقامة الحدود على الرغم من الضغوط باسم حقوق

الإنسان، وإقامة شعيرة الحج بملايين الفداء على الرغم من الضغوط باسم حق الحيوان.

وكتبه

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

عفا الله عنه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش والتعليقات

(١) وكذلك من يتبعهم من العشائر القاطنة بين الفرات ودجلة، والنازحين إلى إفريقيا [بكر].

(٢) قال أبو عبدالرحمن: ليس العراق وإفريقيا من الجزيرة، فلعله أراد العرب المقيمين هناك.

(٣) هذا سبب عدم انقياد أهل اليمن ومن يليهم للعثمانيين [بكر].

(٤) وعددهم الآن أضعاف ذلك [بكر].

(٥) يشهد لهم بذلك القرآن الكريم في قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام؛ حيث قالت تخاطب الملأ (أي المستشارين الأشراف) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل ٢٣-٣٤).. [بكر].

(٦) خصائص جزيرة العرب ص ٦٣-٦٦.

(٧) المرجع السابق ص ٧٨.

(٨) انظر التفصيل عن رايات النبي ﷺ وألويته في «التراتيب الإدارية» ٣١٧/١-٣٢٣ للكتاني، وكتاب «العلم العثماني» لأحمد تيمور [بكر].

(٩) خصائص جزيرة العرب ص ٨٠-٨١.. قال أبو عبدالرحمن: لم أجده في ديوان حسان تحقيق سيد حنفي حسنين/ دار المعارف، وكذلك طبعة دار صادر.

(١٠) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٨٦/٢٠.

(١١) قال الزركلي في الأعلام ٢٩٨/٦-٢٩٩: «محمد علي باشا [١١٨٤/١٢٦٥هـ-١٧٧٠-١٨٤٩م]: محمد علي باشا بن إبراهيم أغا بن علي، المعروف بمحمد علي الكبير: مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، ألباني الأصل مستعرب، ولد في قولة التابعة الآن لليونان، وكانت من البلاد العثمانية، واحترف تجارة الدخان؛ فأثرى، وكان أمياً تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره، وقدم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة جهزتها قولة تتألف من ٣٠٠ رجل نجدة لرد غزاة الفرنسيين عن مصر؛ فشهد حرب أبي قير سنة ١٢١٤هـ، وجامل

المماليك فناصروه مع الألبانيين وأتراك قولة، ومازال حتى كان والي مصر سنة ١٢٢٠ في حديث طويل؛ فعني بتنظيم حكومتها، وقتل المماليك سنة ١٢٢٦ بوسيلة تقوم على الغدر، كما يقول صاحب المجمل في التاريخ المصري ص ٣٠٥، وأنشأ السفن في النيل، وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر، وأنشأ في الإسكندرية دار صناعة «ترسانة للسفن»، واضطربت الدولة العثمانية لتوسع السعوديين في دولتهم الأولى بالحجاز وغيره؛ فانتدبته كما انتدبت واليها ببغداد والشام لحربهم؛ فكانت له معهم وقائع معروفة، وشارك في حرب المورة، واستولى على سورية، ولم تلبث أن انتزعت منه بعد أن جعلت له الدولة العثمانية حكم مصر وراثياً سنة ١٢٥٧، وكثرت في أيامه المدارس والمعامل في الديار المصرية، وأرسل البعثات لتلقي العلم في أوربا، وكان يحتم على من يدخل في خدمته من الإفرنج أن يتزيوا بالزي العربي (المصري) ويتكلموا اللغة العربية ويؤلفوا بها أو ينقلوا كتبهم إليها، واعتزل الأمر لابنه إبراهيم باشا سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٨م)، وأقام في قصر رأس التين بالإسكندرية مريضا إلى أن توفي بها، ودفن بالقاهرة، ومما كتب في سيرته: البهجة التوفيقية ط لمحمد فريد، ومحمد علي ط لإلياس الأيوبي، ومحمد علي وعصره ط لعبدالرحمن زكي، ومحمد علي الكبير ط لشفيق غربال».. وقال عن مصادر ترجمته: «المصادر المذكورة في الترجمة، والنخبة الدرية ١٠-١٦ وفيه ص ١٩، وفاته في أواسط رمضان ١٢٦٦هـ الموافق ١٨٥٠م، وعنه أخذت في الطبعة الأولى، وصححته بما عليه أكثر مؤرخيه، والكافي ٩٤/٤، وأعلام الجيش والبحرية ١/١-١٥، وتاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت ٧٤-١٤٠، ورسائل سائر لمحمد سليمان ١٩٦-٢٠٨، ومصر في القرن التاسع عشر ٢٩٩ وما بعدها، والمجمل في التاريخ المصري ٣٠٥-٣٣٩، وصفحة من تاريخ في عهد محمد علي لعمر طوسون، وبناء دولة ٦٨٥».

(١٢) نص هذا الشطر كما هو في ديوان الشاعر هو:- «خبيئة الله في ذا الوقت أظهرها..» ص٧٠.ع. ابن إدريس.

(١٣) السدة تعني في استعمال المعاصرين القمة والمنتهى والتوسط الذي يعني الإحاطة.. ولكل هذا أصل من اللغة كما يبين من هذا السياق للزبيدي.. قال في تاج العروس ١١/٥: «والسدة بالضم باب الدار والبيت، كما في التهذيب.. يقال: رأيته قاعداً بسدة بابه، وبسدة داره.

وقيل.. هي السقيفة.. وقال أبو سعيد: السدة في كلام العرب: الفناء يقال: لبيت الشعر وما أشبهه .. والذين تكلموا بالسدة لم يكونوا أصحاب أبنية ولا مدر، ومن جعل السدة كالصفة، أو كالسقيفة؛ فإنما فسره على مذهب أهل الحضر.

وقال أبو عمرو: السدة كالصفة تكون بين يدي البيت، والظلة تكون لباب الدار جمع سدة بضم ففتح.. وفي بعض النسخ: بضمتين.

وفي حديث أبي الدرداء: أنه أتى باب معاوية فلم يأذن له.. فقال: من يغش سدد السلطان يقم ويقعد.

وسدة المسجد الأعظم ما حوله من الرواق، وسمي أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن الأعور الكوفي التابعي المشهور السدي (روى عن أنس وابن عباس وغيرهما)؛ لبيعه المقانع والخُمُر على باب مسجد الكوفة.. وفي الصحاح: في سدة مسجد الكوفة، وهي ما يبقى من الطاق المسدود. قال أبو عبيد: وبعضهم يجعل السدة الباب نفسه، ومنه حديث أم سلمة (رضي الله عنها): أنها قالت لعائشة (رضي الله عنها) لما أرادت الخروج إلى البصرة: «إنك سدة بين رسول الله ﷺ وبين أمته».. أي باب.

وقال الذهبي: لقعوده في باب جامع الكوفة.. وقال الليث: السدي رجل منسوب إلى قبيلة من اليمن.. قال الأزهري: إن أراد إسماعيل السدي فقط غلط.. ولا يعرف في قبائل اليمن سد ولا سدة... وأغرب أبو الفتح اليعمري؛ فقال: كان يجلس في المدينة في مكان يقال له: السد؛ فنسب إليه».

(١٤) صحيح الأخبار ٢٧٢/٥ فما بعدها [الخويطر].

(١٥) يوم وملك ص ١٤٢-١٤٤.

(١٦) يوم وملك ص ١٤٨-١٤٩.

(١٧) يوم وملك ص ٦٦-٦٧.

(١٨) تاريخ الكويت السياسي ٣٤/٢، وتاريخ الكويت لعبدالعزيز الرشيد ١٦٢/٣، وانظر خطاباً مشابهاً كتبه الإمام عبدالرحمن للنقيب في ١٣٢٠/٢/٥هـ عندما أراد الخروج إلى نجد، وذلك في تاريخ الكويت السياسي لحسين خزعل ١٨٧/٢-١٧٩.

وقال الأستاذ محمد جلال كشك في هذه الرسالة؛ في كتابه السعوديون والحل الإسلامي ص ٣٠٦: «والرسالة غريبة التاريخ غريبة المضمون؛ فتاريخها هو ربيع الثاني ١٣١٨هـ، والخروج كان في ذي القعدة؛ فإن صحت فهي تكشف تحركات ابن سعود وليست مجرد استئذان، كما يستغرب أن تكون الحملة موجهة ضد ابن رشيد، ويطلب الإمام أن يؤمر بعدم التعرض للقادمين لغزوه.. رسالة مشبوهة، وقد نسي ناشرها أن يذكر مصدره».

قال أبو عبدالرحمن: الخطأ من الأستاذ عبدالعزيز الرشيد إذ ربط ذلك بالصريف، وقد فصل الحدث حسين خلف الشيخ خزعل في كتابه تاريخ الكويت السياسي فذكر ٣٢/٢ موقعة الرخيمة في ١٣١٨/٦/٢٧هـ، ثم ذكر عزم الإمام عبدالرحمن على الذهاب إلى نجد لاسترجاع الرياض.. قال ٣٣/٢-٣٤: «كان الإمام عبدالرحمن الفيصل السعود قبل موقعة الرخيمة قد شاور الشيخ مبارك الصباح بعزمه على الذهاب إلى نجد؛ لاسترجاع الرياض من الأمير عبدالعزيز الرشيد؛ فأشار عليه الشيخ مبارك بالتريث بالأمر، ومراجعة والي البصرة؛ لاستحصال كتاب منه إلى ابن الرشيد بعدم التعرض له في سفره إلى الرياض؛ فكتب الإمام عبدالرحمن إلى السيد رجب النقيب يرجوه فيه مراجعة والي البصرة بعزمه على السفر إلى الرياض، وإشعار ابن الرشيد بعدم التعرض له».. وبعد أن ذكر الرسالة قال: «فتباطأ والي البصرة في الإجابة على مطالب الإمام عبدالرحمن الفيصل السعود، ولما اشتبكت جيوش الشيخ مبارك مع قبيلة شمر في معركة الرخيمة: رجا الشيخ مبارك من الإمام عبدالرحمن الفيصل العدول عن الذهاب إلى الرياض في الوقت الحاضر، لأنه عازم قريباً على المسير للقضاء على نفوذ ابن الرشيد في كافة نواحي نجد».

قال أبو عبدالرحمن: إذن الخروج لم يتم بعد، ولا غرابة في طلب الإمام عبدالرحمن من النقيب كف ابن رشيد؛ لأنه لا يريد حائل؛ بل يريد عاصمة أجداده.

وقد نشرتُ كلمةً في جريدة الشرق الأوسط ناقشت فيها تشكيك الأستاذ الفاضل عبدالرحمن الرويشد؛ فكان مما قلته: «إنما ذكر تحركه هو، ولم يذكر تحرك مبارك.. وتركيا يومها لم تجتهد لابن رشيد اجتهادها في وقعة البكيرية.. وتركيا ليست حليفة لابن رشيد، وإنما تراه عاملاً لها كغيره من بعض حكام العرب والمسلمين باسم الخلافة الإسلامية وإن لم تحكم كل البلاد حكماً مباشراً.. وليس ابن رشيد بأقرب إلى الدولة من مبارك؛ بل

يسوؤها أن يغير ابن رشيد على الكويت أو عشائر العراق.. وقد قام مع مبارك عشائر المنتفق في العراق وهم في رعوية الدولة بحكم مباشر!!.. بل استاءت تركيا من هزيمة مبارك في الصريف، وقد حاول أن يخفف الوطأة ويجحد بعض الحقائق؛ فلما تبين لها الواقع من مصادر بريطانيا وتركيا وروسيا خيرته في ثلاث نقاط: أن يكون عضواً بمجلس الشورى بالآستانة، أو أن يقيم في أية بلدة عثمانية وتصرف عليه، أو أن تحتل الكويت بالقوة.. فلما رأى مبارك هذه العزيمة فاجأ الدولة باتفاقية بينه وبين بريطانيا منذ سنوات، لهذا تركته.

ولا غرابة في طلب الإمام عبدالرحمن من النقيب أن تكف الدولة ابن رشيد؛ لأن الدولة اسمياً هي صاحبة الخلافة؛ ولهذا تستبيح الغزو في أي وقت تسنح لها فرصة القدرة.

وأمثال هذه الوثيقة من الوثائق الصحيحة كثير منذ عهد الإمام فيصل، وذلك أمر طبيعي، لأن الأمة العربية والإسلامية موزعة بين نفوذ عثماني تاريخي وبين زحف صليبي استجد على يد بريطانيا.. بل أمثال هذه الوثيقة من ناحية الصيغة وثائق نجدية كثيرة روعي فيها الديباجة المعتادة للباشوات وقادة الدولة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٩) قال أبو عبدالرحمن: قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن عبدالعزيز ابن مانع رحمه الله تعالى في تعليق له خطي على طرة كتاب تاريخ نجد لفيلبي: «كنت ليلة عند الملك عبدالعزيز رحمه الله في قصر [الصواب: في قصره، ولعل طرح الهاء سبق قلم] بمكة؛ فجرى ذكر التاريخ؛ فقال: لم يكتب أحد في تاريخي.. فقلت: الريحاني.. فقال: كذب الريحاني.. كتب شيئاً ما قلته له، وقلت له شيئاً لم يكتبه».. قال أبو عبدالرحمن: وكان تملك الشيخ ابن مانع للكتاب في ١٣٨٣/٦/٢٦هـ، وهو ثقة؛ ولعل هذا يحفز الباحثين إلى الكتابة عن الريحاني وكتبه ورسائله ومقالاته.

(٢٠) تاريخ نجد ص ١١٩.

(٢١) تاريخ بعض الحوادث ص ٢٠٠-٢٠١.

(٢٢) قال أبو عبدالرحمن: الأمير في هذا الوقت عجلان وليس ابن ضبعان.

(٢٣) ليلة المصمك ص ١٢.

(٢٤) ثم وجدت هذا الخبر في كتاب السعوديون والحل الإسلامي ص ٢٧٥.

(٢٥) في كتابه «عنوان السعد والمجد فيما استظرف من أخبار الحجاز واليمن ونجد».. وهو ثلاثة أجزاء ولا يزال مخطوطاً.

(٢٦) قال أبو عبدالرحمن: هذا متعذر؛ بل الأمير يومها عجلان، وابن ضبعان من كبار القوم.

(٢٧) قال أبو عبدالرحمن: دورة مشروع النظام في السعودية من أجلى معاني الشورى في الإسلام، وقد تبلورت في دولة التوحيد (السعودية) على هذا النسق:

١- أخذ الحكم الشرعي من علماء الأمة العدول العليمين بأحكام الشريعة حفظاً واستنباطاً.

٢- أخذ أحكام الوقائع من ذوي الاختصاص من مهندسين وأطباء.. إلخ.

٣- استشارة ذوي الحل والعقد من الوجهاء والزعماء وأصحاب المال بشرط الدين والأمانة والولاء.

٤- استشارة عامة الناس - بما فيهم الذمي لو كان من الرعوية ذمي - في الأمور الدنيوية عامة النفع إذا لزم الأمر كإنشاء مرفق أو إلغائه.. وتقل هذه الحاجة بقدر ما يكون لدى الدولة من ثراء من رجال الخبرة والاختصاص.

٥- الدولة وإن لم تكن بشكل الأنظمة الغربية فمجالها في إشراك الناس خير وأبقى؛ لأن مالا يُقبل رأي الناس فيه من التنازل عن بعض حقوق الله وحدوده وأحكام دينه متروك للعلماء الربانيين، مستدرك باستدراك علماء آخرين.. وأما أمور الناس فيقوم الإشراك فيها بأنواع الخبرات الاستشارية في كل جهاز حكومي، وبالدستور الإسلامي الواحد، وبخضوع أنظمة الدولة لملاحظات ذوي الخبرة الدنيوية، وذوي العلم الشرعي؛ فمشروع كل نظام يبدأ عن حاجة باقتراح خبرات استشارية متعددة، ثم يعمم على الوزارات والدوائر الرسمية لإبداء الملاحظات من خلال أجهزتها الاستشارية.. وفي قمة هذه الخبرات الأجهزة الشرعية.. ثم يظل النظام تحت طائلة الملاحظة الجماعية والفردية، ولهذا تكثر التعميمات تعديلاً في الأنظمة واللوائح التفسيرية التي يسبقها لوائح إيضاحية.. وإذا قامت الحياة على دستور إسلامي يرضى به المؤمن ويرغم عليه الملحد في مجتمع مسلم، وقامت على نظام يحكم الحياة -وهو بمثل هذه المشاركة الجماعية -: فكل دعوى للمشاركة الجماعية تهويلية، وكل استدراك (إن صح) فهو جزئي.

في الطريـق إلى ابـن ســـعـــــود

* د. عزت عبدالمجيد خطاب

ARCHIVE

مدخل: هذا البحث مبني على قراءة لكتاب «الطريق إلى مكة» المنشور باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٤م، وهو من تأليف الصحفي النمساوي الأصل (ليوبلد فاس) اليهودي الديانة، الذي اعتنق الإسلام وحسن إسلامه واتخذ لنفسه اسم (محمد أسد)، وأصبح فيما بعد من أفضل الدعاة إلى الإسلام.

الكتاب محاولة من المؤلف لتحليل الظروف وتفسير العوامل التي قادته إلى الإسلام، إلا أن بُنية الكتاب هي وصف الرحلة التي قام بها المؤلف عام ١٩٣٢م من حدود المملكة مع العراق، بعد انتهاء المهمة التي كلفه بها الملك عبدالعزيز، إلى مكة المكرمة ماراً بحائل ثم المدينة المنورة، قام بالرحلة وهو مسلم، فقد أسلم عام ١٩٢٦م، ووصل مكة حاجاً، وعاش في المملكة ست سنوات صديقاً للملك

عبدالعزيز، وليس هو بحثاً تاريخياً، لكن هناك الكثير من الحوادث التاريخية المهمة مبثوثة في تضاعيفه، ولا تكمن أهمية الكتاب في حوادث تاريخية بعينها ومدى دقتها وصدقها. إذا أردنا ذلك نجده في المظان المعروفة التي أرخت لنشأة المملكة العربية السعودية.

وليس لي هنا أن أناقش تلك الحوادث مناقشة علمية تاريخية، وأترك هذا للمختصين، إنما تكمن أهميته ـ بالنسبة لي ـ في الصورة التي رسمها المؤلف للملك عبدالعزيز، من وجهة نظره بطبيعة الحال، فهي صورة حميمة بقدر ما هي موضوعية، رسمها شخص أوروبي قرأ الكثير عن الإسلام وعرف الكثير عن العرب، لكنه رسمها بعد أن قابل الملك عبدالعزيز، أول زعيم عربي مسلم يمثل له بحق الثقافة العربية الصحيحة والشخصية العربية الفذة.

عنوان الكتاب: «الطريق إلى مكة» عنوان مناسب للكتاب، وهو ترجمة دقيقة لعنوانه باللغة الإنجليزية (The Road to Mecca). وقد صدرت أول ترجمة له بهذا الاسم عام ١٩٥٦م بقلم (عفيف البعلبكي) نشرتها دار العلم للملايين، إلا أن طبعة حديثة للكتاب وهي الطبعة التاسعة صدرت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م من الدار نفسها بالتعاون مع مكتبة العبيكان بعنوان «الطريق إلى الإسلام» للمترجم نفسه، مما يوحي بأن المؤلف ربما قام بالرحلة وهو غير مسلم ثم اعتنق الإسلام. لكن يمكن اعتبار رحلة المؤلف الأولى إلى مكة المكرمة عام ١٩٢٦م بعد تجوال طويل في الشرق الأوسط واعتناقه الإسلام هو ما عناه المترجم من العنوان الجديد، أي أن العنوان الجديد يمكن أن يشير إلى الرحلة الأولى، وكذلك يمكن أن يشير إلى الرحلة الأخيرة بعد انتهاء المهمة التي كلفه بها الملك عبدالعزيز.

الكتاب في الواقع يمثل حلقة دائرية، فهو يبدأ بوصول المؤلف أول مرة إلى مكة، وذلك بكلمات مقتضبة، وينتهي بتفصيل اعتناقه الإسلام وصور تلك الرحلة الأولى إلى مكة، مفصلاً وصوله إلى ميناء جدة بالباخرة قادماً من مصر، ودخوله مكة حاجاً هو وزوجته (إليزا)، ثم وفاتها المفاجئة هناك.

استراتيجية الكتاب: قبل الدخول في تفصيل صورة الملك عبدالعزيز كما رسمها (محمد أسد)، ينبغي أن أشير إلى أسلوب الكاتب واستراتيجيته في سرد قصته، إنها قصة لا تقدم لنا بشكل أفقي «دياكروني» تاريخي، وإنما تقدم بالطريقة التزامنية (السينكرونية)، معتمدة على تقنية «الفلاش باك»؛ فالأحداث البعيدة بعضها عن بعض تاريخياً وجغرافياً تتوحد في لحظة حضور تأملية أو في إشارة تبدو لأول وهلة كأنها جاءت عفو الخاطر، وإذا بالأحداث تنثال والشخوص تتجسد وتتمثل خلفية المشهد، سواء كانت سهلاً متسعاً أو جبالاً شاهقة جرداء أو صحاري يمور فيها السراب، تتمثل حاضرة في متناول يد القارئ، فمثلاً بعد وصفه الدقيق، بلغة جزلة شعرية لكثبان الرمال في صحراء النفود وصعوبة التعرف على الطرق بسبب تغير أشكال الكثبان بفعل الرياح، وبعد السكون العميق الذي يلف أرجاء الصحراء مما يكسبها جلالا وجمالاً خاصين بها، يقول المؤلف:

«الحياة بكل ما فيها من جلال... تحس بها دائماً في الصحراء، ولأنها صعبة الاحتفاظ بها قاسية، فهي على الدوام تشبه الهدية، إنها كنز ومفاجأة، فالصحراء دائماً ذات مفاجآت، فبالرغم من معرفتك لها مدة سنوات، وأحياناً عندما تعتقد أنك تراها بكل ما فيها من صرامة وصلابة وفراغ، وإذا هي

تستيقظ من حلمها وتبعث بأنفاسها، وإذا بالحشائش الرقيقة الباهتة الخضرة واقفة فجأة حيثما لم يكن بالأمس سوى الرمال وشظايا حصباء».

ويستمر في هذا الوصف الشعري الجميل إلى أن نهبط معه إلى أرض الواقع عندما يذكر لنا مقابلته هو ومساعده (زيد) مجموعة من العربان بعد أن تكسر بحركتها صمت الصحراء، وبعد إلقاء السلام والأسئلة التقليدية عن القبيلة وعن بداية الرحلة ونهايتها، يتعرف عليه رئيس تلك المجموعة ويتذكر لقاءهما قبل أربع سنوات في الرياض في بلاط الملك عبدالعزيز، وهنا يأخذنا المؤلف إلى أول لقاء له بالملك في مكة المكرمة بعد اعتناقه الإسلام (ص ١٢ ـ ٢٠)، وسفره بالجمال إلى الرياض حسب رغبته، ووصوله إليها بعد شهرين، هذا في بداية الكتاب.

أما (زيد) هذا رفيق سفراته المتعددة في منطقة الشرق الأوسط، والذي يبدأ الكتاب بالحديث عن سيرهما معاً متجهين إلى آبار (تيماء) ص ١٠، لا نسمع عن أول لقاء له مع المؤلف إلا في منتصف الكتاب (ص ١٩٩ ـ ٢٠٠)، وذلك في قرية (دير الزور) السورية عندما كان المؤلف ينوي السفر بالسيارة من سوريا إلى العراق. هذا الفصل من الكتاب في الواقع يسمى «منتصف الطريق»، وفيه يصف المؤلف رحلته مع (زيد) و(منصور العساف)، أحد رجال أمير حائل، إلى المدينة المنورة، وفيه أيضاً يلخص لهما الأسلوب الذي وصل به إلى الإسلام قائلاً: «وبمثل هذه الطريقة التدريجية يا منصور، بنظرة هنا ونظرة هناك، بمحادثة، بكتاب أو ملاحظة، تكشف لي وجه الإسلام ببطء وبدون وعي مني تقريباً (ص ١٩٧).

هذا الأسلوب التدريجي هو نفسه أسلوب الكتاب، وبه نصاحب المؤلف في رحلتيه الأولى والأخيرة إلى مكة المكرمة وإلى الإسلام، وتتكشف لنا جوانب رحلته الحسية والمعنوية، كما نجد أيضاً في ذلك اللقاء العارض مع العربان استراتيجية أخرى في الكتاب، وهي التقديم الدرامي للأحداث الكبرى التي يتحدث عنها.

إن أهم أحداث الكتاب هي مقابلة المؤلف الملك عبدالعزيز، لا سيما المقابلة الأولى، وهي تمثل الدخول الدرامي للشخصية الرئيسة، في البداية نسمع الكثير عن هذه الشخصية، وذلك من شخوص أخرى ذات وجهات نظر مختلفة، بحيث يتولد لدينا شوق كبير لمقابلة هذه الشخصية، فعندما تظهر فعلاً يكون المسرح قد أعد لها إعداداً جيداً، عضوياً، وذهنياً، فرئيس تلك المجموعة من عربان قبيلة شمر يذكر المؤلف بلقائهما في قصر الملك عبدالعزيز، تقوم هذه الذكرى بدورين اثنين في هذا السياق: فهي أولاً تزيل الجفوة بين ذلك الزعيم الشمري وبين المؤلف، فقد كانت عيناه تلمعان بالتساؤل عن سبب وجود هذا الإنسان الغريب (أي المؤلف) في أرض العرب. وبمجرد أن يتعرف عليه تنفرج أساريره ويمد للمؤلف يد الصداقة وتتحقق الدلالة الأمنية التي يرمز إليها بلاط الملك عبدالعزيز، وهي ثانياً تتيح للمؤلف الفرصة في التوطئة بإشارة خفية تبدو عابرة لكنها متعمدة إلى سر التفاف العربان حول ابن سعود، فهم ينادونه باسمه الأول دون رسميات مصطنعة، لأنهم ـ كما يقول المؤلف ـ: «في إنسانيتهم التلقائية لا يدرون في الملك سوى الإنسان، الذي ينبغي أن يبجل بلا شك، ولكن دون إطرائه بأكثر مما يستحق كإنسان (ص ١٥)». ثم يذكر كرم الملك الذي لا يعتمد على المال

بقدر اعتماده على القلب، بل يعتمد أكثر من أي شيء آخر على حرارة الشعور الذي يجعل كل من حوله يحبونه، ولا أستثني نفسي (ص ١٦)، ثم يستطرد المؤلف في الحديث عن صداقة الملك عبدالعزيز له، تلك الصداقة التي أحاطت حياته، طوال وجوده في المملكة، كالدفء الرقراق، فبالرغم من أن ابن سعود ملك والمؤلف مجرد صحفي، إلا أنهما يصف الواحد منهما الآخر بالصديق، إنها ليست كالصداقة التي يمحضها الملك لمن حوله جميعاً، بل صداقة نابعة من القلب بحيث تجعل الملك يفتح للمؤلف مكنون أسراره كما يفتح للناس خزائن أمواله، إنه يحب الملك لا لطيبة قلبه فحسب، فكثير هم طيبو القلب، ولكن لنبله ومروءته بالرغم مما يعتبره المؤلف نقاط ضعف، ومن منا معصوم من الخطأ؟ بل ربما من أجل نقاط الضعف تلك، وهي التي تؤكد إنسانية الملك، وينهي المؤلف هذه المقدمة السريعة قائلاً: «بهذا أعتبر ابن سعود إنساناً طيباً، إنه رجل مكتف بذاته ويتبع دائماً الطريق الذي رسمه لنفسه، وإذا أخطأ في تصرفاته فلأنه لا يحاول إلا أن يكون نفسه» (ص ١٦).

ثم يأتي دور شخصيتين أخريين في التقديم لشخصية الملك عبدالعزيز: الأولى هي: (الحاج أجوس سالم) من أندونيسيا، الذي يخبر المؤلف أن الملك قد طلب أن يوضع اسمه في قائمة ضيوفه، وأنه ـ أي الملك ـ قد عرف سبب إحجامه عن لقائه ـ السبب هو وفاة زوجة المؤلف بعيد وصولهما إلى مكة المكرمة حاجين والصدمة التي ألمت به ـ وأن الملك قد تفهم ذلك، بل وأمر أن ينقل المؤلف إلى بيت جميل في جنوب مكة يطل على طريق اليمن ويشرف على بيوت مكة وعلى مآذن الحرم الشريف.

أما الشخصية الثانية فهي شخصية (الأمير فيصل) نائب الملك على الحجاز، الذي يقابل المؤلف صدفة في مكتبة الحرم المكي وهو - أي الأمير - في طريقه إلى المسجد الحرام، وهنا يتوقف المؤلف برهة ليصف لنا الأمير قائلاً: إنه طويل القامة نحيل الجسم، يتمتع بجلال ووقار يفوقان سنيه الثنتين والعشرين ووجهه الأملد، وبعد أن قدمه له أمين المكتبة انحنى المؤلف تبجيلاً للأمير، كما هي العادة في الغرب، وإذا بالأمير يرفع للمؤلف رأسه بأصابعه قائلاً له وعلى شفتيه ابتسامة: «نحن في نجد نرى بأنه لا ينبغي على أي إنسان أن ينحني لإنسان آخر، وإنما ينحني فقط لله، وذلك في الصلاة». ويضيف المؤلف واصفاً الأمير: «كان يبدو كريماً حالماً خجولاً ومتحفظاً بعض الشيء، وهو انطباع تأكد لي فيما بعد في سنوات معرفة بعضنا البعض، لقد كان نبله طبيعياً، يتألق من داخله، وعندما تحدثنا سوية ذلك اليوم في المكتبة انتابتني فجأة رغبة عارمة لمقابلة والد هذا الولد».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بادره الأمير فيصل قائلاً: «سوف يسر الملك بلقائك، فلماذا تتحاشاه؟» (ص ١٧).

صورة الملك عبدالعزيز: أصبح المسرح الآن معداً لدخول الشخصية الرئيسة في الكتاب، شخصية الملك عبدالعزيز، بعد أن وصل شوقنا للقائه الذروة، هنا يأخذنا المؤلف تدريجياً إلى ذلك اللقاء، فبعد أن يصف ما شاهده وهو في طريقه من بيته إلى قصر الملك من أسواق وباعة وجمال وخليط من البضائع، وبعد وصوله، يذكر لنا أنه طلب منه الانتظار في غرفة خارجية متسعة ذات أعمدة وأرضها مغطاة بسجاد عادي، وبها أرائك ملبسة بقماش من الكاكي. هذا هو

المسرح، أو بالأحرى الكواليس، وإذا بأحد خدم الملك يدخل الغرفة قائلاً: الملك في انتظارك. وهنا يرفع الستار، وإذا نحن وجهاً لوجه أمام الملك عبدالعزيز، وأترك المؤلف يصف لنا ذلك اللقاء الأول الذي كان بمثابة نقطة تحول مهمة في حياة المؤلف: «دخلت غرفة تشبه التي تركتها للتو، إلا أنها كانت أصغر قليلاً وأكثر إنارة، وأحد جوانبها مفتوح بشكل كامل على الحديقة، والأرض مغطاة بسجاد فارسي ثمين، وقد جلس الملك القرفصاء على أريكة في نافذة على شكل مشربية تطل على الحديقة، وجلس على الأرض بجانبه سكرتير يكتب ما يمليه عليه الملك، وعندما دخلت قام الملك ومد لي كلتا يديه قائلاً: أهلاً وسهلاً، وهي أقدم تعبيرات التحية العربية وأجملها، واستطعت مرة ثانية فقط أن أتفرس بدهشة في طول ابن سعود الفارع، إذ عندما قبلت جبهته ومقدم أنفه بخفة (وهي عادة نجدية كنت على علم بها آنذاك) كان علي أن أقف على أطراف أصابعي بالرغم من طولي البالغ ستة أقدام، بينما عليه أن يحني رأسه قليلاً، وبإشارة اعتذارية نحو السكرتير جلس وأجلسني إلى جانبه على الأريكة، قائلاً: أكاد أفرغ من إملاء الكتاب، وبينما كان يملي بهدوء ابتدأ الحديث معي دون أن يخلط بين الموضوعين، وبعد أن تبادلنا العبارات الرسمية التقليدية التي تقتضيها المناسبة ناولته خطاباً يقدمني إليه فقرأه، مما يعني أنه كان يقوم بثلاث مهام في وقت واحد، ثم بعد ذلك وبدون أن يقطع إملاءه أو سؤاله عن أحوالي طلب القهوة.

عند ذلك تمكنت من التفرس فيه بشكل أكثر دقة، كان جسمه متناسقاً بحيث أنك لا تلحظ حجمه الكبير إلا عندما ينتصب قائماً، فلا بد أن طوله لا يقل

عن ستة أقدام ونصف، وكان وجهه الذي يحيط به الشماغ التقليدي ذو المربعات الحمراء والبيضاء يعلوه العقال الذهبي، كان مكتمل الرجولة بشكل أخاذ، وشاربه ولحيته مقصوصان على الطريقة النجدية، وجبهته عريضة، وأنفه قوي كالصقر، وفي بعض الأحيان يكاد يبدو فمه كله رقيقاً، ولكن ليس ليناً في نعومة حسية، وعندما تحدث انبثقت ملامح وجهه بحركة غير عادية، بينما تغشت وجهه عند صمته غلالة من الحزن، كأنما يتراجع إلى وحدة نفسية دفينة، وربما يرجع السبب في ذلك إلى تكوين عينيه العميقتين (ص ١٦ ـ ١٧).

بعد ذلك اللقاء الأول كان الملك يرسل في طلبه يومياً تقريباً، ثم يذكر المؤلف قصة سفره الأول مرة من مكة المكرمة إلى الرياض على ظهر جمل، وهو ما كان يحلم به، ولم يتوقع أن يتحقق حلمه بهذه السرعة، ولكنها فراسة الملك عبدالعزيز وبعد نظره، ففي أحد الأيام فاجأه الملك بطلبه أن يرافقه المؤلف في سفره براً إلى الرياض، لم يصدق المؤلف وكل حاشية الملك ما سمعوه بآذانهم، لأنه من غير العادة ـ كما يقول المؤلف ـ أن يسمح الملك للغرباء بالسفر إلى نجد، بل والأغرب من ذلك موافقة الملك على طلبه بالسفر بالجمال بدلاً من السيارة، لأن المؤلف يريد أن يتعرف عن قرب على أهل هذا البلد، أجابه الملك ضاحكاً: «وهل يغريك أن تحيط بدخيلة البدو في بلدي؟ لكني أحذرك مسبقاً أن البدو أناس متأخرون، وبلدي نجد أرض صحراء ليس فيها ما يريح النفس، وسيكون الشداد قاسياً عليك، والطعام مملاً كئيباً طوال الرحلة، لا شيء سوى الأرز والتمر وقليل من اللحم بين حين وآخر، فإذا كنت مصمماً فليكن ذلك لك، فربما أنك سوف لا تأسف على تعرفك على شعبي، إنهم فقراء غير متعلمين، إنهم لا شيء، لكن

قلوبهم عامرة بالعقيدة السمحاء» (ص ٢٠).

والنتيجة كما تبلورت فيما بعد في شكل هذا الكتاب الذي نحن بصدده بقلم كاتب كبير مثل (محمد أسد)، تدل على أن الملك كان على ثقة أن سماحه للمؤلف بالتجوال في المملكة سيكون في مصلحة هذا الكيان أولاً، ومن ثم في مصلحة القضية الإسلامية الكبيرة.

هذه الفراسة الفائقة ومعرفة مقادير الرجال تمثلت في حادثة لها أهمية كبرى في تاريخ المملكة، وذلك عند الحديث عن ثورة (فيصل الدويش) والإخوان ضد العراق، وثورته مع (ابن بجاد) ضد الملك عبدالعزيز، وتكليف الملك للمؤلف باستطلاع الأمر، فقد كان عند الملك شعور داخلي أن الإنجليز وراء ثورة الدويش، وذلك عندما علم بالأموال والعتاد المتدفقة على الدويش، لكنه كان يريد التأكد بما لا يدع مجالاً للشك، ولكن كيف؟ لنستمع كيف يصور لنا المؤلف اختيار الملك له للقيام بهذه المهمة، ففي إحدى الليالي وبعد أن أوى إلى فراشه، وإذا برسول الملك يطلبه على عجل لمقابلته، وعندما دخل عليه وجده جالساً على أريكة ومعه مجموعة من الصحف، فبادر بالسؤال: «ألا زلت مشغولا بالكتابة؟» وكما نعلم كان المؤلف مراسلاً لإحدى الصحف الألمانية الكبيرة، ولما كان الملك يشير إلى مجموعة من المقالات التي نشرها المؤلف عن مشكلات الحدود بين المملكة وبين العراق، يقول المؤلف: ولمعرفتي الجيدة بالملك كنت متأكداً أنه لم يكن يلقي الكلام على عواهنه، إنما كان في رأسه هدف محدد، لذا ظللت ساكتاً منتظراً أن يكمل كلامه، فأكمل قائلاً: «ربما تريد أن تكتب شيئاً عما يحدث في نجد، عن هذه الثورة وما تنذر به من سوء».. وبعد صمت طويل استمر الملك

قائلاً: «كنت أفكر كما فكر غيري في العتاد الحربي والذخيرة التي تحت تصرف الدويش ـ إنه يملك منها الكثير، وكثيراً من المال أيضاً، كما نما إلى علمي، لا أدري عما إذا كنت تريد أن تكتب عن هذه الأشياء، أعني المصادر الخفية لكميات العتاد والذخيرة هذه، إن لدي شكوكاً بشأنها، بل ربما أكثر من شكوك، لكني أريد منك أن تكتشف بنفسك ولمعلوماتك كل ما تستطيع أن تكتشفه، فربما أكون مخطئاً». ويعلق المؤلف قائلاً: «بالرغم من أن الملك كان يتحدث بشكل عرضي تقريباً وبلهجة الحديث العادي، كان من الواضح أنه يزن كل كلمة قبل التلفظ بها، تفرست في وجهه الذي كان متجهماً قبل لحظة وإذا به يشرق بابتسامة عريضة، وضع يده على ركبتي وهزها بقوة قائلاً: أريدك يا بني أن تكتشف بنفسك، وأكررها: بنفسك، اكتشف لنفسك من أين يحصل الدويش على بنادقه وذخيرته والمال الذي يبذله للناس حوله بسخاء، لا يوجد لدي أدنى شك، لكني أريد شخصاً مثلك، غير متورط بشكل مباشر، ليعلن للعالم الحقيقة المعوجة وراء تمرد الدويش... أعتقد أنك تستطيع اكتشاف حقيقة الأمر» (ص ٢٢٧ - ٢٣٠).

قام المؤلف ورفيقه (زيد) بتلك المهمة الصعبة الخطرة، وتبين له أن الإنجليز كانوا وراء الدويش، فقد كانوا يخططون لبناء خط حديدي يصل بين حيفا في فلسطين وبين البصرة على شاطئ الخليج. ولتأكدهم أن الملك عبدالعزيز سوف يرفض طلبهم بأن يمر الخط في شمال بلاده، رأوا أن يساعدوا الدويش على الاستقلال عن الملك عبدالعزيز وذلك بإنشاء دويلة عازلة بين المملكة وبين العراق، يمشي فيها ذلك الخط الحديدي. تحركت غريزة المؤلف الصحفية ورأى في ذلك

السر خبطة صحفية ثمينة، فكتب سلسلة من المقالات الصحفية نشرت في كبريات الجرائد الأوروبية، ففضحت مخطط الإنجليز، فقد أثارت تلك المقالات زوبعة من التعليقات والتحليلات أحرجتهم، وكانت النتيجة أنهم تخلوا عن الدويش، وطوي المشروع بالرغم من أنهم صرفوا مبالغ طائلة على المسح الأولي العائد له (ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦). وهكذا كانت فراسة الملك عبدالعزيز في محلها، فقد عرف كيف يستخدم الشخص المناسب في العمل المناسب.

هذه الفراسة جزء من شخصية الملك عبدالعزيز المتعددة الجوانب، والتي لا يستطيع سبر أغوارها حتى أقرب الناس إليه، كما يعترف المؤلف، وهو الذي لازمه مدة طويلة اكتشف فيها أنه لا يخفي شيئاً من أسراره على من يثق بهم، ومع ذلك تخفي بساطته الظاهرة وعدم تكلفه قلباً عميقاً كالبحر بكل أسراره وتقلباته، إن سلطته الشخصية هائلة، لكنها لا تنبع من القوة الحسية، وإنما من متانة خلقه، إن روحه الديموقراطية الحقة تتيح له التحدث على قدم المساواة مع البدو الذين يأتونه بملابسهم الرثة، كما تسمح لهم بمناداته باسمه الأول دون رسميات، لكنه في الوقت نفسه يحتقر أولئك المسئولين ذوي المناصب العالية عندما يشتَمُّ فيهم روح التملق والاستخذاء.

هذا الكتاب لايؤرخ للملك عبدالعزيز، لكن الملك عبدالعزيز هو في الواقع محور الكتاب، كما أن العرب كما شاهدهم المؤلف وعاش بينهم هم محور الحضارة الإسلامية، فبالإضافة إلى كون الرحلة إلى حدود العراق هي الإطار البنائي الذي تتحرك فيه أحداث الكتاب، فإن الملك عبدالعزيز بأخلاقه وصفاته وحنكته السياسية هو المقياس الذي يخضع له تقويم الشخصيات الأخرى، فمثلاً

عندما يتحدث المؤلف عن كرم (ابن مساعد) يشبهه بكرم الملك عبدالعزيز (ص١٦٢)، وعندما يصف دينامية الشاه (رضا) شاه إيران بإعجاب، لا يجد ما يقارنها به سوى دينامية الملك عبدالعزيز (ص٢٦٤)، وأخيراً لا يجد مناضل ومجاهد إسلامي كالسيد (أحمد السنوسي) المناضل الليبي، لا يجد ملجأ من انتقام المستعمرين إلا في رحاب الملك عبدالعزيز (ص٣٢٠).

يقودنا هذا إلى الإطار الذي نمت فيه صلة المؤلف بالملك عبدالعزيز، ألا وهو حبه للعرب، الذي بدأ بحادثة بسيطة في أثناء رحلته بالقطار من مصر إلى القدس، لقد استغرقت تلك الرحلة الليل كله، وفي الفجر توقف القطار عند إحدى المحطات، وكان يجلس في المقعد المقابل له رجل من البادية، فما أن توقف القطار حتى اشترى البدوي شيئاً من الكعك وذلك من أحد الباعة الذين التفوا حول القطار، وقبل أن يعود إلى مقعده وقع نظره على المؤلف، فما كان من البدوي إلا أن قسم قطعة الكعك إلى نصفين وقدم إحداهما إلى المؤلف الذي قبلها بعد تردد وبعد إصرار البدوي، وهذا هو تعليق المؤلف على هذه الحادثة: «عندما أفكر الآن في هذه الحادثة البسيطة، يبدو لي أن حبي اللاحق بأكمله للشخصية العربية لا بد أنه تأثر بها، لأن من المؤكد أن تلك اللفتة من البدوي الذي أحس بالصداقة في رفيق سفر قابله عرضاً واقتسم معه طعامه، بالرغم من كل حواجز الغربة، من المؤكد أنها أشعرتني بنعمة إنسانية خالية من التصنع» (ص ٨٣).

هذا الحب للعرب وإعجاب المؤلف بطباعهم يظهر واضحاً في وصفه حادثة (أبي سعيد) أحد "رجاجيل" الملك عبدالعزيز من أصل أفريقي، فبينما كان

المؤلف وجماعته جالسين حول النار في خيامهم وهم على وشك الوصول إلى مكة، وإذا بشخص يسمى أبو سعيد يدخل عليهم فجأة بعد أن أوقف ذلوله ورمى بشداده على الأرض، وأخذ يدور حول الخيام صائحاً: «نورا .... نورا»، وكأن به مساً من الجن، يتبين بعد ذلك أنه كان يحب فتاة بهذا الاسم وطلبها للزواج لكن والدها رفضه بالرغم من أنه دفع مبلغاً كبيراً مهراً لها، وزوجها والدها لابن عمها، فجن جنون أبي سعيد، لكن (زيد) بالرغم من تعاطفه مع أبي سعيد في محنته، لا يجد مندوحة من احتقار سلوك أبي سعيد، وقد ظهر ذلك واضحاً على قسمات وجهه، كما يؤكد المؤلف، فالطبع الأروستقراطي العربي يمنع الإنسان من الانقياد وراء العاطفة هكذا على ملأ من الناس (ص٣٥٢).

لذا لا نستغرب في المؤلف إعجابه بالملك عبدالعزيز، إنه هنا لا يتعامل مع إنسان عربي عادي يقابله في رحلة سفر أو مع مرافق مخلص له في جميع تنقلاته، إنه يتعامل مع زعيم عربي مسلم له شخصيته المتعددة الجوانب، كما ذكر من قبل، وله التأثير الكبير على كل من حوله، حتى إذا أصبحت صديقاً وضيفاً لذلك الزعيم أصبح كل من حوله أصدقاء لك، موظفوه الرسميون، رجاجيله، أصحاب الدكاكين في العاصمة، حتى أبناء البادية الذين يعيشون تحت إمرته في السهول الواسعة، ولا يكاد الضيف يبدي أية رغبة في شيء حتى تلبى له في الحال، كلما كان ذلك مستطاعاً، إنه ينغمر على مدار الساعة بدفء العطف التلقائي، سواء كان ذلك في سوق البلدة، أو في ردهات القصر الواسعة وممراته. (ص ١٦٢).

ولكن لا تكتمل صورة الملك عبدالعزيز لو توقف المؤلف عند جوانبه العامة،

أي شخصيته كملك وكسياسي وكقائد محنك، فلا بد له من الاقتراب أكثر فأكثر حتى نصل معه إلى الملك عبدالعزيز الإنسان، ولم يكن المؤلف ليقف على تلك الجوانب الإنسانية من حياة الملك عبدالعزيز لولا تلك الصداقة الحميمة التي منحه إياها الملك، وقد رأينا ذلك مبكراً في أول لقاء بين الملك وبين المؤلف في مكة المكرمة عندما وصلها المؤلف حاجاً لأول مرة، وقد توطدت بينهما الصداقة منذ البداية، وهذا يشهد لحكمة الملك وبعد نظره، كونه استطاع أن يؤثر ذلك التأثير في هذا الإنسان الأوروبي الذي اعتنق الإسلام حديثاً، والذي ربما لا زالت الآراء والصور المغلوطة عن العرب والمسلمين التي تلقاها في سنيه الأولى، لا زالت تحرك تصرفاته من حيث لا يدري.

تبدأ ملامح الجوانب الإنسانية في شخصية الملك عبدالعزيز في الظهور عندما يروي الملك بنفسه للمؤلف ذكريات طفولته في الكويت، وكيف أن عمته هي التي بثت فيه روح التحدي والأمل في استعادة ملك آبائه وأجداده (ص١٦٥). وبعد ذلك في الرياض عندما يتبادل الملك وولي عهده الأمير سعود والمؤلف رواية أحلامهم وتحقق ما تشير إليه، وهو استعادة عبدالعزيز الملك واعتناق المؤلف الإسلام وتأكد الأمير سعود من صحة إسلام المؤلف وأمانته (ص ١٦٧ ـ ١٧١).

لكن النقطة التي تتألق فيها إنسانية الملك عبدالعزيز تألقاً شديداً يأسر لب المؤلف والقارئ هو تعلق الملك بزوجته (الجوهرة) وحبه العارم لها، لدرجة أن وفاتها قد تركت في قلبه ندبة لا تندمل، فقد كانت حبَّه الحقيقي، وكان ذلك الحب سنداً له بعد الله في التغلب على كثير من الصعاب التي واجهته، إنه يجد صورتها دائماً بجانبه بقصيدة تنبع من سويداء قلبه ثم تجري على لسانه،

وإذا بتلك الصعاب تتوارى، ويأخذ عندئذ القرار المناسب الصائب مثل ما حصل له قبل مهاجمته بلدة الهفوف (ص١٧٦)، ومن الطبيعي أن يتأثر المؤلف بهذا الجانب من شخصية الملك، فقد حرك أشجانه وذكره بزوجته التي أحبها كما لم يحب أحداً قبلها أو بعدها، والتي دفنها في بطحاء مكة بعد فترة قصيرة من وصولهما إليها لأول مرة (ص٤٠).

وبعد سياحة طويلة في ذكريات المؤلف، وبعد حوادث متعددة تمر به وليس هنا مجال ذكرها، نصل وإياه إلى مكة المكرمة، إلى نهاية الطريق، بعد أن مكث أياماً في مدينة المصطفى ﷺ، وقبل أن تغمرنا مع المؤلف شعائر الحج وكل ما ترمز إليه من استمرارية النبوة وختامها في سيد الخلق عليه الصلاة والسلام من جهة، وما ترمز إليه من استمرارية وحدة المسلمين المرتكزة على وحدة الإنسانية، وقبل أن يمتزج صوت الراوي بهتاف الملبين القانتين لله العابدين له، يودعنا المؤلف وقلبه يخفق قلقاً وخوفاً على مستقبل هذه البلاد، ولنسمعه يرد على زيد الذي يعاتبه بأنه لم يعد يحب هذه البلاد لأنه ينوي السفر عنها: «لا يا زيد، إنني أحبها كثيراً، بل ربما أكثر من اللازم، لدرجة أنه يؤلمني ما يمكن أن يخبئ لها القدر، فقد علمت أن الملك ينوي أن يفتح بلاده للأفرنج ليحصل على المال منهم، فسيسمح لهم بالتنقيب عن النفط في الأحساء وعن الذهب في الحجاز، والله وحده أعلم بمدى تأثير هذا الانفتاح على البدو، فلن تعود البلاد كما كانت من قبل» (٣٥٠).

ربما كان لهذا الخوف ما يبرره في ذلك الوقت، في عام ١٩٣٢م، ولكن لو عاد المؤلف إلى المملكة، حتى في عام ١٩٥٦م، وهي السنة التي نشر فيها

الكتاب، لو عاد ورأى كيف استطاع الملك عبدالعزيز، وأبناؤه من بعده، أن يقفزوا بهذه البلاد قفزات حضارية هائلة في فترة وجيزة، وذلك من خير النفط الذي منّ الله به على هذه البلاد، مع الإبقاء على ثوابت الأمة الدينية وقواعدها الشرعية والتمسك بتقاليدها العظيمة، لقرت عينه، ولعرف أن هذه البلاد بخير ولله الحمد، وستبقى بإذن الله كذلك ما سارت على هذا النهج السليم.

وبعد، هذه إذن صورة شخصية وحميمة للملك عبدالعزيز ولمملكته، في فترة من أدق فترات تاريخها الحديث، رسمتها لنا ريشة أوروبية شديدة الحساسية، متمرسة في فن التصوير، تحركها يد غمرها حب العرب والمسلمين بعامة وحب هذه البلاد بخاصة، فجاءت واضحة المعالم، متعددة الألوان، مكتملة القسمات، خالية من الزيف والادعاء.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإعلام في عهد الملك عبدالعزيز

* د. إبراهيم العتيبي

أصبح الإعلام أداة العصر والقوة المسيطرة على السياسة وجميع وسائل الحياة، وقد مر الإعلام -مثل غيره من وسائل التأثير الثقافي- بمراحل من البدائية في الوسائل والمعطيات إلى أعقدها وأشدها خطراً بما له من تأثير بعد أن هيئ له من وسائل الاتصال ولغة الخطاب ما يجعله أشد فتكاً من القوة الغاشمة.

والمتأمل في عصرنا يجد أن الإعلام يحظى بالدعم والتخطيط من جميع الدول، وله أهمية كبرى ودور فعال وأساسي في جميع المعارك الحربية والسياسية والثقافية والاقتصادية ومرافق الحياة، فالتنافس شديد بين الأمم في

توظيف الإعلام بما يحقق أهدافها، فهو صنو الصراع العسكري؛ تستخدم فيه كل الوسائل وأحدثها طلباً للتأثير الإيجابي وتحقيق الغلبة.

فعالم من حولنا لا يمكن إدراكه إلا بالإعلام، وإليه يرجع الفضل بعد الله في معرفة ما يحصل في هذا العالم، فنحن في أمس الحاجة إلى معرفة أحداث العالم؛ لأنها تؤثر فينا وفي الوقت نفسه نُرغب إعلام العالم الخارجي بما يحدث عندنا من إيجابيات ونقل وجهة نظرنا أو الدفاع عن أنفسنا ضد الهجمات الإعلامية، ويزداد تأثير الإعلام إذا ظهر منه صدق القول والتوجه، وغلب عليه النبل، فالمتلقي يقبل عليه بحماس إذا وثق فيه، وله تأثير كبير على نفسية المستمع والقارئ، بعد أن أصبح الإعلام يتحكم في العلاقات الإنسانية وبه تنفذ القرارات باقتناع أو بإقناع، فهو رأي وفكر يسعى من يملك ناصيته إلى التحكم في العالم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد ارتبطت صناعة الإعلام باختراع الطباعة وتوزيع المطبوعات في بداية أمرها، ثم زاد تأثيرها مع المخترعات الحديثة من إذاعة وتلفاز وتقنيات الاتصال، وقد مرت هذه الأدوات بمراحل تاريخية مختلفة، ونتيجة هذه الوسائل أصبح العالم قرية صغيرة بل حيا، بعد التوسع الرأسي والأفقي في وسائل الاتصال، وتحسن وسائل المواصلات وانتشار الأقمار الصناعية في الفضاء الخارجي، خاصة مع «الإنترنت»، هذا الوافد الذي ينقل النص والصوت والصورة، ويقتحم الخلوات وأكثر الأماكن سراً ومنعة مما يصعب عملية الرقابة على وسائل التأثير المناهض للأمم والقيم والأخلاق.

وتشهد المملكة اليوم نهضة كبرى ساهم الإعلام في إبرازها، ولهذا الإعلام

جذور تاريخية بدأت مع الشعبة السياسية أقدم مكاتب الديوان الملكي، وهذا يبين اهتمام – المؤسس– الملك عبدالعزيز بالإعلام إدراكاً منه بأهميته، فقد شب الملك عبدالعزيز مع الصراع الدولي، وعاصر حربين عالميتين، ورأى تأثير الإعلام ولغة الخطاب في الرأي وترجيح الحجة وغلبة الخصم وكسب الأصدقاء، ولهذا كان الإعلام من أولوياته وإن كانت البداية متواضعة.

يقول حسن عبدالحي قزاز: «وقد كان الإعلام السعودي، كما وضع أسسه جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله وأرسى قواعده، مواكباً لمناهج الدولة في سياستها الداخلية والخارجية، ومرتبطاً بأهدافها وغايتها في الثبات والوضوح.. وحظي برعاية الدولة التي هيأت السبل والأسباب الكفيلة بتطوره وازدهاره في شتى المراحل التي رافقته، ومن خلال مختلف الظروف الإقليمية والعالمية التي كان الإعلام العالمي بصفة عامة مرتبطاً بتأثيرها إيجاباً وسلباً خاصة فيما يتعلق بالإمكانات المتاحة لنمو الإعلام وتطوره، والمؤثرات التقنية التي حددت مساره والظروف السياسية التي كانت تخضع لها مجريات الأحداث الدولية»(١).

لقد اهتم الملك عبدالعزيز يرحمه الله بالإعلام، ولم يستسلم للمعوقات الفنية وافتقاره إلى تجهيزات ومتطلبات الإعلام فنياً وبشرياً، فأسس قاعدة إعلامية تطورت بثبات مع تطور مؤسسات المملكة، والدارس لتطور الإعلام في عهده يمكن أن يفرق بين ثلاث مراحل تاريخية: مرحلة بداية تأسيس المملكة، ومرحلة إصدار جريدة عام ١٣٤٣هـ، ومرحلة تأسيس الإذاعة السعودية لأول مرة عام ١٣٦٨هـ، وتختص كل مرحلة بسمات عصرها وإمكاناته.

المرحلة الأولى: بداية تأسيس المملكة، وتمثل الفترة السابقة لعام ١٣٤٣هـ، ففي هذه الفترة كان الملك عبدالعزيز يعتمد على الوسائل البدائية -خطابات وتعليمات تعلق على مداخل المساجد، وتعليمات يحملها المندوبون، وخطب في حفل يطلب منهم إبلاغها - في إبلاغ الأوامر والتعليمات التي يصدرها وما يرغب إيصاله للأمة من تعليمات، لأن منطقة نجد في هذه الفترة لم تعرف المطابع أو دور النشر والصحافة ولا وسائل الاتصال الحديثة مع غلبة الأمية.

يقول خير الدين الزركلي: «لم تعرف بلاد نجد الصحافة إلا في أواخر أيام عبدالعزيز، أما قبل ذلك فكان أحد مثقفيها سليمان بن صالح الدخيل من أهل بريدة في القصيم ينقل أخبار قلب الجزيرة إلى صحيفة له أسبوعية أنشأها في بغداد سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، وسماها (الرياض) استمرت إلى سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، فكانت سجلاً لغير القليل من أحداث شبه الجزيرة في تلك الفترة. كما أصدر مجلة باسم (الحياة)، عاشت مدة في العهد التركي، ببغداد»(٢).

ومع هذه المعوقات، حرص الملك عبدالعزيز على الاتصال بالعالم الخارجي وجلب الصحف ونظم أعمال البريد الداخلي وهي إعلام محلي، فقد ورد في الرحلة الملكية أن الملك عبدالعزيز أثناء سفره للحجاز في بداية عام ١٣٤٣هـ «نظم أمور البرد التي تنقل له أخبار الأطراف لتوافيه في مواقعه التي عينها في طريق مكة المكرمة»(٣).

ويقول خير الدين الزركلي عن بريد الملك عبدالعزيز واهتمامه بالإعلام الخارجي: «.. ولم يكن في مفاوز القفار هاتف ولا برق سلكي أو لاسلكي، وكان

المذياع ما يزال بعيداً عن متناول أهل المشرق العربي، فليس ثمة من وسيلة للاتصال بالعالم، قريبه وبعيده، إلا البريد تحمله سفن البر (الهجانة)، وكان بريد عبدالعزيز يدركه أينما كان. هذا بريد من البصرة يا طويل العمر؛ وهذا من مكة، وهذا من مصر، ومن الشام»[٤]. وقال: إن بريد مكة جاء الملك عبدالعزيز في ضواحي الدوادمي في ٢٣/٤/١٣٤٣هـ[٥].

أما الإعلام الخارجي في هذه الفترة، فكان يعتمد على وكلائه في الخارج[٦] وعلى الصحافة الخارجية، خاصة مجلة المنار؛ لأنها سلفية التوجه ولها دفاع مشرف عن الدعوة السلفية وعن الملك عبدالعزيز[٧].

ولم تشغله الحرب في الحجاز عن تأمين الطرق المؤدية إلى المشاعر المقدسة، فقد نشر بلاغاً في مجلة المنار بعنوان «نداء عام إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها»، مؤرخاً في ١/٨/١٣٤٣هـ، جاء فيه: «٢ ـ إننا نرحب ونبتهج بقدوم وفود حجاج بيت الله الحرام من كافة المسلمين في موسم هذه السنة، ونتكفل بحول الله بتأمين راحتهم، والمحافظة على جميع حقوقهم وتسهيل أمرهم وسفرهم إلى مكة من إحدى الموانئ التي ينزلون فيها؛ وهي رابغ أو الليث أو القنفذة، وقدامكم فيها النظام واستتباب الأمن»[٨].

وهذا يظهر حرص الملك عبدالعزيز على الإفادة من الإعلام، ويحيد خصومه ويفوت عليهم استغلال فترة الحرب، فيتهموه بتعطيل الحج، ويؤلبوا عليه المسلمين، خاصة الذين لهم أهواء ومناصرة الأشراف في الحجاز أو من هم على مذهب يخالف أهل السنة والجماعة، وهذا ذكاء من الملك عبدالعزيز وبعد نظر؛

إدراكاً منه لخطورة الإعلام في تحامل الأعداء أو كسب الأصدقاء.

وكان صادقاً في ما نشر، فقد قدم الحجاج في هذا العام ١٣٤٣هـ والحرب لا زالت قائمة- وعادوا بأحسن انطباع عن الأمن في الحج (٩)، وبعد نهاية الحرب أصدر الملك بلاغاً في ١٣٤٤/٦/٨هـ شرح فيه سياسته الداخلية والخارجية، مع التركيز على أمن الحجاز خاصة - كان يعاني من اضطراب الأمن في ظل الحكومات السابقة مما أعاق الحج - ووحدة البلاد، هذا الأسلوب تطور في استخدام وسائل الإعلام ومخاطبة الرأي العام والعالم الخارجي (١٠).

ورد في لغة العرب تحت عنوان «هدايا بن سعود» أن الملك عبدالعزيز أهدى إلى ملك بريطانيا «ألطافاً، هي ثلاثة جياد عراب وثلاثة سيوف مذهبة وثلاثة خناجر». وشملت القائمة معتمدي بريطانيا وقناصلها في الخليج العربي، حملها إلى أصحابها مبعوث خاص من الملك، و«أهدى جلالته أيضاً عقداً نفيساً من الدر إلى عقيلة الكرنل دكسن قنصل الكويت، لأن في سنة ١٩٢٢م كانت تلك السيدة في البحرين تترجم مقالات جريدة الطان الفرنسية، وترسل بها إلى صاحب الجلالة النجدية الحجازية» (١١)، وهذا يعني أن الملك عبدالعزيز استخدم مراسلين أجانب ينقلون له الأخبار التي تهمه مقابل أجر.

وكان الملك عبدالعزيز يحسن توظيف الإعلام في بيان وجهة نظره، إدراكاً منه لأهمية الإعلام وتأثيره، وهذا واضح من البيان الذي أصدره أثناء سفره إلى الحجاز عندما سبقته قواته إليها عام ١٣٤٣هـ، فقد سوَّغ سفره قائلاً: «إني مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها، بل لرفع المظالم والمغارم التي أرهقت كاهل عباد الله» (١٢).

المرحلة الثانية: هي مرحلة استخدام الصحافة والمنشورات المطبوعة. وقد بدأت مع استقرار المملكة ونمو مؤسساتها إدارياً بعد نهاية معظم حروب تأسيسها، وتبدأ هذه المرحلة مع إصدار جريدة أم القرى في ١٣٤٣/٥/١٥هـ؛ إذ استخدمت مطبعة أم القرى في طبع الأوامر والتعليمات، واستخدمت الجريدة ذاتها وسيلة إعلامية مؤثرة، وكان لهذه الجريدة وما صدر بعدها من صحف آثار قوية للإعلام في عهد الملك عبدالعزيز.

وعندما نمت وسائل الإعلام، رأى الملك عبدالعزيز أن يخضعها لتنظيم إداري يحكم وسائل النشر، ويحدد مصدرها؛ خوفاً من سلبيات تعدد مصدر الخبر، فبادر إلى إنشاء إدارة المطبوعات والمخابرات في ١٣٤٥/١/٢٨هـ. وقد بين أمر الإنشاء تعليمات عمل هذه الإدارة (انظر الوثيقة المرفقة).

وشهدت هذه المرحلة إصدار الصحف والمجلات، وإنشاء دور النشر والمطابع نتيجة استقرار البلاد سياسياً وتحسن مستوى المعيشة وتوفر الأمن ونشر التعليم وثبات الإعلام السعودي لصدقه، ونتيجة اعتدال سياسة الملك وحرصه على دعم المسلمين والعمل على تقاربهم ومناصرتهم في القضايا المصيرية.

وتبين افتتاحية جريدة أم القرى في عددها الأول، التوجه الإسلامي والسياسة المتزنة التي أمر الملك عبدالعزيز اتخاذها حيال القضايا التي تناقشها الصحيفة، فقد بدأت الافتتاحية قائلة:

«لك الحمد بارئ السموات والأرض، جاعل الأيام دولاً... ونستفتح بالذي هو خير، أما بعد فما نحن إلا نسل من أباء صدق سلفوا من قبل، أعدهم الله

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

باتباع هدي نبيه ﷺ، فعزوا وكانوا سادة الأمم.. وظلت هذه البلاد بعيدة عن المسلمين والمسلمون بعيدون عنها، وكل فريق يرمي صاحبه بمنكر القول، ولعل الله أراد أن يزيل هذا الحاجز الذي كان بين الفريقين ليتعارفوا ويتفاهموا، فيكونوا إخواناً بنعمة الله، يحمون حمى الله وحماهم، فنصر هذه الطائفة على عدوها، ودخلت بيته الحرام تقيم فيه شرعه الذي شرعه، وقد أصدرنا هذه الجريدة لتكون:

١ ـ واسطة للتفاهم بين العالم الإسلامي وهذه الفئة من العرب والمسلمين، فنظهر ما عند القوم ليعرف الناس حقيقة الأمر.

٢ ـ لنشر ما من شأنه أن يبصر الناس فيما يصلح أمرهم في الدنيا والآخرة، وإنَّا ندعو جميع من أحب خطتنا لمناصرتنا، ونطلب من جميع من يرى في أمرنا ما يأخذه علينا أن يكتب لنا بما يرى، فإن أقنعنا بالحجة وأبان لنا خطأنا رجعنا عنه، وإن أقنعناه بما عندنا رجع إليه، والخير نريد، ونتمنى من الله الهداية والتوفيق»[١٣].

وقد ساهمت جريدة أم القرى في النهضة الثقافية في الفترة الماضية نتيجة الدعم المادي والمعنوي من قبل الحكومة والإشراف المباشر عليها (انظر التعليمات المرفقة) وكان لها الريادة حتى انتشرت الصحف والمجلات بعدها. ومع أن دور (أم القرى) قد تراجع، إلا أنها ظلت محافظة على صفتها جريدة رسمية للمملكة، إلا أن الأعداد القديمة تعد من أهم مصادر تاريخ المملكة في جميع المجالات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد استخدم الملك عبدالعزيز كل وسائل الاتصال الإعلامي المتاحة في عصره؛ ومنها الاحتفال الذي كان يقيمه سنوياً في مكة المكرمة تكريماً لزعماء ورجال العالمين العربي والإسلامي خلال موسم الحج - وحافظ أبناؤه من بعده على نفس المنهج - وكان هذا اللقاء بمثابة مؤتمر صحفي يشرح فيه الملك سياسة المملكة تجاه مجريات الأحداث العالمية، فكانت هذه بمثابة وسيلة إعلامية طبقها الملك بحنكته المعروفة.

يقول الملك عبدالعزيز في حفل استقبال وفود الحجاج عام ١٣٥٠هـ: «.. كثيراً ما يقول بعض الناس ليش ما يحط ابن سعود جمعيات ودعاية ضد الإنجليز والمسكوف أو الطليان أو غيره ويدافع عن المسلمين، فأحب أن أكشف هذه الشبهة وأبين الحقيقة فيها، أنا لست من رجال القول الذين يرمون اللفظ بغير حساب، أنا رجل عمل إذا قلت فعلت.. أنا لا أقول لصاحب «أم القرى» (رئيس التحرير) أو غيره قل وتكلم على فلان وفلان وإنما آمر بالسكوت إلى وقت الفعل فإذا فعلنا تكلمنا»(١٤).

المرحلة الثالثة: تمثل امتداداً لما قبلها من مراحل مع تطوير الوسائل، وتبدأ مع تأسيس الإذاعة السعودية عام ١٣٦٨هـ(١٥). ومع الإذاعة قوي الإعلام السعودي، على الرغم من قلة ساعات البث والتغطية والبرامج، إلا أنها ذات تأثير. واستطاعت أن تسمع العالم صوت المملكة، وتنقل الشعائر الدينية من الحرمين الشريفين ومن المشاعر المقدسة، فأصبحت أداة ربط بين العالم الإسلامي ومقدساتهم، وهذا واضح من برامجها اليومية(١٦).

ARCHIVE

بعد وفاة الملك عبدالعزيز بعام تأسست «المديرية العامة للصحافة والنشر» بالمرسوم رقم ٢١/٥/٢٩/٢٠١٣ في ٢٦/١٠/١٣٧٤هـ. جاء فيه أن مهمتها «التنظيم والتنسيق والإشراف على جميع وسائل النشر في المملكة، ونشر الحقائق والمعلومات عن سير حركة الإصلاح فيها والدفاع عن سمعتها.. وترتبط بهذه المديرية: المديرية العامة للإذاعة، وإدارة المطبوعات، والصحافة ومختلف وسائل النشر في حدود الأنظمة المعتمدة»، وقد عين الوزير المفوض عبدالله بلخير مشرفاً عليها ومسؤولاً عنها[١٧]. ومهمة هذه المديرية كما نص الأمر في المادة الثانية، «التنظيم والتنسيق والإشراف على جميع وسائل النشر في المملكة، ونشر الحقائق والمعلومات عن سير حركة الاصلاح فيها والدفاع عن سمعتها».

ويظهر إن إجراءات تأسيسها قد تمت في عهد الملك عبدالعزيز؛ لأن المشرف عليها كان مسؤول الإعلام ومترجماً للملك عبدالعزيز ينقل له أخبار العالم التي يحصل عليها عن طريق سماع الإذاعات.

وقد ضم إلى هذه المديرية دوائر كانت قائمة، فقد ورد في الفقرة الثالثة من أمر التأسيس: «ترتبط بهذه المديرية: المديرية العامة للإذاعة، وإدارة المطبوعات، والصحافة، ومختلف وسائل النشر في حدود الأنظمة المعتمدة».

ويذكر عبدالله بلخير أنه كان يترجم الأخبار ويلخصها للملك عبدالعزيز ثلاث مرات في اليوم وفي الظروف العادية، وأنَّ الملك كان يحرص على تتبع أخبار العالم ويحللها، ويضع الفرضيات التي تحكم هذه الأخبار[١٨]. فالملك عبدالعزيز

كان يمتاز بقوة الملاحظة، ولديه حس إعلامي مكنه من تفهم سياسة العالم ومجريات الأحداث في عصره، فيتابعها ويضع الخطط التي تخدم مصالحه.

يقول محمد حامد الفقي واصفاً الملك عبدالعزيز: «.. وهو قوي التحصيل، سريع الفهم، يدرك بسرعة العبرة مما يسمع، فيتخذ منها درسًا قويا بالتعليقات والشواهد للحاضرين بما يناسب الوقت والأمر الذي يقصده»[١٩]، وقال: إنه سمع الملك عبدالعزيز يخاطب خالد بن لؤي عام ١٣٤٨هـ قائلاً: «.. اسمع يا خالد واسمعوا يا الإخوان، أنا عندي أمران لا أتهاون في شيء منهما ولا أتوانى في القضاء على من يحاول النيل منهما ولو بشعرة، الأولى: كلمة التوحيد.. والثاني هذا الملك الذي جمع الله به شمل العرب بعد الفرقة، وأعزهم به بعد الذلة، وكثرهم بعد قلة، فإني كذلك لا أدخر قطرة من دمي في سبيل الذود عن حوضه، وقد عودني الله سبحانه وتعالى من كرمه وفضله أن ينصرني على كل من أراد هذا الملك بسوء أو دبر له كيداً؛ لأني جعلت سنتي ومبدأي أن لا أبدأ أحد بالعدوان»[٢٠].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والإعلام في المملكة بصورة عامة لم يتوقف على إصدار الصحف فيها أو تأسيس المؤسسات الإعلامية، وقد سبق أن تناوله عدد من الباحثين السعوديين[٢١]، مما يغني عن الإعادة، إلا أن المعلومات الواردة في الوثائق الرسمية المرفقة تنشر لأول مرة حسب علمي..

خلال بحثي عن وثائق تاريخ المملكة في محفوظات وزارة الداخلية عثرت على ثلاث وثائق: الأولى: أمر من الملك عبدالعزيز بتشكيل إدارة المطبوعات

والمخابرات صادر في ١٣٤٥/١/٢٨، عليها شعار «الديوان السلطاني»[٢٢]. والثانية: خطاب موجه من وكيل وزارة الخارجية إلى رئيس تحرير جريدة أم القرى في ١٣٦٦/١٠/٢٣هـ مرفق به تعليمات عن النشر في الجريدة، ويحمل الخطاب والتعليمات عبارة «ديوان جلالة الملك، المكتب الخاص»، مما يثبت أن الخطاب والتعليمات عملت بأمر الملك، وهذا واضح من الفقرة (١٥) من التعليمات، ونصوص هذه الوثائق مرفقة بهذا البحث. والوثيقة الثالثة فيها برنامج شهر صفر من عام ١٣٧١ هـ لإذاعة «هنا مكة» التي كانت تبث من مكة المكرمة.

وتوضح هذه الوثائق اهتمام الملك عبدالعزيز بالإعلام، حيث وضع ضوابط تمنع تأثيره السلبي وتحقق العنصر الإيجابي، وبما أن الوثائق مصدر مهم عن الفترة التاريخية الماضية، وفيها صدق القول وصفاؤه، أردت نشرها ليطلع عليها الباحثون، وفيها إضافة نافعة تفيد دارس تاريخ الإعلام والصحافة والحركة العلمية في المملكة، وتبين جهود الملك عبدالعزيز في إيصال صوت المملكة إلى كافة بقاع العالم ، ولن أتعرض إلى تحليل نصوص وفقرات هذه الوثائق، حتى لا تفقد قيمتها[٢٣]، فهي واضحة ولن تغيب معطياتها عن فطنة القارئ الكريم، وسيجد فيها الكثير من المعلومات، خاصة تعليمات النشر في أم القرى، ففيها من الوضوح والشمول ما يؤهلها أن تكون أول نظام إعلام يصدر في المملكة.

ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها أن الإعلام السعودي الذي وضع أساسه المؤسس الملك عبدالعزيز يرحمه الله حقق للمملكة وللعالمين العربي والإسلامي

فوائد جمة وأصبح الإعلام السعودي مضرب المثل في الصدق والبعد عن اللغو أو الشطط.

فهذا مبدأ أخلاقية الإعلام السعودي المتزن خلال مراحل تطوره، وهو ـ في مجمله ـ صوت خير نافع يدعو إلى الفضيلة والمحبة، ويدافع عن الحق، ويدحض الباطل بالحجة المقنعة طلباً للحقيقة وتحقيقاً للحكمة وهي ضالة المؤمن.

آمل أن يجد القارئ في هذه العجالة وفي هذه الوثائق المنفعة وفي الوقت نفسه أدعو من لديه وثائق أو معلومات غير منشورة عن تاريخ المملكة أن ينشرها طلباً للفائدة والعلم، لأن حجب العلم يخالف الشرع خاصة ونحن نعيش مناسبة عزيزة ـ وهي بدء فعاليات الاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة ـ ولن يتاح لجيلنا إلا ما شاء الله ـ المشاركة في المئوية القادمة لهذه المناسبة، إن نشر العلم فضيلة ومنعه خلل في المروءة، وأنا فقير من القارئ إلى بسط العُذر.

وفيما يلي نص هذه الوثائق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الديوان السلطاني

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل إلى نائبنا ولدنا فيصل حفظه الله

أما بعد فقد أمرنا بتشكيل إدارة للمطبوعات والمخابرات

يديرها يوسف ياسين ويعاونه فيها عبدالعزيز العتيقي

وأن يكون المدير مرتبطاً بنا فيما يتعلق بالمخابرات

الخارجية ويكون مرتبطاً بكم فيما يتعلق بالمخابرات

الداخلية وأن يدير أعمالها وأعماله وفق التعليمات التي [illegible]

رناها له. كذلك ينبغي البلاغ لسائر الدوائر والجهات

لس أن يرسلوا لإدارة المطبوعات والمخابرات جميع ما

يصدرونه من قرارات ذات بال وما يأتيهم من أخبار

ذات أهمية وما يقع معهم من الأخبار والحوادث ذات

الشأن وإدارة المطبوعات والمخابرات تنسق هذه

الأخبار لتنشر ما يهم نشره منها. والله أسأل

التوفيق لنا ولها. ملك الحجاز وسلطان نجد

عبدالعزيز

٢٨ محرم ١٣٤٥

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

ديوان نائب جلالة الملك

المكتب الخاص

٢١/ ٥/ ١٢/ ٤٣١٦

٢٣ شوال ١٣٦٦

حضرة المكرم رئيس تحرير جريدة ام القرى

ارسل لكم برفقه التعليمات الخاصة بتحرير جريدة ام القرى للاطلاع عليها وانفاذ مقتضاها .

وتقبلوا فائق التحيـة ،، وكيل الخارجية

يوسف ياسين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نسخة مع الاحترام لمقام النيابة العامة ،،

صورة للديوان ،،

مطابق للاصل ،،

ديوان نائب جلالة الملك — بسم الله الرحمن الرحيم

المكتب الخاص

((التعليمات التي يكون السير بموجبها في تحرير صحيفة ام القرى))

١ـ تجنب كل ما يؤدي الى مشاكل وسوء تفاهم مع كافة الدول .

٢ـ تجنب كل ما يثير المنازعات والخصومات والضغائن والحزازات وما يؤدي الى خدمة الاغراض الخاصة التي لا تتفق مع سياسة الحكومة والصالح العام .

٣ـ تجنب كل ما يثير الاختلافات والمشاكل الدينية مع التزام مذهب السلف الصالح في امور الدين .

٤ـ تجنب كل ما تنشره الصحف المغرضة من الانتقادات الساقطة التي لا يعبأ بها واهمال ذلك وعدم الالتفات اليه بتاتا .

٥ـ الكتابة بروح عربية حسنة في القضية المصرية تجاه بريطانيا مع تمني نجاح مصر وحصول امانيها .

٦ـ اظهار العطف على الاندونيسيين وتاييدهم في قضيتهم بشكل لا يكون فيه تهجم على هولندا .

٧ـ الاعتدال في نشر الانباء العالمية التي تذيعها المحطات اللاسلكية وغيرها ولا سيما الاختلافات الدولية التي تنشب في مجلس الامن وهيئة الامم المتحدة وسواهما .

٨ـ تجنب السباب والشتائم مع التزام جانب اللباقة في نشر كل ما يؤيد موقف الحكومة تجاه مشروع سوريا الكبرى المشروع المذكور .

٩ـ نشر كل ما يشيد بالجامعة العربية ويؤيدها مع نشر اخبارها والاخبار التي تسر العرب والمسلمين . من ممالكهم واقطارهم .

١٠ـ نشر كل ما يؤيد مطاليب العرب في فلسطين مع الحملة على كل ما يخالف تلك الاماني .

١١ـ نشر الاخبار المتعلقة بزيوت البلاد السعودية وما يذاع عنها من تعليقات مفيدة وآراء سديدة .

١٢ـ نشر ما يذاع عن سمو الامير فيصل المعظم في رحلاته وتنقلاته وما يصدر عن سموه من تصريحات ولا سيما ما يكون منه في هيئة الامم المتحدة .

١٣ـ نشر الاخبار المحلية وتنقلات رجال الدولة على الوجه الذي يحفظ سمعة الحكومة وكرامة الصحيفة .

١٤ـ نشر اعلانات المحاكم الشرعية وغيرها في الموضع المناسب لانها المورد الاكبر لمالية الصحيفة .

١٥ـ عرض المقالات الافتتاحية على معالي الشيخ يوسف ياسين والعمل بما يراه فيها .

١٦ـ نشر الانتقادات المعقولة المفيدة اذا كانت مجردة من الهوى مشربة بروح النصح والاخلاص سواء كانت واردة من اصحابها الى الصحيفة او منقولة من الصحف المعتبرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المملكة العربية السعودية

مع تحيات الأذاعة السعودية بمكة

هنا مكة

برنامج شهر (صفر)

من عام ١٣٧١

يصدر عن
قسم البرامج العربية
في
محطة الأذاعة اللاسلكية
للمملكة العربية السعودية

مطبعة الحرم
مكة المكرمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يوم الجمعة الموافق ٢/٢/١٣٧١ هـ — ٢/١١/١٩٥١م

الاذاعة الصباحية	١/ السلام الوطني ـ افتتاح ـ القرآن الكريم تلاوة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ١/٢٠ حديث الصباح للاستاذ علوي مالكي ١/٣٠ نشرة الأخبار الأولى ١/٤٠ موسيقى وقراءة برنامج اليوم ١/٤٥ السلام الوطني ـ ختام
اذاعــة الظهر	٨/٣٠ السلام الوطني ـ افتتاح ـ صفحات مشرقة ٨/٤٠ موسيقى وقراءة برنامج المساء ٨/٤٥ نشرة الاخبار الثانية /٩ السلام الوطني ـ ختام
الاذاعة المسائية الاولى	١٢/٤٠ السلام الوطني ـ افتتاح ـ القرآن الكريم تلاوة الشيخ جميل آشي ١/ (مشكلة كل عام ـ الحديث الاول) للاستاذ عبدالعزيز الرفاعي ١/١٠ موسيقى وقراءة برنامج الاذاعة المسائية الثانية ١/٢٠ نشرة الاخبار الثالثة ١/٣٠ السلام الوطني ـــ ختام
الاذاعة المسائية الثانية	٢/١٠٠ السلام الوطني ـ افتتاح ـ القرآن الكريم تلاوة الشيخ محمد السعودي ٢/٣ (في آفاق العلوم) برنامج يقدمه الاستاذ محسن احمد باروم ٢/٤٠ موسيقى وقراءة برنامج الغد ٢/٤٥ نشرة الاخبار الرابعة وخلاصة انباء اليوم /٣ السلام الوطني ـــ ختام

الهوامش والتعليقات

(١) حسن عبدالحي قزاز، الإعلام في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود، بحوث المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩-٢٣ ربيع الأول، ١-٥ ديسمبر ١٩٨٥م، ص٦٠١.

(٢) خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، م، ٣-٤، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٦م، ص١٠٢٤.

(٣) الرحلة الملكية عام ١٣٤٣هـ، الطبعة الأولى، وزارة المعارف ، ١٣٨٩هـ، (ب.م.ط)، ص ١٨.

(٤) خير الدين الزركلي، المصدر السابق، ج١.ص ٣٤٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

(٦) عن سفراء ومندوبي ووكلاء الملك عبدالعزيز، انظر الزركلي، المصدر السابق، م٣-٤، ص ١٠١١-١٠١٤.

(٧) ناصرت مجلة المنار الملك عبدالعزيز خاصة فترة شدة الصراع بينه وبين الملك حسين بن علي في الفترة من ١٣٤٢هـ إلى ١٣٤٤هـ، ومن يرغب في معرفة هذا فليراجع الأعداد التالية: ج١، م ٢٥ في ١٣٤٢/٦/٣٠هـ، ج٦م٢٥ في ١٣٤٣/٢/٣٠هـ، ج١م٢٥ في ١٣٤٣/٨/٣٠هـ، ج٢،م٢٦ في ١٣٤٣/١١/٢٩هـ، ج٢٢م٢٥ في ١٣٤٤/٧/٣٠هـ، ج١٠،م٢٦ في ١٣٤٤/٨/٢٩هـ، ج٦،م٢٨، في ١٣٤٦/٢/٢٩هـ، ج٢. م٣٠ في ١٣٤٨/٢/١هـ.

(٨) مجلة المنار ج١، م٢٦، في ١٣٤٣/٩/٢٩هـ، ص١٥٧-١٥٨ وفي صفحة ١٥٦ تعليق من المجلة على البلاغ، وفيه إشادة بجهود الملك عبدالعزيز الذي استطاع أن يؤمن السبل إلى المشاعر المقدسة رغم أن الحرب لا زالت قائمة وهذا إنجاز لم تحققه حكومات الحجاز السابقة خلال قرون، وفي ج٥.م٢٦ في ١٣٤٤/٢/٣٠هـ، ص ٣٩٤-٤٠٠، وج٦،م ٢٦ الصادر في ١٣٤٤/٣/٣٠هـ، ص ٤٥٤-٤٧٧ تحليلات كثيرة عن الإنجليز ودورهم في دعم الأشراف ضد الملك عبدالعزيز ودسائسهم في الحجاز ودور إمام اليمن، ومقارنة أوضاع الحجاز في عهد الملك عبدالعزيز وعهد من سبقه، وفي ج٧، م٢٦ الصادر في ١٣٤٤/٦/٢٩هـ، ص٥٤٠-٥٤٢، وفي ج٩، م٢٦ الصادر في ١٣٤٤/٨/١٥هـ، ص٦٦٢-٦٩٠، ص٧٠٧-٧١٢، تفنيد إسراف جريدة المقطم -ذات التوجه المسيحي- في الدعاية للأشراف، وتحاملها على الملك عبدالعزيز. وقد ردت

المنار على كل افتراءات المقطم المعادية للإسلام والمسلمين، وفي ج ١٠. م٢٦ الصادر في ١٣٤٤/٨/٢٩هـ، ص٧٧٩-٧٩٤، تحليل أوضاع الحجاز وما أصابه من خير في عهد الملك عبدالعزيز ومعلومات قيمة عن الأوضاع الأمنية في ظل حكمه وبعض خطبه.

وهذه الإشادة من مجلة المنار بجهود الملك عبدالعزيز تمثل دعماً قوياً للدعوة السلفية من رجل سلفي هو الشيخ محمد رشيد رضا يرحمه الله.

(٩) انظر جريدة أم القرى الأعداد التالية: عدد٦٥ في ١٣٤٤/٩/١٢هـ، وعدد ٧٦ في ١٣٤٤/١٢/٤هـ، وعدد ٨٩ في ١٣٤٥/٢/١٨هـ، وعدد ٩٣ في ١٣٤٥/٣/١٧هـ.

(١٠) انظر نص الإعلام، وثيقة رقم (٢٧٧) دارة الملك عبدالعزيز بالرياض.

(١١) لغة العرب ورئيس كتبتها أنستاس الكرملي، دارسة تاريخية وكشاف موضوعي، أعده أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري وأمين سليمان سيدو، الطبعة الأولى، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٣٣، وفي الهامش ٢ قال لغة العرب ج٤ س٨ ص٣١٧.

(١٢) الرحلة الملكية عام ١٣٤٣هـ، الطبعة الأولى، وزارة المعارف، ١٣٨٩هـ (د.ب.ط) ١٨-١٩.

(١٣) جريدة أم القرى العدد الأول في ١٣٤٣/٥/١٥هـ، ١٩٢٤/١٢/١٢م.

(١٤) محيي الدين القابسي، المصحف والسيف، مجموعة من خطابات وكلمات وأحاديث ومذكرات المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، (د.ت) ص ١٨، وقد عزى القول إلى أم القرى الصادرة في ٧ ذي الحجة ١٣٥٠هـ، ولم يذكر رقم العدد.

(١٥) افتتحت الإذاعة السعودية في ١٣٦٨/١٢/٣هـ، انظر أم القرى عدد ١٢٨١ في ١٣٦٨/١٢/٢٣هـ، وعن الإذاعة وأثرها في المجتمع انظر: بدر كريم، نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي، الطبعة الأولى، دار عكاظ، جدة، ١٤٠٢هـ، ص٣٥-٤٨.

(١٦) كانت الإذاعة السعودية تصدر نشرة شهرية لبرامجها، لدى الباحث نشرة بعنوان هنا مكة. دون على الغلاف العبارة التالية: «هنا مكة، برنامج شهر (صفر) من عام ١٣٧١هـ، مع تحيات الإذاعة السعودية بمكة، يصدر عن قسم البرامج العربية في محطة الإذاعة اللاسلكية للمملكة العربية السعودية، مطبعة الحرم بمكة المكرمة». وفي الصفحة السادسة أثبتت فقرات البرامج، وهذا نصها:

يوم الجمعة الموافق ١٣٧١/١/١هـ- ١٩٥١/١١/٢م (*)

الإذاعة الصباحية: /١ السلام الوطني- افتتاح- القرآن الكريم تلاوة الشيخ عبدالباسط عبدالصمد،

١/٢٠ حديث الصباح للأستاذ علوي مالكي، ١/٣٠ نشرة الأخبار الأولى، ١/٤٠ موسيقى وقراءة برنامج اليوم، ١/٤٥ السلام الوطني- ختام.

إذاعة الظهر: ٨/٣٠ السلام الوطني - افتتاح- صفحات مشرقة ٨/٤٠ موسيقى وقراءة برنامج المساء ،٨/٤٥ نشرة الأخبار الثانية، /٩ السلام الوطني- ختام.

الإذاعة المسائية الأولى: ١٢/٤٠ السلام الوطني - افتتاح- القرآن الكريم تلاوة الشيخ جميل آشي. /١ مشكلة كل عام - الحديث الأول للأستاذ عبدالعزيز الرفاعي ١/١٠ موسيقى وقراءة برنامج الإذاعة المسائية الثانية ١/٢٠، نشرة الأخبار الثالثة ، ١/٣٠ السلام الوطني- ختام.

الإذاعة المسائية الثانية: ٢/١٠٠ السلام الوطني- افتتاح- القرآن الكريم تلاوة الشيخ محمد السودي، ٢/٣٠ (في آفاق العلم) برنامج يقدمه الأستاذ محسن أحمد باروم، ٢/٤٠ موسيقى وقراءة برنامج الغد، ٢/٤٥ نشرة الأخبار وخلاصة أنباء اليوم، /٣ السلام الوطني - ختام.

(*) يلاحظ استخدام التوقيت الغروبي في هذه الفترة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٧) نصه في كتاب وزارة التجارة، المملكة العربية السعودية، تسجيل وتعريف، إصدار خاص بمناسبة اشتراك المملكة في معرض دمشق الدولي عام ١٣٧٥هـ. ص ٣٨٤.

(١٨) من مقابلة أجراها الباحث مع عبدالله بلخير، في منزله في جدة في ١٤١٠/٣/١٢هـ خلال مراحل جمع المعلومات لرسالة الدكتوراة.

(١٩) محمد حامد الفقي، أزهار من رياض سيرة الإمام العادل جلالة الملك العادل عبدالعزيز آل سعود لمناسبة الاحتفال بذكرى مرور خمسين عاماً على دخول جلالته الرياض في ٤ شوال ١٣١٩هـ، الطبعة الأولى، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ٤ شوال ١٣٦٩هـ، ص١٣.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٢١) لمعرفة الصحف التي صدرت، ودور النشر التي أنشئت في عهد الملك عبدالعزيز، يرجع إلى المصادر التالية:

= جريدة أم القرى العدد (٢٠٧) في ١٣٤٧/٧/٢هـ، العدد (٢١١) في ١٣٤٧/٣/٢هـ، العدد

(٢١٢) في ١٣٤٧/٨/٧هـ، العدد (١٣٢٠) في ١٣٦٩/١٠/٤هـ، وهو عدد ممتاز بمناسبة مرور (٥٠) عاماً على استرداد الرياض، وفيه معلومات كثيرة عن جهود الملك عبدالعزيز في بناء مؤسسات المملكة.

= الضبيب، أحمد بن محمد، بواكير الطباعة والمطبوعات في بلاد الحرمين الشريفين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٠٨هـ.

= الساعاتي، يحيى، حركة التأليف والنشر في المملكة العربية السعودية، الرياض، النادي الأدبي بالرياض، ١٣٩٩هـ.

= حافظ، عثمان، تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية، شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، جدة، (د.ت).

= الشامخ، محمد، الصحافة في الحجاز ١٩٠٨-١٩٤١، دراسة ونصوص، الطبعة الأولى، دار الأمانة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

= وعن جهوده في نشر الكتب، عبدالعزيز أحمد الرفاعي، عناية الملك عبدالعزيز بنشر الكتب، مكتبة الملك فهد بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م. ص ٢٠-٢٣.

(٢٢) كان اسم المملكة في هذه الفترة «المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها».

(٢٣) لمعرفة موقف الملك عبدالعزيز من القضية السورية الواردة في الفقرة الثامنة من الوثيقة ودعمه لسوريا في نضالها ضد الاستعمار، انظر خطاباً موجهاً من الملك إلى القنصل السعودي في دمشق في ١٣٥٨/٣/٢٤هـ نصه عند محيي الدين القابسي، المصحف والسيف، ص٢٢٩-٢٣٢.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإعلام الحربي في المملكة العربية السعودية

* الدكتور يوسف بن إبراهيم السلوم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإعلام الحربي هو إعلام الضباط والجنود والأفراد العسكريين بما يجري حولهم في أوقات السلم والحرب، وقد اتخذ الإعلام الحربي في عهد الملك عبدالعزيز أسلوب الرسائل المكتوبة للقادة العسكريين وإبلاغها للأفراد والجنود شفهياً، وتتلى عليهم أثناء التعداد اليومي الصباحي والمسائي، حيث تكتب في دفاتر وسجلات كبيرة وتقرأ عليهم بصوت مرتفع.

ثم تطورت هذه الوسيلة بإصدار نشرات مكتوبة توزع على المعسكرات لتقرأ من الجميع في شكل تعاميم تشتمل على توجيهات القيادة وإرشادات ونصائح أدبية ودينية، وتقرأ أحياناً أوقات الصلوات الجماعية.

وكان لهذا الإعلام دور بالغ في نقل توجهات القيادة والربط بين القادة والجنود على أسس قوامها الثقة المتبادلة، وتخضع هذه النشرات المكتوبة والشفهية إلى صياغة أدبية راقية لكي تبلغ غايتها وتحقق أهدافها بقوة الكلمة، وقد استخدم الملك عبدالعزيز وسيلة النشر للوثائق السياسية للمباحثات الدبلوماسية التي سبقت الحروب لكي يدحض الحجة بها، فقد نشر وثيقتين هامتين هما الكتاب الأخضر النجدي، ويضم محادثات مؤتمر الكويت الذي عقد في مدينة الكويت سنة ١٣٤٢هـ[1]، ونشره في الكتاب الأخضر النجدي سنة ١٣٤٢هـ، والوثيقة الثانية الكتاب الأخضر ويتضمن بياناً عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية وإمام اليمن يحيى حميد الدين، ونشر في جريدة أم القرى، ثم طبع في كتاب عن وزارة الخارجية السعودية في مطبعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٣٥٣هـ[2]، وكان لهذين الكتابين الأثر البالغ في دخول الملك عبدالعزيز للحجاز سنة ١٣٤٤هـ، وحرب اليمن سنة ١٣٥٤هـ.

أما الإعلام الموجه لرفع معنويات المواطنين فكان يظهر في شكل خطابات يلقيها الملك عبدالعزيز في المحافل والاجتماعات والمؤتمرات الوطنية التي يعقدها أو يدعو لها المواطنين تحت رعايته، وقد استخدم الشعر لرفع معنويات المحاربين في كثير من المناسبات، فشعر ابن عثيمين وغيره من الشعراء المعاصرين للملك عبدالعزيز كان له دور عظيم في الإعلام الحربي والجهادي بالشعر الحماسي.

وأستند على ذلك بقصيدة للشاعر عبدالرحمن بن صفيان[3]، عند استرداد مدينة الرياض، يقول فيها:

نحـمـد الله جت على مـا تمنى ... من ولي العـرش جـزل الوهايب
خـبـر اللي طامع في وطنا ... دونهـا نثني إلى جت طلايب
واجـد اللي قـبلكم قـد تمنى ... حـربنا لي راح عـايف وتايب
يا هبـيـل الراي وين أنت وانّا ... تحسب أن الحرب نهب القرايب

وكذلك قصيدة للشاعر محمد بن عثيمين عند فتح الإحساء الذي استهلها بقوله:

العِـزُّ والمجـدُ في الهنديَّة القُـضُبِ ... لا في الرسائل والتنميق للخُطَبِ
تقضي المواضي فيمضي حكمها أُمماً ... إن خـالج الشكُّ رأي الحـاذقِ الأرب

وكذلك قصيدة للشاعر فهيد بن دحيم الذي استهلها بقوله:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نجد شامت لابو تركي واخذها شيخنا ... واخمرت عشّاقها عقْب لَطْم خشومها
لي بكت نجـد العـذية تهل دمـوعنا ... بالهنادي قـاصـرين شـوارب قومـهـا
حنْ هل العـادات ومخضّبين سيوفنا ... والطيور الحـايمة جادعين لحومـها
صَـعْبـة أفـعـالنا لي بغاها غـيـرنا ... وكلمـة التوحيد حنا عمار رسومها
حنْ هل العـوجا نهار الملاقي عيدنا ... والجـزيرة كلهـا مـدًّ بين قُـرومَـهـا
لا بتي عـوجِ المراكـيض هذا سـوقنا ... بيعوا الأرواح في الهوش باول سومها
مْرْخصين ارقابنا لي زَهَمْنَا شيخنا ... والقبـايل كلهـا شـيخنا قَـيْدومَـهـا
في تواريخ العـرب راسـمين علومنا ... وعـادة الدنيـا تزول وتدوم علومـهـا

وبعد تطور وسائل الإعلام أخذ الإعلام الحربي بأسلوب المجلات العسكرية الثقافية، فصدرت أول مجلة عسكرية ثقافية باسم مجلة كلية الملك عبدالعزيز الحربية بعد افتتاح الكلية في الرياض سنة ١٣٧٤هـ/١٣٧٥هـ، وكان الضباط وبعض طلاب الكلية يكتبون في هذه المجلات مقالات علمية، وتحمل المجلة أخبار الجيش السعودي والقوات المسلحة عموماً. ثم صدرت بعد ذلك مجلة الدفاع، وهي مجلة عسكرية ثقافية تصدر عن إدارة الشؤون العامة برئاسة أركان الجيش ويكتب في هذه المجلة كتاب عسكريون ومدنيون في المجالات العسكرية والثقافية والاجتماعية، ونقل أخبار القوات المسلحة وتنقلات المسؤولين على القطاعات العسكرية، وتعتبر هذه المجلة مصدراً هاماً من مصادر كتابة تاريخ تطور القوات المسلحة والتاريخ العسكري للمملكة العربية السعودية مع بقية المجلات الأخرى، وتتابع هذه المجلة تطور العلوم والفنون العسكرية وتنقلها للعسكريين لتثقيفهم ومتابعة التطور، كما أن المجلة تهتم بالنواحي الأدبية من مقال وشعر وقصة للرقي بمستوى القوات العسكرية. وتعتبر مجلة الدفاع ومجلة كلية الملك عبدالعزيز جسر محبة بين القطاع العسكري والقطاع المدني، وتنقل أخبار القوات المسلحة للمواطنين، ويشارك الكتاب غير العسكريين في تحرير المجلتين[٦].

ثم صدرت مجلة الصقور بعد افتتاح كلية الملك فيصل الجوية لنقل أخبار الطيران الحربي والثقافة العسكرية لطلاب وضباط وجنود القوات الجوية لمتابعة تطور الطيران وعلوم الفضاء.

وبعد افتتاح الإذاعة السعودية أصدرت إدارة الشؤون العامة للقوات المسلحة برنامج القوات المسلحة عبر الأثير، لنقل أخبار الجنود من ميادين العمل إلى كافة أنحاء المملكة، لرفع معنويات الضباط والجنود، ونقل أخبار وتوجيهات القيادة إلى الضباط والجنود في المناطق العسكرية.

وبعد افتتاح التلفاز أصبحت الاستعراضات العسكرية والجوية والبحرية تنقل عبر التلفاز، ويشاهدها المواطنون لتزيد من ثقافتهم العسكرية.

وأصدرت وزارة الدفاع الكتب العسكرية، وترجمت بعض المقالات والكتب العسكرية الأجنبية لمتابعة التطور، وأصدرت الكليات والمعاهد العسكرية مجلات خاصة بها مثل: مجلة كلية القيادة والأركان للقوات المسلحة السعودية، ومعهد الدفاع الجوي، وكلية الملك فهد البحرية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأصبحت الصحافة العسكرية وسيلة من وسائل الإعلام بالإضافة إلى الإذاعة والتلفاز، مما زاد من ثقافة الضباط والجنود، وجعل المواطنين يتابعون تطور القوات المسلحة(٧).

وقد أصدرت رئاسة الحرس الوطني مجلة الحرس الوطني، وهي مجلة عسكرية ثقافية، كما أصدرت كلية الملك خالد العسكرية مجلة باسم الكلية، وأصدرت وزارة الداخلية المجلة الأمنية لنشر الثقافة العسكرية بين صفوف الضباط والجنود في الحرس الوطني وقوات الأمن الداخلي. وأصبحت الصحافة العسكرية جسراً يربط بين الثقافة العسكرية والثقافة العامة وبين القطاع المدني والقطاع العسكري في إطار الآداب والعلوم.

وأصدرت إدارة الشؤون الدينية بالقوات المسلحة مجلة الجندي المسلم، كما أصدرت إدارة الخدمات الطبية للقوات المسلحة مجلة عيادة الجندي.

وبذلك غطت الصحافة العسكرية جميع التخصصات والثقافات العسكرية والعلمية والدينية، وساهت الصحافة العسكرية والإعلام الحربي في رفع معنويات الضباط والجنود، وظهر ذلك جلياً في حرب تحرير الكويت عندما أصدرت إدارة الشؤون العامة للقوات المشتركة جريدة يومية باسم صوت المعركة، ثم تحولت إلى النصر، ونقلت أخبار المعارك والمحاربين، وسجلت يوميات المعركة، وتعتبر هذه الجريدة مصدراً من مصادر حرب تحرير الكويت.

وبذلك أصبح للكلمة مدلول معين وقوة مثل قوة السلاح، وأصبح السيف والقلم صنوين يكمل بعضهما بعضاً.

ويساهم الإعلام العسكري في نشر فضائل الأخلاق والآداب العسكرية على المنهج الإسلامي والتربية العسكرية الإسلامية لغرس حب الوطن والتربية الوطنية والولاء والطاعة وحب النظام، وساهم الإعلام الحربي في نشر الثقافة بين العسكريين(٨).

وأصبحت قوافل الصحافة والإعلام الحربي المكتوب والمسموع والمشاهد تلتقي مع قوافل الآداب والصحافة العامة في مسيرة التنمية.

ويقوم بالإشراف على إدارات الشؤون العامة والصحافة العسكرية والإعلام الحربي ضباط متخصصون في الإعلام والآداب والعلوم العسكرية والعامة، بالإضافة إلى الاحتراف العسكري، وساعد في صدور هذه المجلات العسكرية

وجود مطابع خاصة بالقوات المسلحة، والحرس الوطني، والأمن العام، ووزارة الداخلية، مما سهل عملية طبع هذه المجلات ونشر الكتب العسكرية.

وتقوم الصحافة العسكرية بحمل رسالة الإسلام والسلام والأمان، ونقل الثقافة العسكرية إلى ميادين العمل، وفي ما يلي بيان يوضح أسماء هذه المجلات وجهة صدورها وتاريخها تدعيماً لما ذكرناه[٩]، والله الموفق.

*****

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المجلات العسكرية وتاريخ صدورها(*)

اسم المجلة	موعد صدورها	تأسيسها
مجلة كلية الملك عبدالعزيز الحربية	دورية تصدرها كلية الملك عبدالعزيز الحربية مع تخريج كل دورة	١٣٧٦هـ
الدفاع	فصلية / كل ثلاثة أشهر تصدرها إدارة الشؤون العامة للقوات المسلحة	١٣٨٢هـ
الجندى المسلم	فصلية / كل ثلاثة أشهر تصدرها إدارة الشؤون الدينية للقوات المسلحة	١٣٩٢هـ
مجلة الصقور	نصف سنوية تصدرها كلية الملك فيصل الجوية مع تخريج كل دورة	١٣٩٨هـ
رسالة المعهد	نشرة شهرية عسكرية علمية ثقافية تصدرها اللجنة الثقافية بمعهد قوات الدفاع الجوي بجدة.	
مجلة الأمن	تصدر عن وزارة الداخلية	١٣٩٨هـ
مجلة الحرس الوطني	تصدرها رئاسة الحرس الوطني	١٤٠٠هـ
مجلة كلية الملك خالد العسكرية	تصدر عن الكلية	١٤٠٣هـ
جريدة صوت المعركة	صدرت عن الشؤون العامة للقوات المشتركة	١٤١١هـ
جريدة النصر	صدرت عن الشؤون العامة للقوات المشتركة	١٤١١هـ

(*) مفكرة القوات المسلحة لعام ١٤١٦هـ.

الهوامش والمراجع

(١) الكتاب الأخضر النجدي، مؤتمر الكويت، نشر بأمر سلطان نجد في ١٦ رجب سنة ١٣٤٢هـ.

(٢) الكتاب الأخضر، بيان عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن، صدر عن وزارة الخارجية سنة ١٣٥٣هـ، مطبعة أم القرى.

(٣) أهازيج الحرب أو شعر العرضة، جمعه ورتبه وعرف بشعرائه عبدالله بن محمد بن خميس، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

(٤) محمد بن عثيمين، شاعر الملك عبدالعزيز، تأليف/ السيد أحمد أبو الفضل عوض الله، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٥) أهازيج الحرب أو شعر العرضة، جمعه ورتبه وعرف بشعرائه عبدالله بن محمد بن خميس، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

(٦) يوسف بن إبراهيم السلوم، مدخل للعلوم العسكرية، مكتبة الناصر، الرياض، ١٤٠٦هـ.

(٧) المجلات العسكرية السعودية.

(٨) تركي بن سلطان، الإعلام العسكري، دار الوطن للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٠٦هـ.

(٩) مفكرة القوات المسلحة لعام ١٤١٦هـ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مع الملك عبدالعزيز

*شعر: عبدالله بن سعد اللحيدان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يومٌ لأيَّامِ الزمانِ إمامُ ... ولصدرِ لُؤلُؤةِ العُصُورِ وسامُ
يَتبخترُ التاريخُ تحتَ لِوائِهِ ... وتدورُ في أفلاكِهِ الأعوامُ
تَتَبَرَّجُ الدُّنيا له كي يصطفي ... أمجادَها، وترومُهُ الأحلامُ
ختمَ العصورَ بِطُهرِهِ وبَهائِهِ ... وروى ملاحمَ مِسكهنَّ خِتامُ
وبِهِ أضاءَ الكونَ مولدُ أُمَّةٍ ... استيقظتْ والعالمون نيامُ
هَزَجَتْ لَهُ لُغَةُ الخلودِ وأرسلتْ ... روحَ الشَذا فتهادتِ الأنسامُ
بكَ يصعدُ التاريخُ سُلَّمَ نهضةٍ ... وتَزُفُّهُ الأفكارُ والأقلامُ
في مهرجانِ العزِّ أيّ مَواكبٍ ... هتَفَتْ تُرفرفُ فوقها الأعلامُ

خُضْرٌ، وتَخْطُرُ في الصفوفِ سيوفُها ... فالسَّعْدُ حِلٌّ والثُّغورُ حرامُ
عبدالعزيز: تحيةٌ وسلامٌ ... ولذكركَ التبجيلُ والإكرامُ
شهد الزمانُ بأنَّ نهجَكَ قُدوةٌ ... وبأنَّ خطوكَ للدُروبِ زمامُ
لو أبصروكَ: مُحارباً مُتعبِّداً ... لتعلَّموا (التوحيدَ) كيف يُرامُ
شمسَ الملوكِ الطاهرين: تحيةٌ ... ولكَ (الجنان) مرابعٌ ومُقامُ
صقرَ الجزيرةِ والمآثرِ والعلا ... تسمو بذكرِ فَعالِكَ الأقلامُ
ومحاسن الأخلاق قصدك والنُهى ... والعدلُ والمعروفُ والإنعامُ
وَحَّدتَ أشتاتَ الجزيرةِ بعدما ... أوهتْ معالمَ مجدِها الأقسامُ
كانت: مُمزَّقةً - بلا أمنٍ - هنا، ... وهناك، ذئبٌ فاتكٌ ونعامُ
فجمعتها في الصدرِ منكَ، وطالما ... أوهتْ عُرى آمالِها الآلامُ
أتت العدالةُ في رِكابك أمنها ... ومضى غُرورُ (الغزوِ) والإجرامُ
ووقيتَها ممَّا تخاف وصُنتها ... والشرُّ يُزرعُ حولها ويُقامُ
داوى بكَ اللهُ البلادَ فأينعتْ، ... وَصحَتْ، فلا بأسٌ ولا أسقامُ
وَعَلَوتَ بالأنفِ الأبي لها، وقد ... كانت على مرأى الوجود تُسامُ
ورفعتَ ألويةَ الكرامةِ فوقها ... ونهضتَ واستنهضتَ من قد ناموا
لا تُستباحُ الدارُ بعدكَ، ساحُها ... طودٌ كركنِ النجمِ ليس يُضامُ
وأقمتَ للأمنِ المشيَّدِ دولةً ... للشرعِ والشورى بها أعلامُ
ما زلت تُعلي شأنها حتَّى استوى ... بيمينها للعالمين لِجَامُ

خَـفَـقـتْ قلوبُ الناسِ بَلْ نداكَ يا   بِسَـهـا فنبضٌ وفـائـهـا استلهامُ
طهَّـرتَ رايةَ دينهم ورفـعـتـهـا   خـضـراءَ، لا عـربٌ ولا أعـجـامُ
أمَّنتَ مكةَ للحـجـيجِ وطالما   سـام الحـجـيجَ شـراذمٌ وطغـامُ
فَـأتَتْ وفـودُ الله في حُلَلِ الرضى   تسـعى تزورُ، ـ أمـينةً ـ وتنامُ
تغـفـو على الكفِّ السـعـودي التي   تحنو، فـيـزهو الحِلُّ والإحـرامُ

*** *** ***

عـبـدالعـزيز، وأنت نجل أئمَّـةٍ   نهجُ الأئمَّـةِ: مـصـحفٌ وحـسـامُ
من جـدَّدوا نهجَ الرسـولِ وطهَّـروا   أرضَ الجـزيرةِ والشكوكُ زحـامُ
يا ذروةَ المجـدِ التي قـد خَلَّفَتْ   مـجـداً له بعـد التـمـام دوامُ
مـجـدٌ بهـيـبـتـه تُصانُ كرامـةٌ   حُـفظت وتُرعى حـرمـةٌ وذِمـامُ
نبَـتَتْ (أبا تركي) بذورك: دوحـةٌ   أمِنَ العـبـادُ بظلهـا وأقـامـوا
خيـراً سَقيتَ بِعَدْلِكَ انتشـرت به   خُـضـرُ السنابلِ تاجُـهُنَّ غـمـامُ
وتَركتَ في البـيتِ الحـرامِ حُـمـاتَهُ   فـهُمُ سُـعَـاةٌ حـولهُ وقـيـامُ
يتـواثقـون عـزائمـاً عـربيّـةً   أبناؤهـا شُمُّ الأنوفِ كـرامُ
من دوحـةٍ إنْ جفَّ فـيـهـا مـاجـدٌ   يخـضَلُّ فـيـهـا سـيِّـدٌ وإمـامُ

*** *** ***

للهِ شـيـخٌ عـالمٌ مُـتـعـبِّـدٌ   شـرُفت به عَـرَبٌ، وعَـزَّت سـامُ
سـادت به عـربُ الجـزيرةِ عندمـا   رامَ العُـروشَ الشمَّ وهـو غـلامُ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

راضَ الصعابَ بطولةً وبسالةً ... مَلِكٌ، أغرُّ، مُحَجَّلٌ، وهُمامُ
أسدُ العروبةِ تاجُها وفخارُها ... ومنافُ ما تسمو إليه كرامُ
تاجٌ على رأسِ الملوكِ سناؤهُ ... بدرٌ يسيرُ على خطاه غمامُ
ملكٌ على عرشِ القلوبِ، مُوحِدٌ ... للمسلمينَ، ومصلحٌ، وإمامُ

*** *** ***

ما كُلّ من قادَ الشعوبَ يُنيلها ... شرفاً، وما كُلّ الأنام (عِصامُ)
يبستْ شرايينُ البلادِ وأمحلتْ ... حتّى تولّى ريّها المقدامُ
يبني الحضارةَ عبقريٌ همُّهُ ... ألا يكونَ - لمُرجفٍ - إلمامُ
من إنْ أضاعَ الراشدونَ عقولَهم ... أفضى إليه النقضُ والإبرامُ
هممٌ تقاصَرت المعالي دونها ... وسَمَتْ لمسحِ ذيولِها الأعلامُ
مِنَنٌ من المولى، فلا يبني العلا ... - إن لم تُواتِ - الرأيُ والإقدامُ

*** *** ***

كَمْ ليلةٍ لكَ في (الخليج) سهرتَها ... والنجمُ يبدو تارةً ويُغامُ
خلف الظلام ترى ربى (نجد) الّتي ... بُعداً سَقتكَ، وللفراقِ سهامُ
وتَشُمّ ريّان الصَبَا مُتولِّهاً ... وتشوقُكَ البطحاءُ والآرامُ
تدعو، ويبتهل الفؤادُ تَوجُّداً: ... في عشقِ (نجدِ) المجدِ كيف ألامُ
لا هُمَّ إن المُلك مُلكك إن تشا ... تُؤتِ الجزيلَ، تُعزُّ، يا عَلامُ
وأنا القويُّ أنا الأمينُ فهبهُ لي ... مُلكاً عزيزاً يقتضيه هُمامُ

آبائي الغُرُّ الذين بهم عَلَتْ ... أركانُهُ والقادةُ الأعلامُ
أنا مبدعُ التاريخِ، أكتبُ مجدهُ ... والشاهدانِ: الحقُّ والصَّمصامُ
أنا منقذُ المجدِ الجريحِ ولستُ بالـ ... مغلوبِ يفرش قهرهُ وينامُ
إن طال ليلُ النائمين توقَّدَتْ ... في مُقلتيَّ مُنًى تُشَبُّ ضُرامُ
قهرٌ أصاب مقاتليْ فنزعتُهُ ... بالصبرِ، واحتربَتْ عليَّ لِئامُ
مُتحَفِّزٌ، والصبرُ يغلي ريثما ... أبدو، فما للعارضاتِ دوامُ
مُتلهِّفٌ، والحربُ رهن بوادري ... وفوارسُ الغاراتِ والإرزامُ
ليثُ الشبابِ، إذا أضاءَ جوانحي ... شوقٌ إلى (نجدٍ) الهوى وغرامُ
سأعيدُ مجدي بالجهادِ، أنا الفتى ... لم يثنني عن (نجديَ) اللُّوامُ

*** *** ***

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيِّنْ لنا أيَّ المهالكِ رُدتَها ... نحو (الرياضِ) يَحُثُّكَ الإلهامُ؟
ماذا لقيتَ: إذا (النفودُ) تطاحنت ... فرسانُها وتصادمت أقدامُ؟
أعبرتَ (دهناء) الفناءِ: تَجوبها ... ولطيفِ (نجدٍ) في المدى إلمامُ؟
مُتوقِّد العَزَمات، خلفكَ ركبهم ... ستونَ صقراً و(الرياضُ) أمامُ

*** *** ***

ستُّونَ ليثاً، مجدهم أو موتهم ... هاجوا، يقود زئيرَهم ضِرغامُ
رُفِعَتْ لهم حُجُبٌ فطارتْ أنفسٌ ... حرَّى، إلى حيث الجدود أقاموا
ستُّونَ - والبيداءُ وحشٌ غادرٌ - ... صلَّوا، ولاذوا بالإله، وصاموا

يحدوهم الأمل العظيم، وشيخهم ... فألٌ، إذا ما قطَّبَ استفهامُ

*** *** ***

(يبرين) أيّ هواجسٍ عالجتِهَا ... حيث التَّرددُ سُبَّةٌ وحرامُ
من أعينٍ رَفَّتْ، فجاشتْ أنفسٌ ... وهفا طموحٌ، واشرأبَّ حِمامُ
يمشي بهم رمضانُ أشباح السرى ... من حيث لا تتوقعُ الأوهامُ
في وحشةٍ، لولا (الرياض) أمامهم ... ـ تدعو البنينَ ـ لَزَلَّتِ الأحلامُ
حتى إذا شوالُ فَاءَ بأربعٍ ... سُودٍ ولم يُبصر بهم نَمَّامُ
هبطوا (الشقيبَ) إلى (النخيلِ) وليلُهم ... غسقٌ به قد أسرفَ النُّوامُ
فرقاً ثلاثاً: كل كامنة بها ... صَهَلَ الوجيبُ وحَمْحمَ الإقدامُ
هل خلف سُورِ (المسمك) النصر الذي ... طلبوه، أم موتٌ يصرُّ زُؤامُ؟
حَملَ الردى (عبدُالعزيز) وأدلجتْ ... قدماه، لا خوفٌ ولا إحجامُ
وتَسوَّرَ البيتين، أحكمَ ثالثاً ... ودعى (محمَّدَ) وانتهى الاحكامُ
وصحَتْ غزالةُ، ثمَّ ذرَّت ضوءَها ... وتباينَ الإصباحُ والإظلامُ
وبدا النهارُ فعاجلتهُ بنادقٌ ... وأسِنَّةٌ موتورةٌ وحسامُ
شرُست مطاردةٌ، وضاقت (خوخةٌ) ... وغلتْ مصارعةٌ، وطارت هامُ
وأباحهُ (عبدُالعزيز) بضربةٍ ... فعلا وجوهَ الآبقين قتامُ
وتساقط الحرَّاسُ بينَ يديهِ في ... رُعبٍ، كما تتساقط الأوهامُ
ذُهِلُوا: فلا خلف يقيهم حتفهم ... إن ناوشُوهُ ولا النجاة أمامُ

فعفا إمامُ الخيرِ عنهم، عادة فيه، توارثها (السعودُ) كرامُ

*** *** ***

واستقبل الناسُ الإمامَ ببيعةٍ بدأتْ بها تكبيرَها الأيامُ
وعلا النداءُ سما (الرياضِ) مردداً: عبدُالعزيز خليفةٌ وإمامُ
الله أكبر، أشرقَ الفتحُ الذي كَرُمَتْ به الأرواحُ والأجسامُ
الله أكبر، والسماءُ تَبَسّمتْ للأرضِ واتَّصَلَتْ بها الأرحامُ
الله أكبر، (عرضةٌ نجدية) عرسُ (الرياضِ) مزارعٌ وخيامُ
عرسٌ به أهدى الصباحُ بشائراً بيضاً، لها في الخافقين زحامَ
عرسٌ كما نال المنى متلهفٌ أضناه فرطُ صبابةٍ وهيامُ
وأشفُّ من أحلامِ قَطْراتِ الندى وألذُّ ممَّا تشتهي الأحلامُ
فجرُ (الرياضِ) أطلَّ من أفيائه وعنا له المستقبلُ البسَّامُ
وأضاءَ نورُ الدينِ في إشراقهِ وتوارت الأوهامُ والآثامُ

*** *** ***

نَسَجتْ جِنانُ رَخائِها الأيامُ وتساقطَ الإرهابُ والإجرامُ
غسلَ الكرى مِنْ مُقلتيهِ، ومُزِّقَتْ شُبهاتُ ليلٍ واستَتَبَّ نِظامُ
وطنٌ أفاق ليجلو الحُلم الذي قد سَربَلَتْهُ قتامةٌ وجهامُ
عبدالعزين، وأيّ غيثٍ طاهرٍ هطلَتْ به بيضُ الغيومِ سِجامُ
لم تمض أعوامٌ سريعات الخطى إلا و(نجدٌ) في يديك تنامُ

واسترسلَتْ من بعدها الطاعاتُ: لا ... قهرٌ، ولا نهرٌ، ولا إرغامُ
نصرٌ مبينٌ طوقهُ نصرٌ، وهل ... لسواك في خضرِ الفتوحِ حِزامُ

*** *** ***

وهنا: تسابقَ كي ينالَ صداقةً ... بالودِّ سعياً فارعونَ جسامُ
يتنافسونَ وكلّ موكب دولةٍ ... يسعى، وبعضُ ولائهِ استسلامُ
(قصرُ المربَّعِ) هل شَهِدْتَ وفودَهم ... من كلِّ قطرٍ، أقبلوا وأقاموا
أهدوكَ تاجاً للخلافةِ مُغرياً ... (غُرَباءُ) لكن أيقظوا وأقاموا
فَرفضتَهُ مُتورِّعاً مُتعفِّفاً ... وسعى إليه الطامعون وحاموا
لا تبتغي شَقَّ الصفوفِ أصالةً ... فتزيدُ في تعظيمكَ الأقوامُ

*** *** ***

واستقبلتكَ بـ (مكةٍ) أركانُها ... وبـ (يثربٍ) هَزجتْ لَكَ الأعلامُ
وَسَعَتْ إليكَ ببيعةٍ عُمَريَّةٍ ... وهَفَتْ إليكَ مقادةٌ وزمامُ

*** *** ***

وبنيتَ ما لم يبنهِ الأقيالُ أو ... كسرى وقيصرُ (والملوكُ عظامُ)
من قبلِ أن يَرتَدَّ طرفُكَ والدُنى ... حِلفٌ لنا، وصداقةٌ، ووئامُ
ومضيتَ، لكن، أيّ ذكرٍ جدَّدَتْ ... ذكراكَ فابتهجتْ بها الأيامُ
لَهَجَتْ بها الدُّنيا، فقالَ لكَ الصدى: ... المجدُ مأمُومٌ وأنتَ إمامُ

كيف ندخل القرن القادم؟

* معالي الدكتور: محمد عبده يماني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خير من تعلم وأصدق من أعلم عن الله عز وجل، وبعد: فشكراً للنادي الأدبي على دعوته لي للمشاركة في موسمه الثقافي، والذي يشرفني المساهمة فيه بهذه الإطلالة على القرن القادم.

والحق أن مشروع المحاضرة هذه يعود الفضل فيه إلى مجموعة من الرفاق، الذين اجتمعت بهم خلال العرس الثقافي في مهرجان الجنادرية، وهما الأستاذ الدكتور عبدالله الغذامي، الأديب والناقد، وأخي الأستاذ الأديب عبدالله الشهيل، واللذين أغرياني بالمشاركة في هذه الأمسية ومهدا لذلك، وتم الاتفاق على اختيار موضوع الليلة، وتكرم أخي الأديب الشيخ عبدالله بن إدريس ـ رئيس النادي ـ

وتبنى هذه الأمسية، فجزاهم الله خيراً جميعهم، ووفقني حتى أكون عند حسن الظن.

أما لماذا هذه المحاضرة، فالحقيقة أنني عندما أخذت أتابع الأحداث من حولنا، وكيف تستعد الدول والأمم والشعوب ومراكز البحوث في الجامعات العالمية لاستقبال القرن القادم، سألت نفسي: ما الذي قمنا نحن بإعداده لدخول القرن القادم؟ وما هي الاستعدادات والخطط التي أعددناها لهذه المرحلة القادمة؟ خاصة وأن العصر يتسم بالسرعة الفائقة، والفجوات بيننا وبين العالم: تكنولوجياً وفنياً وعلمياً، أخذت تتسع، ولم تعد تطورات عادية، بل أخذت شكل قفزات سريعة، ومن هنا شعرت أن من الواجب أن نلقي الضوء على هذه المرحلة القادمة، وما الذي يجب أن نفعله فيها؟، وما هي الاستعدادات الأساسية المطلوبة؟، وما هي الحدود الدنيا التي يجب أن نأخذ بها ونحن ندلف إلى هذا القرن القادم بكل متغيراته وتطوراته وتحولاته ومفاجآته، وهناك أسئلة مهمة لا بد من الإجابة عليها، وهي: كيف نتحرك؟ .. وإلى أين؟. وماهي أهدافنا؟.. وما هي مقوماتنا وأبعاد تحركاتنا ومسؤولياتنا؟.. وبأي خطط سندخل هذا القرن القادم؟؟.. وبأي تعليم وأي اقتصاد؟.. وهل نتحرك جميعاً، أم كل على شاكلته؟ ثم ما هي سمات القرن القادم وتحدّياته؟ وما هو موقعنا في ذلك الخضم الواسع؟

أما عمن أتحدث، فالحقيقة أني وأنا أعد لهذه المحاضرة حرصت أن أتكلم في الدائرة الوطنية؛ المملكة العربية السعودية، ثم في الدائرة الخليجية، فالدائرة العربية، فالدائرة الإسلامية. ولن أستطيع ـ بطبيعة الحال ـ أن أغطي كل هذه

الدوائر بالعمق نفسه، ولهذا فسوف أركز بصورة أساسية على الدائرة الوطنية ثم لمحات عن الدائرة الخليجية، فالدائرة العربية، ثم أحاول بعمق أكبر أن أتحدث عن الدائرة الإسلامية، وأين نحن من التحولات العالمية، وهل قدمنا الإسلام بالصورة الواجبة؟، وهل أخذنا بأسباب الحضارة الإسلامية وأسسها.

ولكن قبل أن أتحدث عن الدخول في القرن القادم أو «القرن الواحد والعشرين» من المستحسن أن نلقي نظرة لنرى كيف خرجنا من القرن الحالي، القرن العشرين، ولا شك أن أهم أحداث هذا القرن لأمتنا هو سقوط الدولة العثمانية، والعوامل التي أدت إلى هذا السقوط، وغيرت من مجريات الأمور في العالم الإسلامي، ومن أهم أسباب سقوط الدولة العثمانية في رأي كثير من المفكرين هي: (نظام الامتيازات، وتخليها عن سقوط غرناطة، ونظام الحريم، والانهزام الداخلي قبل الانهزام الخارجي، وتطبيق القوانين الغربية وإلغاء الشريعة الإسلامية، والاقتداء بالنموذج الغربي، وأن ولاء المواطنين المسيحيين واليهود أصبح لغير الخلافة، وتعميق فكرة التتريك وتطورها على حساب الأخوة الإسلامية)، ثم الرغبة الغربية في إنشاء دولة إسرائيل واشتعال حربين عالميتين.

أما في المملكة العربية السعودية، فلا شك أن توحيد هذه البلاد تحت راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بقيادة الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ هي من أهم الأحداث التي تمت في هذا القرن، ثم ما أكرم به الله سبحانه وتعالى من اكتشاف البترول واستخراجه حتى أصبح ثروة دعمت مسيرة هذه الأمة.

ولا شك أن القرن الحالي كان للمسلمين قرناً دموياً تخللته الكثير من المشاكل والبلايا والرزايا التي أثرت في حياة الأمة الإسلامية وكلفتها الكثير من

الضحايا، وضيعت الكثير من الثروات، وساهمت في توسيع النفوذ الأجنبي في البلاد الإسلامية بعد أن كان الاستعمار قد انحسر عنها، ولكن المستعمرين عادوا تحت مظلات مختلفة ومسميات شتى، وبكل أسف كانت بأيدينا وبرغباتنا وموافقاتنا، وبسبب خلافاتنا التي هيأت القابلية، فكان الفعل منهم والقابلية منا، والقرن الماضي بالجملة كان قرناً دموياً بالنسبة للمسلمين.

كيف ندخل القرن القادم؟:

من الواضح أننا ندخل القرن القادم بصورة أسوأ من القرن الماضي:

١ ـ بدون رؤية.

٢ ـ بدون تخطيط أو استشعار لأبعاد المستقبل (لأن التدرج في التخطيط ووضع أهداف متواضعة، كان أهم من القفزات البهلوانية التي لم تحقق أي شيء).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ـ بدون تكتل.

٤ ـ بدون تعليم يأخذ أبعاد المرحلة القادمة.

٥ ـ بدون أي محاولة للابتكار أو أي محاولة للخروج من التبعية للقوالب الغربية التي هيمنت على الفكر العربي والإسلامي.

٦ ـ بدون تنظيم وتناسق بين طاقات الأمة، وعلى وجه الخصوص بدون استفادة من طاقات المرأة في عالمنا العربي والإسلامي في إطار الشريعة والمبادئ التي نسير عليها، والتي توجب العناية بالمرأة علماً وعملاً ونفعاً للمجتمع والأمة.

٧ ـ خرجنا من الاستعمار الاستيطاني إلى هيمنة الاقتصاد والفكر الغربي على المنطقة.

٨ ـ الفجوة تتسع، نظراً لتطور العلوم والقفزات التكنولوجية، والاختراعات والاكتشافات العلمية في الوقت الذي نراوح نحن في مكاننا، وربما تراجعنا إلى الوراء في بعض الجوانب أكثر من ذي قبل.

ولا شك أن من ينظر بعمق إلى حال الأمة العربية والإسلامية خلال القرن الذي نغادره سيجد بكل أسف أننا كنا أمماً تعيش على الهامش، فلم نكن مؤثرين بأي شكل من الأشكال ولا فاعلين. وحتى بالقدرات الاقتصادية التي كنا نملكها، لم نستطع أن نؤثر في المسيرة العالمية، وإنما اكتفينا في معظم الأحيان بدور المتفرج، وهو أمر يؤسف له، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار الاستعدادات المطلوبة للقرن القادم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إننا ندخل للقرن القادم بدون رؤية، بدون تكتل، بدون تعليم أصيل ومتطور يأخذ أبعاد المرحلة القادمة في اعتباره، وبدون أي محاولة للابتكار، أو حتى محاولة الخروج من التبعية للقوالب الغربية التي هيمنت على الفكر العربي والإسلامي. وقد خرجنا بكل أسف من الاستعمار الاستيطاني إلى هيمنة اقتصادية علينا وفكر غربي هيمن على المنطقة، ثم إن الفجوة أخذت تتسع مع تطور العلوم والقفزات التكنولوجية والاكتشافات العلمية، ونحن نراوح في مكاننا في سلبية عجيبة وكأننا لا نحس بمعدلات التطور وتسارع المتغيرات من حولنا، حتى أصبحت على حسابنا وعلى حساب قدراتنا ومقوماتنا الحاضرة والمستقبلية، وغدونا أمماً لاهية لا تعي أبعاد حاضرها ومستقبلها، وكأنها تتسلى

بأوضاعها الحاضرة دون أن تحسب لتطورات المستقبل أي حساب.

ومن أخطر التحديات التي تواجهنا في نظري هي ضعف التنمية والتطور، وبصورة خاصة تنمية الإنسان العربي والمسلم والمواطن، ثم إن تردي التعليم وضعفه أدى إلى ضعف الاستثمار في العنصر البشري، وجرَّنا إلى تبعية اقتصادية وثقافية مؤسفة، وأصبحنا دولاً أغرقت في المديونيات من ناحية، وهددها الانفجار السكاني في كثير من أجزائها، وغابت القدرة على استغلال الموارد المتاحة بصورة صحيحة وخاصة في غياب **التعاون العربي والإسلامي** وأنا أضع خطاً تحت هذه العبارة، فقد أثر غياب التعاون العربي والإسلامي على التنمية الاقتصادية في البلاد العربية والإسلامية كما سنرى عندما نناقش القضية الاقتصادية.

إن التبادل التجاري بين الدول العربية من ناحية وبين الدول الإسلامية مجتمعة ضعيف ومؤسف، حتى إن بعض المنتجات في الدول الإسلامية تنتج لتذهب إلى دولة غربية تعلبها وتغلفها ثم تعيد تصديرها إلى دولة عربية أخرى وتكسب أضعاف الدولة المنتجة... وذلك لغياب التخطيط الاقتصادي والتبادل التجاري والتعاون المثمر بين الدول العربية والإسلامية.

ثم نأتي الآن إلى تحول أخطر، وتحديات أكبر، وهي هذه التحولات في مجالات صناعة البترول وإنتاجه، وما قد يطرأ على هذا المنتج من تحولات وتغيرات قد تجعله في المستقبل منتجاً ثانوياً، وقد تؤدي التطورات العلمية إلى إنتاج نوع جديد من أنواع الطاقة يصبح معها البترول مصدراً ثانوياً من مصادر الطاقة، وتؤثر بذلك على وضع الاقتصاد بصورة أخطر وأكبر مما

نتصور، أو قد تحدث تغيرات في السوق البترولية، إلى غير ذلك من التغيرات والتطورات الممكنة التي لا بد أن ننظر إليها على أنها تحديات تستوجب الوقوف عندها، ودراستها والتعمق فيها وبحثها على ضوء مستقبلنا في القرن القادم.

التعليم والتنمية البشرية:

إذا ما بدأنا ننظر إلى هذا الموضوع بعمق أكبر، فسوف نجد أن التعليم ركن أولي في عملية التنمية البشرية، والتي هي القضية الأساسية، حيث يبدو التعليم وكأنه رأس الحربة في معركتنا القادمة.

وكما قال المؤرخ (أرنولد توتينبي): «إن تأريخ المجتمعات البشرية هو تأريخ المنافسة بين التعليم والكارثة».

وقد كان عدونا أبعد نظراً منا، فأدار معركته معنا بسلاح العلم، وقد قال (شيمون بيريز): «إننا نستطيع أن نحسم الصراع مع العرب لصالحنا عن طريق التعليم».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن تطور التعليم هو خيار استراتيجي وليس ترفاً فكرياً، ولا شعاراً يرفع، كما يقول الدكتور حسين كامل بهاء الدين.

وكثير من العقلاء ينظرون إلى تطور التعليم وسلامته وجودة مناهجه وقدرات المعلمين.. على أن هذا الأمر هو قضية أمن قومي ومستقبل أمة، فكلما أنفقنا على التعليم وأعطيناه الأولوية، وطورنا مناهجه وأصلحنا أدواته، دعمنا الأمن القومي للبلاد والأمة، فالتعليم يحمي البلاد من الأخطار المباشرة وغير المباشرة، فهو يلعب دوراً أساسياً في قضايا الأمن وسلامة الوطن.

كما يعد التعليم استثماراً مهماً في مجال مسيرة الأمة ونمائها.. وضمان

مستقبلها.

ومن المهم اختيار نوع التعليم الذي ندخل به القرن القادم، لأن هذا التعليم لعب دوراً مهماً في القرن التاسع عشر في أوروبا وفي نهضتها، وقد لعب التعليم الدور نفسه في نهضة اليابان منذ عصر (ميجي). ومن هنا فلا بد إذا أردنا أن ننهض ونستفيد من معطيات القرن القادم أن ننظر بعمق أكبر للعملية التعليمية في مراحلها الابتدائية والمتوسطة والثانوية والتعليم الجامعي والتعليم الفني؛ لأن مستوى التعليم عندنا لا يحقق الأهداف التي نصبو إليها جميعاً، وهو في وضعه الحاضر يقصر عن تحقيق الأهداف الأساسية للأمة، ويخرج آلافاً من الشباب أنصاف متعلمين، وفي بعض الأحيان غير متعلمين، وبالجملة لا يحقق الأهداف التي نسعى إليها، لا في المرحلة الحاضرة ولا في المستقبل الذي نتطلع إليه.

صحيح أن المؤسسات التعليمية حققت تقدماً كبيراً، ولكنها فشلت في الكيف، فعندنا مائة جامعة أو أكثر تحتوي على ما يزيد عن خمسمائة كلية، لكن التعليم لم يستطع أن يحقق أهداف الأمة العربية، ولم يساعد في بناء الإنسان العربي القادر على العطاء والمنافسة والإبداع إلا نادراً. إن التعليم في البلاد العربية والإسلامية - بكل أسف - مخيب للآمال، لأنه أسقط قيمة العمل والإنتاج، ولم يبذل جهداً كافياً لتطوير المناهج وفلسفة التعليم وسياساته على وجه الخصوص... فمثلاً ما جدوى كثرة كليات العلوم السياسية في بلد كالسودان، في الوقت الذي لا توجد فيه كلية واحدة متخصصة في علوم التغذية والتكنولوجيا المرتبطة بها وصناعاتها، وهو بلد قوامه الزراعة؟!!.

ولهذا أخذت الفجوة تتسع بين التعليم في بلادنا العربية والإسلامية، وبين

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

التعليم في بلاد الغرب، بصورة أخلت توازننا، وجعلتنا عالة على الأمم، نعتمد في أكثر حاجاتنا على المنتجات الخارجية، وإذا صنعنا فصناعة ضعيفة؛ وغير قادرة على المنافسة إلا ما رحم ربي، وفي أقل مساحة ونسبة ممكنة، لأن التعليم لا إبداع فيه، يعتمد على محاكاة، وعلى استيراد النماذج بشكل مشوه.. والبرامج مكررة، والمدرس غير مؤهل ولا يملك المرونة الضرورية.

لقد كان التعليم في السابق في بلادنا المملكة العربية السعودية أو بعض الدول العربية والإسلامية قريباً إلى حد كبير من مستوى التعليم في الغرب، وكانت الفجوة صغيرة، وأذكر أننا عندما سافرنا كدفعة أولى من جامعة الملك سعود، وكذلك الذين أرسلوا من بقية جامعات المملكة استطاعوا ـ رغم الفروق التعليمية ـ أن يسيروا ويكملوا درجاتهم العليا مع معاناة في موضوع اللغة الإنجليزية، التي كانت هي العائق الأساسي، أما الآن فالفجوة تتسع بين التعليم في بلادنا والتعليم في الغرب، والقفزات التكنولوجية والفنية تجعل الفجوة أكبر بكثير من ذي قبل، وتستوجب عملاً جاداً لسد هذه الفجوة، أو تقريبها على الأقل قبل أن تتسع الهوة ويصبح من الصعب التنسيق بين التعليم في منطقتنا والتعليم في البلاد المتقدمة، ومن هنا لا بد من إدخال تعديلات جوهرية لكي نلحق بالركب. ولا بد أن تستخدم التكنولوجيا في التعليم، وتعود المدرسة لتكون مؤسسة تربوية متكاملة، يمارس الطالب فيها حياة طبيعية، ويكون جزءاً من العملية التعليمية.

والتعليم في بلادنا العربية والإسلامية كلها لم ينجح كأداة للتقدم الحضاري، وما يزال بعيداً عن تحقيق أهداف الأمة، لأننا ـ بكل أسف ـ ما زلنا

في مناهجنا الابتدائية وما حولها، وفي جزء من المناهج الثانوية نعتمد على الحفظ والاستظهار، والمدرس يعيد تدريس المادة سنوات وسنوات دون أن يطور نفسه أو يطور قدراته بالالتحاق بأية دورات أو مجالات تدريب، والمؤسسات التعليمية لا تعينه على ذلك. وفي الوقت الذي يعد فيه الحاسب الآلي من عناصر الدراسة الأساسية في الغرب، ما يزال مجهولاً أو هامشياً عندنا، ولهذا ظل التعليم في دوامة مغلقة وضعيفة، وغير قادرة على الإبداع، ولا مجرد التأهيل الصحيح، فالأساتذة تحكمهم قوالب محددة، وطلاب يتزاحمون في انتظار شهادات التخرج، يدخلون الجامعات ولا يعرفون لماذا، ويرسبون ولا يعرفون لماذا، ويتخرجون ولا يعرفون إلى أين.

إن واقع السياسات التعليمية ضعيف، وغير مؤهل لتحقيق أهداف الأمة واللحاق بالركب الحضاري ومن أخطر ما نلاحظه في التعليم أنه يتنافى بكل أسف مع متطلبات النهضة الاقتصادية على وجه الخصوص، لأننا ننتج قوى بشرية غير قادرة على العمل والإنتاج، بل غير محترمة حتى مجرد احترام لقضية العمل، وكان من أخطر ما ركزنا عليه في التعليم صب المعلومات بصورة نظرية وإهمال قضية تنمية المهارات العلمية، والقيم الاجتماعية في نفوس الطلاب، وحب الوطن. واحترام العمل.. والرغبة في الإنتاج والتطور والإبداع.

وهناك من يعتقد بفشل نظام التعليم العربي في الوفاء بمتطلبات التنمية الاقتصادية، فمع أن أعداد الأساتذة والطلاب في الدول العربية ارتفع ارتفاعاً كبيراً، إلا أن ذلك جاء على حساب تردي مستويات التعليم.. ومن المفارقة أنه فيما يعد الجيل الحالي أكثر الأجيال العربية تعلماً.. فقد فشل هذا الجيل في

فهم تعقيدات التطور البشري ودوره في التطور الاجتماعي والاقتصادي.. ويشهد على ذلك تردي دور التعليم في المنطقة العربية إلى مجرد إعطاء الشهادات الورقية من قبل مؤسسات تستقطب الحد الأدنى من التمويل، مما أدى إلى الاهتمام بالأعداد على حساب النوعية، مما دفع بملايين الخريجين من ذوي المهارات المنخفضة ليشكلوا رافداً من روافد البطالة؛ لأن معظمهم في الواقع غير قابل للتوظيف.

إن التعليم عندنا لا يساهم في توطين التكنولوجيا ونقلها، والجامعات في عالمنا العربي وفي كثير من العالم الإسلامي تراوح بين سوء التخطيط وعجز المناهج وتواضع قدرات المدرسين، حتى التعاون بين الجامعات العربية والإسلامية مفقود تقريباً إلا في أطر نظرية واتفاقات غير عملية ولا قيمة لها.

إن مقررات الدراسة الثانوية والجامعية بعيدة عن متطلبات العصر ولا تحقق بأي شكل من الأشكال الأهداف التي نسعى إليها، ولا تؤهلنا إلى دخول القرن القادم بأي شكل من الأشكال، وهذا أمر مؤسف؛ لأن قضية التنمية البشرية مهمة، ونوعية المواطن الذي نبنيه وكفاءته وتعليمه وقدراته وإمكاناته أهم بكثير من نوعية السلاح الذي نملكه أو تملكه الأمة.

إن التعليم في بلادنا يحتاج إلى عمل فعال يجعل المنهج والمعلم والكتاب.. والمناخ التعليمي قضايا أساسية ومحاور هامة في تطوير العملية التعليمية.. ويخلص التعليم من القوالب التقليدية.. وينطلق به إلى مفاهيم حديثة، وقدرات وأدوات وإمكانات تناسب القرن القادم.. ويلغي عمليات الحفظ والاستظهار بدون وعي.. ويخلص العملية التعليمية ـ والمناهج خاصة ـ من تلك الكتب الضخمة التي

لا تسهم في بناء مهارات الطلاب ولا يستوعبونها.. وإنما تُضَيِّع أوقاتهم ولا تطور مداركهم.. ولا تقوي مهاراتهم، ولا تصنع مدرسين وفنيين وإداريين قادرين على الإبداع والإنتاج المتميز.

إن التعليم والواقع التعليمي في البلاد العربية مخيب للآمال - بكل أسف - ولا بد من تحرك جاد وفاعل يبدأ بإدراك لحقيقة مهمة، هي أن التعليم في حاجة إلى تطوير فعال وتغيير جذري يساهم في بناء الإنسان في بلادنا وفي البلاد العربية والإسلامية، فلقد أسقطنا قيمة العمل والإنتاج، وأضر هذا بنا كثيراً وسلكنا سلوكاً سلبياً في مجال التعلم فلم نحقق الأهداف المرجوة لأن الفعالية قضية مهمة في مجال التعلم، فهناك فرق كبير بين أمة لها سلوك يقوده النظام والانسجام وأمة تسودها الفوضى والأنانية والتسيب؛ لأن هذه القيم لم تلقن لأولادها في مراحل تعليمهم الأولى خاصة والتالية بعد ذلك، ولم نرسخ في المجتمع مسئولياته حتى يعلم الجميع أن أي مجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعاً محترماً إلا إذا كانت له وظيفة ومسوغ لوجوده وليس مجرد صلات اجتماعية، فمن الخطورة أن يكون مجتمعاً سلبياً ومعقداً، حتى وإن كان الناس يعيشون في مدينة واحدة. وكما يقول مالك بن نبي رحمه الله: «من الصعب أن نعيش في مدينة واحدة بجوار بعضنا البعض، ولكننا أمة سلبية وأمة تخلط بين العلم والثقافة، فالثقافة عندها هي الدين وليس مجرد العلم». ومن المهم أن نرعى المواهب ونعطي الشباب الفرصة للعمل ونرسخ فيهم حب العمل وتقدير الإنتاجية والرغبة في البناء، والقدرة على قيادة المؤسسات الحضارية. ومن الخطورة أن نراوح في مكاننا، ولا بد أن نتحرك بوعي ومسئولية، وفعالية كما ذكرت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن من يدقق في حياة الأمة العربية والإسلامية ومن حولنا وما حولنا، يلاحظ أنه قد حصل شبه انفصام بين الدولة والأمة، وبين الشباب والشيوخ، وبين النساء والرجال، وبين الأساتذة والطلاب، وبين العلماء والمثقفين وعامة الناس، وبين القمة والقاعدة. فالكل أصبح يعمل أو يتصرف في دوائر منفصلة، وغاب ذلك التعاون المطلوب بين القمة والقاعدة، وبين الصغير والكبير، والنساء والرجال، والأساتذة والطلاب، والعلماء والمثقفين، فلم ندرك أن قضية الوطنية قضية ومسئولية مشتركة.

ومن هنا، فلا بد من إعادة غرس الثقة في أنفسنا وفي أجيالنا، فقد استسلمنا للهجمة الغربية التي أربكتنا وهمشتنا حتى فيما نملك ناصيته، وكان من الواجب أن نقبل على التقدم الغربي ونأخذ منه ونأخذ عنه، ولكن لنبني أنفسنا، ونستعد للمرحلة القادمة على أسس من قيمنا ومبادئنا، مع الاستفادة مما يحصل من تطور علمي وتربوي وتكنولوجي في العالم.

لا بد أن نفرق بين المدنية والحضارة، فالمدنية هي الأخذ بأسباب التمدن من وسائل وإمكانات مادية ووسائل اتصال أو معيشة، أما الحضارة فمسألة تختلف؛ لأنها أعمق كما يقول مالك بن نبي رحمه الله: «الحضارة عندنا هي الدين». ولهذا لا بد أن نفكر بعمق للاستفادة من نموذج الحضارة العربية والإسلامية، وننظر إليها كتجربة حضارية أصيلة غيرت وجه العالم رغم ما أصابها من انحطاط واضمحلال بعد ذلك، ونبدأ بالتركيز على القيم الإيجابية والاستفادة منها، ودراستها وترسيخها في نفوس الناشئة والشباب، وبكل أسف نجد أن بعضاً من جامعات أمريكية صرفت ملايين الدولارات من أجل تطويق

العقل العربي، ونحن في غياب كامل، وقلّ أن تجد في جامعاتنا العربية جامعة تهتم بقضية المستقبل ودخولنا للقرن القادم، وحتى في مجال التطور التكنولوجي، تجدنا نجلس مجلس الزبائن من كل التطور الذي تم في مجال الصناعة والاختراعات والتطور التكنولوجي، نشتري من الصناعات والمخترعات ما نشاء، حتى إذا ما فسد ما بين أيدينا لا نستطيع حتى مجرد صيانته، وبعض الدول مثل اليابان كانت تجلس من هذه التكنولوجيا - ولا زالت - مجلس التلاميذ، إذا نقص عليها جهاز أو احتاجت إلى مخترع تذهب وتبعث أولادها إلى هناك ليتعلموا هذا المنتج وكيفية إنتاجه وكيفية صيانته وكيفية تطويره، أما نحن فنتشري، ثم نضرب به عرض الحائط، فنحن نجلس مجالس الزبائن وهم يجلسون مجالس التلاميذ.

ولا شك أن زراعة الثقة في نفوسنا وتبادل الاحترام قضية مهمة، كما أن قضية الحرية في الفكر وفي الحياة عموماً هي قضية أساسية تتصل بكرامة الإنسان وحقه في الحياة، وتدفعه إلى إنتاجية أكبر، خصوصاً إذا علمناه كيف يستفيد من مساحة الحرية المتاحة له.

ومن أخطر الأمور التي نمارسها في المرحلة الحاضرة هي معالجة كثير من قضايانا الجوهرية بطريقة إعلامية، وهذا الأمر له آثاره السلبية على الفكر والثقافة والناشئة، لأن قضية الإعلام في العصر الحديث أصبحت قضية غير عادية بعد هذه الثورة الإعلامية التي حدثت، وما سيتلوها في المستقبل من تغيرات جوهرية، في مجال الاتصالات والإعلام، والتي ستحول العالم - كما يقال - إلى قرية صغيرة بل وأصغر من ذلك، فهذه الناشئة التي ستتصل

بالعالم وتعرف كل شيء من حولها لا بد أن نتعامل معها بفكر، وعمق، وإيجابية، وموضوعية، حتى نكسب ثقتها وندفعها إلى حب الوطن، وحب العمل، وحب الإنتاج، والارتباط بتراب الوطن الذي تعيش فيه، من منطلق ثقتها في الأمة وفي الدولة، وثقتها بأنها تساهم بدور فعال في بناء المستقبل الذي نتطلع إليه جميعاً، ولا يصح أن نستخف برغبات الناشئة، بل نتلمس رغباتهم وتطلعاتهم، ولا نقهرهم أو نهملهم أو نتعدى على حرياتهم، ونصادر حقوقهم في حياة كريمة من فكر وثقافة وإنتاج وإبداع، بل في التعبير وحرية الكلمة، حتى يحبوا أوطانهم.

القضية الاقتصادية:

من المهم أن نلقي الضوء على القضية الاقتصادية في القرن القادم، لأن قضية الاقتصاد في القرن القادم ـ وبالذات في أوائله على وجه الخصوص ـ ستكون قضية مصيرية وأساسية، فالاقتصاد هو القوة الدولية القادمة، فالدول التي ليس لديها نظام اقتصادي قوي، وسياسة مالية قوية، ستصبح دولاً هامشية كما يقول الأستاذ هنري عزام في بعض أبحاثه التي نشرها في صحيفة الشرق الأوسط(1).

ومن أخطر الأمور تغليب السياسة على الاقتصاد، ومن الخطورة أن نقفز في كثير من الأحيان إلى الوحدة السياسية قبل أن نفكر في التعاون الاقتصادي والتعاون التعليمي والتعاون التربوي ثم التعاون العلمي، فهذه الأنواع من التعاون أساسية ومهمة أكثر من قضية الوحدة السياسية، بل تحقق أهدافاً أكثر من قضية الوحدة السياسية، ولكننا بكل أسف في كثير من البلاد العربية نحاول

أن نقفز إلى الوحدة السياسية، مع أن المرحلة القادمة تدعو إلى التعاون الاقتصادي وترسيخ القيم الاقتصادية في الأمة لتحقيق الأهداف المستقبلية.

والاقتصاد في المرحلة القادمة لن يكون ـ على أي حال ـ صورة مشابهة للقرن الحالي، فالاقتصاد كما يقول الدكتور حميد الجميلي في القرن الواحد والعشرين إنما يعد من قبل مهندسين جدد وفي مختبرات مختلفة وبخرائط جديدة، والمسرح الاقتصادي العالمي سيكون شيئاً مختلفاً تماماً وبمعايير وأسس غير التي نعهدها، لأن هندسة اقتصاد القرن الواحد والعشرين سوف تستند على مبدأ انصهار الأيديولوجيات وتفاعلها مع أيديولوجيات أخرى ليس بالضرورة متطابقة، ولن يكون للمفهوم الأمريكي السيادة الحالية، فقد تحدث تغيرات جوهرية، ونشاهد ضغوط أيديولوجيات معينة، وقد تظهر أيديولوجيات اقتصادية عالمية جديدة ليس بالضرورة منطبقة مع أيديولوجيات المنظومة الرأسمالية الحالية، وعلى أي حال، فمطلوب منا أن نتعمق في مفهوم انصهار الأيديولوجيات، والحذر حتى لا تكون دعوة لانصهار معتقداتنا في بقية الأيديولوجيات.

إن المرحلة الاقتصادية القادمة ستكون خطيرة، وقد تعود بكثير من الأمم والشعوب إلى عهود الاستعمار، ولكنه الاستعمار الاقتصادي، أي بعبارة أخرى إلى هيمنة اقتصادية تذكرنا بما قبل عام ١٩٣٩م؛ لأن الاقتصاد سيدار بسياسة القوة، وربما بالعصا الاقتصادية والتكنولوجية التي تحملها دول الشمال، وستحرص على تسخير الدول الهامشية لتحقيق أهدافها.

ثم إن العولمة الاقتصادية سوف تسقط منطق الجغرافيا والحدود، وسيكون

هناك عولمة الثقافة ومقومات الاقتصاد وسلطة القرار الاقتصادي، لا شك ستكون أخطر، لأن سلطة القرار الاقتصادي ستكون مؤثرة وفاعلة في كثير من العلاقات الدولية على وجه الخصوص، ودول الشمال ستظل بكل أسف تحمل كل أوراق هندسة اقتصاد القرن القادم، مثل حركة رأس المال والتجارة العالمية ومسارات التصنيع العالمي والتبادل التكنولوجي، وهندسة تصميم البنوك العالمية، والمؤسسات الدولية، وطرق الملاحة البحرية والجوية الدولية، الغطاء المعلوماتي وما يسمى السماء المعلوماتية.

إن دولنا في المنطقة العربية والإسلامية ودول الجنوب عامة سيكون مستقبلها في القرن القادم معتماً ومؤلماً، لأنها لن تملك أي دور في هندسة اقتصاد القرن الواحد والعشرين، وسنكون مستهلكين متفرجين إذا لم نتحرك قبل فوات الأوان، وسنكون دولاً هامشية وستزيد مآزقنا الاقتصادية.

سيكون هناك انفتاح في الفضاء الاقتصادي بين القارات الثلاث، الاقتصاد الأمريكي، والاقتصاد الأوروبي، واقتصاد آسيا الشرقية، وخاصة عندما تدخل اليابان والصين وما حولهما في الحلبة، وعندما يسقط منطق الحدود والحواجز الجمركية ونصل إلى اقتصاد القرية الواحدة، كما يقول الدكتور الجميلي.

قد يصنع المنتج في دول عديدة ويكتب عليه صنع عالمياً، فستكون ثورة صناعية لمادة من دولة وعامل من دولة أخرى وتصنيع في دولة ثالثة، وتسويق في دولة رابعة، وقد تصبح الشركات بلا قومية بل متعددة الجنسيات.

فأين دورنا من كل ذلك؟؟.

إن التعاون الاقتصادي في المرحلة القادمة سيكون هو الأساس وليس

التعاون السياسي وربما يكون التعاون السياسي، ثمرة من ثمرات التعاون الاقتصادي. إن مرحلة العولمة في القرن القادم سترغم الكثير من الدول على التخلي عن سياساتها الاقتصادية الوطنية لصالح السيادة الاقتصادية العالمية، أو التنظيم الاقتصادي العالمي، أي لمصلحة الترابط الاقتصادي، وسوف يتميز القرن الواحد والعشرون باختراق اقتصادي عالمي متبادل. ومن هنا فلا بد أن نكون أقوياء، لأن الاقتصاد هو الذي سيمكننا من الاختراق أو يمكنهم من الاختراق.

ولنلق الآن نظرة عامة على ما تم في ماليزيا، هذه الدولة الإسلامية الفتية، والتي أخذت تبني اقتصادها وتعليمها وثقافتها وسياساتها وعلاقاتها الدولية على أسس سليمة، فجاء اختراق اقتصادي جانبي عبث بالعملة من قبل مجموعات مثل: «روس» وغيره فأدى إلى خلل كبير، وكاد أن يؤدي إلى انهيار اقتصادي مؤسف لهذه الدولة الفتية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن القرن القادم سوف يشهد اضطرابات اقتصادية ربما تؤدي إلى نوع من الحروب الاقتصادية وخاصة بين الاقتصاد الأمريكي والاقتصاد الياباني، أو الذي تقوده اليابان عندما تسعى للتكامل مع دول الشرق، ولكننا نحن في عالمنا العربي والإسلامي قد نصبح أمة بلا دور ونعيش على الهامش، أو ـ كما يقول عادل إمام في مسرحيته المشهورة ـ «شاهد ما شافش حاجة» لأن واقع الاقتصاد العربي والإسلامي مؤلم، وسنكون في مناطق الجنوب أكثر تهميشاً، خصوصاً بعد أن نقع في شراك الاقتصاد الغربي بوعي أو بدون وعي.

إن الأمة العربية والإسلامية تدخل القرن الحادي والعشرين باقتصاد هياكله الانتاجية ضعيفة وغير قادر على الإنتاج، وأكثر هياكلنا معوجة، وقاعدتنا

الاقتصادية متصدعة، وعلاقاتنا البينية متدهورة، وتطلعاتنا للسوق العالمية تطلعات من لا يملك من أمره شيئاً، ولهذا فواقعنا الاقتصادي أكثر انكشافاً، خاصة ونحن ندخل القرن الواحد والعشرين بقاعدة اقتصادية مهددة بالاختراق الخارجي من كل الاتجاهات وبأشكال متعددة. هناك اختراق مالي ونقدي واستثماري وزراعي وصناعي وتكنولوجي ومعلوماتي، وهذا سيؤدي إلى تصدع القاعدة في بلادنا العربية والإسلامية، وخاصة القاعدة الزراعية والمائية والغذائية والمالية والنقدية والاستثمارات الصناعية والتكنولوجية والتجارية.

إن ما يؤسف له أن هيكل التجارة الخارجية العربية مرتبك، ولننظر في الإحصاءات التالية[٢]:

- التجارة الخارجية العربية ٢٤٨ مليار دولا.
- بلغت التجارة العربية البينية ٢٠ مليار دولار مشكلة نسبة ٨,١٪ فقط من التجارة الكلية.
- الصادرات العربية الكلية ١٣٤,٩ مليار دولار.
- الصادرات العربية البينية ٩,٩ مليار دولار - بنسبة ٧,٣٪ فقط عام ١٩٩٣م.
- الواردات العربية الخارجية بلغت ١٣١ مليار دولار.
- الواردات العربية البينية بلغت ٩,٨ مليار دولار بنسبة ٧,٣٪ فقط في العام نفسه.
- العرب يستهلكون في المتوسط ٧٥٠ مليون رغيف يومياً نصفها مستورد

والعرب يستوردون ٢٠٪ من القمح العالمي ويستوردون ٥٠٪ من مجمل تجارة العالم من دقيق القمح.

- المساحة الصالحة للزراعة في الوطن العربي تقدر بـ ١٣٣ مليون هكتار.
- المساحة المزروعة ٤٢ مليون هكتار.
- الاقتصاد الزراعي العربي يتميز بالعجز الهائل في الميزان التجاري الزراعي، فقد بلغت الصادرات الزراعية ٤,٩ مليار دولار تقريباً، بينما بلغت الواردات الزراعية العربية ١٩,٤ مليار دولار، وهذا يعني عجزاً في الميزان التجاري الزراعي ١٤,٥ مليار دولار في عام ١٩٩١م.
- بلغت الأموال العربية المستثمرة في الخارج (٧٥٠ ـ ٨٠٠) مليار دولار معظمها يستخدم عن طريق التمويل الدولي.
- معظم الاقتصاديات العربية دخلت نادي المديونية العربية، فالدين العربي يقدر بأكثر من ٢٠٠ مليار دولار تبلغ فوائده ١٧ مليار دولار سنوياً.
- وارداتنا الزراعية ١٩٨٠/١٩٩٠م ٢٦٢ مليار دولار.
- صادراتنا الزراعية ١٩٨٠/١٩٩٠م، ٤٢ مليار دولار.
- الفجوة الزراعية للفترة ١٩٨٠/١٩٩٠م، ٢٦٢ مليار دولار.
- الاستيرادات الغذائية للوطن العربي ١٦٢ مليار دولار.
- الصادرات الغذائية للوطن العربي ٢٧ مليار دولار.
- قيمة الفجوة الغذائية العربية للفترة ١٩٨٠/١٩٩٠م ١٣٥ مليار دولار.
- الاستيرادات الصناعية للوطن العربي ١٩٨٥/١٩٩٠م ٣٤٥ مليار دولار.

- الصادرات الصناعية العربية ١٩٨٥/١٩٩٠م، ٥٠ مليار دولار.
- الفجوة الصناعية ٤٠ مليار دولار.
- التبادل التجاري بين الدول العربية ٩٪ من حجم التجارة العربية الخارجية.
- التبادل التجاري بين الدول الأوروبية ٦٠٪ من حجم التبادل الأوروبي.
- التبادل التجاري بين دول آسيا ٣٠٪ من حجم التبادل التجاري بين دول آسيا والعالم.

إن قوة الاقتصاد في المرحلة القادمة ستعتمد على أين نوجه استثماراتنا:

أولاً: في استغلال المتاح لنا من موارد وثروات محلية وإقليمية.

ثانياً: في ما يحقق لنا الاكتفاء الذاتي.

ثالثاً: بتخصص كل قطر أو بلد في إنتاج أو صناعة أو زراعة ما يناسب موارده وإمكانياته.

رابعاً: بزيادة حجم التبادل التجاري والصناعي بين دولنا وبلداننا، أي خلق سوق إسلامية مشتركة.

كما أن قوة المناخ الاستثماري ومدى استقرارنا اقتصادياً ستعتمد على نوع ومهارة القوة العاملة، وهذا سوف يعتمد على التعليم والتنمية البشرية وخاصة في مجال التدريب والتكنولوجيا بصورة خاصة، ثم على قدرة المنتجين على زيادة وتطوير عملية الإنتاج، ولا يمكن أن نواجه المستقبل بردود فعل عشوائية وغير مدروسة، أو من خلال إطلاق صيحات واحتجاجات لن يستمع

إليها أحد، فنحن بحاجة إلى مشروع حضاري يقابل هذه التحديات ويتجاوز بها سلبيات الحاضر، وينطلق بنا لمستقبل واع نسير إليه بمسئولية وتحسب لأبعاد المستقبل الذي نتطلع إليه.

إن تطور الاقتصاد في المرحلة القادمة ـ كما يقول العلماء ـ ليس تنبؤات ولا عمل عرافين أو خرافات، وإنما هو رصد علمي لمسار الاقتصاد العالمي وموقعنا منه، وإذا غفلنا فسنكون أمة ذات أدوار هامشية كما أسلفت.

اتفاقية الجات:

ومن الأمور الاقتصادية الحاضرة موضوع اتفاقية «الجات» وتأثيرها علينا باعتبارنا دولاً نامية في الأساس، ثم دولاً عربية وإسلامية، فهذه الاتفاقية من نتائجها الأساسية والتي قام بها البنك الدولي كما يقول د. عمر باخشب[٣] في دراسة نشرها:

١ ـ زيادة الاستثمار الأجنبي في الدول العربية المشاركة.

٢ ـ التطبيق الكامل للاتفاقية يمكن أن يزيد دخل الدول النامية بأكثر من ٧٠ بليون دولار في عام (٢٠٠٢م).

٣ ـ معظم الفوائد ستعود على الدول المتقدمة وأقلها على الدول النامية.

٤ ـ تضمنت الاتفاقية خفض دعم الدول لمنتجاتها الزراعية مما سيزيد من واردات الدول النامية من تلك السلع ويؤثر على الميزان التجاري سلباً.

٥ ـ حماية الحقوق الفكرية، الأمر الذي تستفيد منه الدول المتقدمة فقط.

٦ ـ تتلخص استفادة الدول النامية في تحسين مستوى إنتاجها، واستغلال

أفضل للموارد، مما سيؤدي إلى رفع الإنتاجية.

ولكن إذا كانت هذه النتائج، فماذا نستفيد نحن مباشرة، مع أنه لا توجد لدينا روابط مشتركة - لا عربية ولا إسلامية - في تبني المصالح التجارية والاقتصادية فيما بيننا، هذا الأمر - كما يقول الدكتور باخشب - يتطلب دوراً فعالاً لجامعة الدول العربية ومنظماتها، مع وضع حدود لهذه المصالح المشتركة، ولكن السلبيات التي سنعاني منها هي:

١ - ارتفاع أسعار الواردات من المواد الغذائية.

٢ - امتصاص جزء كبير من موارد الدول العربية.

٣ - استمرار المنافسة الدولية في مجال السلع الصناعية، لأن معظم الدول الغربية لديها بدائل للمواد التي تصدرها الدول العربية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا نحسُّ ونحن نطالع هذه النتائج والتوقعات أننا نندفع اندفاعاً نحو ارتباطات وترتيبات وتنظيمات عالمية، ونسير فيها على طريقة "مرغم أخوك لا بطل" دون أن نتحسب لأبعاد تلك التنظيمات ومخاطرها، حتى فيما يخص مجلس التعاون الخليجي، فهناك أمور أساسية ستتغير، منها: عدم استمرار سياسة الدعم للقطاع الزراعي، وما سيتبع ذلك من تغييرات جوهرية، ثم تتبعها قضية حماية الحقوق الفكرية والأدبية والإبداعية، ورفع دعم بعض المنتجات المصدرة، وزيادة قيمة المواد الغذائية المستوردة، ثم غياب أو تخفيض الحمايات الحاضرة لكثير من القطاعات.

ولهذا فمن الضروري أن نتحسب نحن - دول مجلس التعاون مثلاً، بل وكثير من الدول العربية من أن تدخل هذه الاتفاقية بصورة عشوائية، أو أن تطبقها

تطبيق ضريبة الكربون كما عبر عنها د. با خشب، لأن ذلك سيحدث أضراراً بالغة باقتصاديات دول مجلس التعاون.

ولا بد أن نستفيد من الفترات الانتقالية المنصوص عليها في اتفاقيات منظمة التجارة العالمية، ونسير بالتدرج، وإلا فستكون المسألة خسارة أكبر منها مكسباً، ولها ما بعدها من آثار.

وأنا لا أود أن أقول: إن انضمامنا لاتفاقية الجات غير ضروري، ولكننا لا نستطيع أن ندخل إليها دون دراسة ووعي وتأقلم على ضوء واقعنا الاقتصادي بصورة خاصة، لأن حسابات الربح والخسارة فيه دقيقة ومختلفة، وقد تؤثر على طبيعة المصالح المشتركة للدول العربية والدول الإسلامية، وبين دول مجلس التعاون وهذه الدول، وغير ذلك من الآثار التي من الواجب دراستها والتعمق فيها، والنظر لها بجدية، ودراسة وتحليل قبل أن ندخل إلى القرن القادم بكل ما فيه من تحديات، وهذه في رأيي إحدى التحديات.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أولوياتنا في المرحلة القادمة:

لا بد أن نغير من أولوياتنا، فالدول العربية مثلاً خصصت ٦٠ بليون دولار للأسلحة، في الوقت الذي لا ينفق على التعليم إلا في حدود ٢٠ بليون دولار، وهناك مثل مهم يطرحه الدكتور حسين كامل بهاء الدين، عندما يتوقف عند فاتورة حروب مصر الأربع، والتي كلفت ما يزيد على مائتي مليار دولار كخسائر مباشرة ومائة مليار كخسائر غير مباشرة.. وقد انعكس ذلك على الاقتصاد القومي وكان التعليم هو الخاسر الأكبر في هذه المصروفات، التي تمت على حساب التعليم والخدمات والاقتصاد العام.. كما أن قدراتنا الإنتاجية ضعيفة،

فقد بلغت صادرات الدول العربية مجتمعة ٣٣ بليون دولار وهي صادرات غير نفطية، وهذا بكل أسف يقل عن صادرات دولة واحدة هي فنلندا، حيث تصدر ٤٢ بليون دولاً، مع أن جميع سكانها لا يزيدون عن ٥ ملايين.

ومن الناحية الأخرى، يلاحظ المتتبع لأوضاع العالم العربي اقتصادياً أن صادرات الدول العربية النفطية وغير النفطية عام ١٩٩٥ بلغ ١٤٣ بليون دولار، وهذا يشكل بكل أسف ٢,٨٪ من صادرات العالم في ذلك العام، كما أن الإحصاءات تدل على أن الدول الغنية تملك ٧٠ ـ ٨٠٪ من الثروة، في وقت لاتملك ولن تملك فيه بقية دول العالم أكثر من ٢٠٪، ونحن لا نملك في هذا الجزء إلا فتاتاً.

أضف إلى ذلك قضية الزيادة السكانية، فقد تفاقمت الزيادة السكانية، إذ قفز تعداد المنطقة من ١٠٠ مليون نسمة فقط في عام ١٩٧٠ إلى نحو ٢٤٠ مليون نسمة في عام ١٩٩٣م، ويتوقع تصاعده مجدداً إلى نحو ٣٣٠ مليون نسمة بنهاية القرن الحالي.. وبدون إجراءات حاسمة لمكافحة الانفجار السكاني سيقفز تعدادها إلى نحو ٦٠٠ مليون نسمة في عام ٢٠٢٠، كما أن التركيبة السكانية في المنطقة ستكون أيضاً من أهم التحديات بسبب عدم توازنها إذ أن أكثر من نصف السكان تقل أعمارهم عن ١٥ عاماً مما يفسر المحاولات الهائلة في المنطقة لتوفير فرص التعليم والعمل، ترقباً لانضمام أعداد كبيرة إليها خلال سنوات قليلة، ومثلاً فيما تعد منطقة دول مجلس التعاون الخليجي من أقل المناطق العربية من ناحية عدد السكان، يرتفع تعدادها بنحو ٣٠٠ ألف نسمة سنوياً، أي بما يزيد عن عدد العاملين في الكويت.

نحن وهندسة الاقتصاد القادمة:

إن من ينظر بعمق إلى دورنا في المستقبل، وخاصة في قضايا الاقتصاد، يدرك أن من واجبنا أن نتحرك بتخطيط وجدية وفاعلية، لأن العملية الاقتصادية ستتجه إلى عولمة الاقتصاد وانصهار الأيديولوجيات وسقوط الحدود الجغرافية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن القفزات العلمية والتطورات التكنولوجية ستجعل العملية الاقتصادية عملية محسوبة بدقة، والتطور لن يكون ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تنبؤات ولا عمل عرافين، أو تخمينات، ولا تقديرات جزافية، أو فهلوة، وإنما سيكون بحساب، ورصد علمي للمسار الاقتصادي العالمي، وموقفنا من كل ذلك، وهناك مؤشرات ودلائل لا بد أن نأخذها في الاعتبار منذ الآن، فمثلاً إن ١٪ من الأكثر ثراء في أمريكا يسيطرون على ٤٠٪ من موارد أمريكا، و٢٠٪ من الأكثر فقراً في العالم يملكون ١,٥٪ من الثروة فقط، لقد انتقل العالم بكل أسف من ملاك العبيد إلى ملاك الثروات، إلى ملاك الشعوب، وأصبح من يمتلك اقتصاداً أقوى يحكم أكثر ويسيطر أكثر. فأين سنكون نحن من كل ذلك وأين نحن من هندسة الاقتصاد في القرن القادم، والتي ستستند إلى مبدأ انصهار الأيديولوجيات وتفاعلها مع أيديولوجيات أخرى ليس بالضرورة متطابقة معها كما يقول الدكتور حميد الجميلي، وسيكون الاقتصاد في القرن القادم اقتصاداً مختلفاً ولا يشبه بحال من الأحوال اقتصاد القرن الذي نحن فيه، وستسقط الحدود الجغرافية، وسنتجه إلى عولمة الاقتصاد وسلطة القرار الاقتصادي، فأين نحن من كل ذلك، وماذا أعددنا للتحولات القادمة، ونحن نتحسب لأبعاد اختراق اقتصادي عالمي قادم.

البترول ومستقبل المنطقة الاقتصادي:

وبعد أن استعرضنا قضايا القرن القادم على ضوء المعطيات الاقتصادية، دعونا الآن نلقي النظر على قضية البترول، ونحن نملك ما يزيد عن ٦٠٪ من احتياطي البترول العالمي في منطقتنا، ولكنه أمر مؤسف أن نظل نصدر هذه الثروة أو مجملها خاماً، ففي ذلك إهدار لهذه الثروة الناضبة دون الاستفادة من بناء هياكل صناعية واستثمارية، والاعتماد على التصدير فقط فيه خطورة، خاصة وأن سوق البترول سيطرت عليها تغيرات كبيرة وخطيرة وقد تعود إلى سيرتها الأولى، عندما كانت تتحكم الشركات الصناعية في الإنتاج. إننا نقوم بعمليات تكرير، ولكن ما تزال قضية التقنية والخبرة ومعدات الاستكشاف بيد الدول الصناعية، ونحن زبائن فقط وبالأسعار التي يعرضونها، ثم إن قضية التسويق ما زالوا يملكون صمامها، وبكل أسف فإن مستوى إنتاج النفط العربي قد يستمر ويتزايد وتنخفض أسعاره رغماً عنا، وسيؤدي ذلك إلى استهلاك احتياطاتنا البترولية الكبيرة بسرعة!!.

ثم إن قضية تطور استخدام الغاز وقوداً في الصناعة قد يخلخل المعادلة، أضف إلى ذلك ما قد ينتج من بدائل الطاقة كما ذكرت، والتي قد تؤدي إلى اكتشاف مواد تقلل من الاعتماد على البترول كمصدر من مصادر الطاقة، فماذا أعددنا لذلك، وإلى أي مدى بدأنا نستعد لندخل مرحلة صناعة البترول والاستفادة الكاملة منه؟؟.

إلى أين نسير؟؟:

وبعد، فإلى أين نسير؟ وكيف ستكون صورة المستقبل الدولي في المرحلة

القادمة؟ وأين موقعنا من كل ذلك؟.

أما إلى أين نسير، فمن الواجب أن نفكر بعمق ونحن ندخل إلى القرن القادم، وأن ننظر إلى الإسلام بعمق، وأن نقدمه بديلاً صحيحاً وسليماً وبمنطق العصر، لا أن نكسب عداوات العالم وتحدياته، ومن المهم أن نغير الصورة القاتمة التي حاول الغرب بكل أسف أن يصور الإسلام بها، حتى وإن كان العديد من مفكري الغرب لا يوافقون على تلك النظرة القاتمة للإسلام، بل إن كثيراً منهم أخذوا يدافعون عن الإسلام، ولكن واجبنا نحن مختلف، ومسئولياتنا أعظم نحو تقديم الإسلام ـ هذا الدين الوسط ـ بصورة تصل إلى العقول والقلوب وتؤثر فيها وتهديها إلى سواء السبيل.

المرأة ودورها المطلوب:

من واجبنا ونحن ندخل إلى القرن القادم أن نستفيد من كل إمكاناتنا وطاقاتنا، وأن نأخذ في اعتبارنا أن المرأة نصف المجتمع، وأن نخطط بكل مسئولية وأمانة ونظرة مستقبلية للاستفادة من طاقات النساء؛ لأنهن شقائق الرجال، فهناك الآلاف من بناتنا يتخرجن كل عام من الجامعات، ومئات الآلاف ينخرطن في مراحل التعليم المختلفة، وتمتلئ المنازل بهذه البراعم التي تشكل نصف المجتمع، ولكن يبقى السؤال المهم دائماً: ماذا عملنا لهؤلاء البنات؟ وإلى إي مدى خططنا لاستيعابهن بطريقة صحيحة تحقق الهدف الأسمى الذي نسعى إليه جميعاً من وضع المرأة في مكانها الصحيح، والاستفادة منها بطريقة صحيحة وإعطائها حقها كاملاً في الحياة الكريمة، وإعطائها الفرصة الصحيحة والصحية لخدمة بلادها وأمتها، وعلى أساس أن نعطيها ما أعطاها الله، ومن

منطلق أن المجتمع يتكون من ذكر وأنثى، وأن لكل فئة حقها، ولكل فئة دورها، وأن من الواجب أن نلتفت لقضايا هذا الشق الهام من المجتمع الذي بدونه لا تكتمل الصورة المثلى، ولا تتحقق أهداف المجتمع العليا لأنها نصف المجتمع. والمجتمع يتكون من ذكر وأنثى كما أسلفنا، وللأنثى حقوقها على هذا المجتمع، فلا بد أن نعطيها ما أعطاها الله من حقوق كاملة غير منقوصة، ونكرمها كما كرمها رسول الله ﷺ، وكما كرمها خلفاء الرسول ﷺ، والتابعون.

والحقيقة ـ ونحن نتطلع إلى القرن القادم ـ أنه لا بد من عنايتنا بصورة أكبر بقضية المرأة وعملها وإعطائها الفرصة للمساهمة بأدوار إيجابية، خصوصاً بعد أن تعلمت وتأهلت وأصبحت قادرة على العطاء.

ولا بد من توسيع مجالات عملها في إطار المنهج والسياسة، ولكن بانطلاقة واعية تسمح لها بالمشاركة في خدمة بلادها ووطنها وأمتها، فالقرن القادم يحتاج منا إلى تضافر الجهود، وتجميع الطاقات، والتحرك نحو الأهداف برؤية واضحة وخطط سليمة وطاقات مؤهلة وفاعلة حتى نحقق أهدافنا ونتبوأ مكانتنا المناسبة. ولا بد أن ننطلق من المنطلق نفسه الذي ضرب الله لنا به الأمثال: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾، وفي هذا يوضح الله عز وجل لنا أن للمرأة في المجتمع دوراً يجب أن تؤديه، وألا تزاحم فيه، وأن تنفرد به، وكما للرجل وظيفة فإن للمرأة وظيفة، وأن القضية واضحة وضوح الشمس في كبد النهار، فكما أن لليل وظيفة، وللنهار وظيفة، فإن للمرأة وظيفة وللرجل وظيفة، ويجب ألا يطغى ولا يستأثر أحدهما بعمل الآخر، ولا يظلمه ولا يحقره ولا يهضمه من حقوقه شيئاً؛

لأن النساء شقائق الرجال.

وفي أيامنا هذه تبرز قضية عمل المرأة، وقد أصبحت قضية حتمية وتلقائية، ومن الواجب في رأيي أن يعالج هذا الموضوع بصورة جدية وواقعية، وأن نتحمل مسئولياتنا أمام الله عز وجل، وألا نغمض أعيننا أمام ما يجري في المجتمع، وأن نتلمس حاجة المرأة للعمل، وأن نبحث عن الطرق الصحيحة لتشغيلها، فما دامت قد تعلمت وتخرجت، فمن الواجب أن نعطيها الحق في أن تعمل وتكسب رزقها بعرق جبينها وفق منهج الله، وأن نفتح ونوسع أبواباً جديدة للعمل الشريف، ونخطط لأعمال جديدة للمرأة، فنحن أمام أبواب قرن جديد يستوجب الاستفادة من المرأة استفادة صحيحة، وتشغيل طاقاتها بصورة تحقق آمالها ومتطلباتها، وتسد حاجتها وتعينها على الكسب الطيب والرزق الحلال.

ولا بد من نظرة جادة إلى هذا الموضوع، وحان الوقت لعمل صالح وجاد ومخلص نخطط فيه بصورة أوسع لتوظيف طاقات المرأة، فهناك الآلاف من الوظائف الفنية والطبية وغيرها مما يمكن الاستفادة فيه من طاقات النساء دون أن نقع في مخالفة الله عز وجل.

الإسلام والغرب:

ودعونا الآن نتكلم عن الإسلام باعتباره دينا كاملاً، وواجبنا نحو طرحه للناس، والدعوة إليه بالحكمة، ولنأخذ مثلاً مواقف الغرب منه، والتي تحتاج إلى تفهم وبحث، ثم ردود فعل مناسبة وواعية وقادرة على طرح الإسلام بالطرق الصحيحة، وعندما نتكلم عن الإسلام والغرب، فلا بد أن نسلم بالفكرة القائلة بوجود صراع قائم مع الغرب حول الإسلام، ولكننا لا يمكن أن نعمم هذه الصورة، فهناك في الغرب من يحترم الإسلام، وهناك من يؤمن بالإسلام، وهناك

من يترصد ويحيك الدسائس للإسلام، وهناك من أعلنها حرباً واضحة، فلا بد أن نفرق بين هذا وذاك، وأن نقف من كل فريق الموقف المناسب، وأن نحسن طرح الإسلام، ثم ندافع بوعي ومسئولية.

«إن الفكرة القائلة بوجود صراع قائم مع الغرب، وبوجود صراع يمكن إحياؤه مع نهاية الحرب الباردة، هذه الفكرة على حد قول فريد هاليداي[٤]، ليست مجرد اختراع ديماغوجيين أوروبيين أو أمريكيين. فعندما انهارت الشيوعية، ومعها طائفة من الأحزاب والحركات التي ارتبطت بها في العالم الثالث، بدا أن بعض المسلمين في العالم الإسلامي يؤكدون الأحكام الغربية المسبقة، بالتشديد على أنهم لاحقاً، سيحلون محل البلشفية بوصفها التحدي الأكبر للغرب. وإذا كانت هناك خرافات عن "الإسلام" فهي خرافات تلفق وتشاع ليس في أوروبا والولايات المتحدة الساعيتين افتراضاً إلى الهيمنة فحسب، بل تشاع في ساحة الإسلام نفسها التي يفترض أنها مقهورة ومهيمَنٌ عليها. وذلك فإن أية محاولة لوضع هذه القضية في إطارها الصحيح واقتراح سبل للتعامل مع طائفة المسائل المعقدة المتعلقة بهذا الموضوع ستنطوي على عملية مزدوجة هي تحدي أفكار سائدة ليس في أوروبا الغربية فحسب، بل وفي العالم الإسلامي نفسه كذلك ».

ويخلص إلى استنتاج مفاده أن مفهوم الخطر "الإسلامي" ذاته أكذوبة، والحديث عن صراع تاريخي دائم بين العالمين الإسلامي والغربي إنما هو لغو، فمن السخف النظر إلى البلدان الإسلامية على أنها تهدد الغرب. والخطر العسكري الناجم عن قوى إسلامية موحدة (في ظل الإمبراطورية العثمانية)

اختفى من زمن بعيد، وقوات الإمبراطورية بعد أن طردت من على أبواب فيينا وبودابست في القرن السابع عشر، تبخرت مع الإمبراطورية العثمانية في عام ١٩١٨ . واليوم فإن قوة العالم الإسلامي مجتمعة أقل بكثير من قوة الغرب، حتى مع افتراض الحالة (المستحيلة تقريباً) التي تتفق فيها بلدان مختلفة فيما بينها للعمل بانسجام.

وفي الوقت الذي يؤكد فيه على أن صعود الحركات الإسلامية واستحضار الإسلام مسوغاً للعمل السياسي لا يمثلان ظاهرة عامة، بل يعكسان وجود قوى معينة داخل مجتمعات محددة في العالم المعاصر، أي أنها استجابة لمشكلات راهنة، غالباً ما تكون ذات طبيعة اجتماعية وسياسية، فإنه يشير إلى أن هذه المشكلات ليست خاصة بالعالم الإسلامي، فقد نشأت كل واحدة منها نتيجة تغيرات حديثة العهد في هذه المجتمعات. وإذا حاول المرء أن يفسر صعود الحركات الإسلامية في إيران وأفغانستان وفلسطين وأماكن أخرى، فإن بإمكانه أن يبدأ بتدارس المشكلات التي واجهت سكان تلك البلدان.

ويؤكد المستشرق البريطاني فريد هاليداي على أن "قضية المواجهة" بين الإسلام والغرب هي خرافة مستديمة من جهتين متناقضتين في الظاهر، من معسكر الغرب بالدرجة الرئيسة، ولكن ليس في الغرب حصراً، هذا المعسكر الذي يسعى إلى تحويل العالم الإسلامي إلى عدو آخر. ومن معسكر أولئك الذين يدعون من داخل البلدان الإسلامية إلى المواجهة مع العالم الغربي. وهي تنطوي على محاجة، فهي إذ تنتقد أيديولوجيات من سعوا طويلاً إلى الهيمنة على العالم الإسلامي، فإنها أيضاً تنتقد الكثير مما يحدث بوصفه رداً بديلاً محلياً أصيلاً

من داخل هذه البلدان نفسها[٥].

ومن الناحية الأخرى، فلا بد أن نعيد النظر في طريقة طرح الإسلام ومعطياته، فقد قزمنا الإسلام وضيعنا أهدافه الكبرى عندما انقطعنا عن الجذور، وضيعنا القيم، وبعدنا عن الأصالة، ولم نأخذ بأسباب الحضارة، وخلطنا بين الحضارة والمدنية وشغلتنا التطورات المادية فلم نعد نعي إلى أين نسير! وقد ساهم ذلك في عزل الإسلام عن واقع المجتمع، فلا بد إذاً من تقديم الدين بصورة: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم، وبلغة يفهمونها، وبدون فظاظة ولا عنف أو قهر أو جفوة. بل بالتي هي أحسن».

ولا بد أن نقدم القرآن والسنة النبوية خاصة بصورة تصل إلى العقول والقلوب، لقد أغفلنا وهمشنا أدواراً أساسية للإسلام في المجتمع وفي الحياة الحاضرة، ونحن لسنا بحاجة إلى إسلام جديد، ولكنا بحاجة إلى فهم جديد للإسلام، فالإسلام صالح لكل زمان ومكان، ولكن لكل زمان دولة ورجال، ولكل زمان مفاهيمه وفكره وظروفه، وأدواته وهندسته، فلا بد أن نأخذ كل ذلك في الاعتبار ونحن نقدم هذا الدين ونتعامل مع المنتسبين له أو القادمين إليه.

ثم إننا أمة لا يصلحها إلا الدين كما يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، فعندما ضيعنا الدين ضعنا وضيعنا مفتاح النهضة من أيدينا، ومن الخطورة أن نبقى أمة محسوبة على الإسلام مجرد انتماء لا يحقق النهضة، ولا يعني الانتساب الحقيقي، عندما فرغنا مفهوم الأمة من مضمونها، وفرغنا مفهوم الدين، وحولناه إلى شيع ومذاهب ومطالب شخصية أو إقليمية.

من الخطورة انقطاعنا عن بقية العالم الإسلامي وثقافته وقضايا هذه

الشعوب، فقد ضعفت صلاتنا بالدول الإسلامية، الآسيوية منها والأفريقية، وهو أمر مؤسف، ناهيك عن الدول الإسلامية التي وفدت إلينا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، فلم نسأل عنها ولم نع قضاياها ولم نحاول تعميق الاتصال بها، وكان تعاملنا مع قضاياها هامشياً وإعلامياً وغير جاد، ولا فعال، وهو أمر مؤسف جداً، ولا شك أننا نحس أن الأقليات المسلمة في العالم الآن تتطلع إلى التواصل معنا كأمة عربية وأمة إسلامية وتتوقع منا الكثير، ومن واجبنا أن نتعرف عليها وعلى قضاياها ومشاكلها، وهناك الكثير من الأمور التي نستطيع أن نساهم بها في حل مشاكل هذه الأقليات المسلمة، وفي الوقت نفسه لديها ـ كما يقول الدكتور خليل الخليل في مقال نشره بجريدة "المسلمون" بتاريخ ٣١/١٠/٧٩ (٦) ـ قال: «إن هناك موارد كثيرة في مناطق الأقليات المسلمة؛ موارد بشرية وطبيعية ومواهب علمية تحتاج منا إلى التواصل معهم، ومشاركتهم والاستعانة بهم وإعانتهم في الوقت نفسه، والمدد المالي ليس هو كل شيء، ويجب ألا يكون مقياساً وحيداً للعناية بالأقليات، لأن المال وحده لا يصنع تاريخاً مميزاً، وربما يستطيع فرد أو أفراد من تلك الأقليات أو من غيرها أن يقدم المال اللازم لتمويل مشروع أو مشروعات، ولكن المهمة الملحة هي التواصل البناء لرسم خطط سليمة تحدد علاقة تلك الأقليات بعضها ببعض، وبمراكز القوى في مواقعها، وتجدد لتلك الأقليات معلومات عن دينها الإسلامي على أسس سليمة صحيحة ومتينة، ومتطلبات العصر، وتربطنا بها وتربطها بنا».

ومن الناحية الأخرى، فإن عندهم الكثير والعديد من الإشكاليات الدينية والاستراتيجية التي بددت طاقاتهم وفرقت صفوفهم وحطمت آمالهم، فهم

بحاجة إلى مخلصين مختصين ينظرون لمساعدة هذه الأقليات على عبور المنعطفات الضيقة الشائكة، التي ربما تكون جديدة على قضايانا في عالمنا الإسلامي الواسع.

ومن المشاكل التي يعانون منها مشكلة العزلة، وبعض هذه المناطق في ديار لا تسودها القيم الإسلامية ولا تحكمها الشريعة، وهم جميعاً غرباء هناك، والإسلام غريب عندهم، والانتماءات الحزبية تشتتهم في كثير من الأحيان، وعلاقاتهم بالدول العربية والإسلامية ضعفت عن ذي قبل وتحتاج إلى دعم وتحتاج إلى عناية، وهؤلاء الناس نجدهم يؤسسون الكثير من المراكز والمدارس ودور نشر العلم بدعم من الدول العربية والإسلامية.

إلا أن بعض المسلمين خاصة المهاجرين للدول الغربية ينظرون بعين الريبة لتلك الظاهرة ويشككون - بدون أسباب مقنعة - في نية الداعمين، هذه النظرة في الحقيقة محدودة، ولكنها تؤثر يوماً بعد يوم، وهي مصدر من مصادر الخلافات بين الأقليات المسلمة، فلا بد عندما نتقدم لمساعدة هذه الدول أن نتقدم بحذر وبعناية وبتخطيط، ونشعرهم بأن توجهاتنا مخلصة، ورغباتنا صادقة في الدعم، لتمكينهم من مواصلة طريقهم، وهذا واجب من واجبات الأخوة الإسلامية.

ومن المهم عندما نختار الدعاة الذين نرسلهم إلى هناك أن نختارهم بعناية لأن بعض الدعاة الذين يتم إرسالهم بواسطة بعض الجامعات الإسلامية والوزارات - كما يقول الدكتور خليل -: هؤلاء تأتي منهم بعض الأحيان تصرفات تزعج تلك الأوساط وهي غريبة عليها، وتثير نوعاً من الشكوك فيما بينهم، ولذلك من المهم أن نختار هؤلاء الرجال والنسوة الذين نبعثهم إلى تلك الديار بعناية،

ونعلمهم الدور الذي يجب القيام به، وأن يتآلفوا الناس وأن يتسامحوا، وأن يدعوا إلى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يتآلفوا قلوب الناس، وأن يستعملوا الحكمة والموعظة الحسنة ويخاطبوهم بلغة يفهمونها ويتألفونهم بها، وهذه كلها قضايا مهمة عندما نتكلم عن قضية الأقليات المسلمة.

ومن واجبنا أن نعود إلى السيرة النبوية الزاخرة، فننهل منها، ونتعلم كيف كان الرسول ﷺ والذين معه قلة ولكنهم كانوا صادقين، وكان الدين مهيمناً على حياتهم، باعوا أنفسهم لله عز وجل، وأخذوا بكل الأسباب في سبيل بناء تلك الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس، مع أنهم كانوا بلا عدة ولا عدد، ولكنهم قاموا بالدور خير قيام عندما كانوا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ونسوة وقفن خلف هؤلاء الرجال، فساهمن في بناء هذه الأمة، لكننا في أيامنا هذه جعلنا الإسلام قزماً، وأضعنا أهدافه الكبرى - بكل أسف - ففي الوقت الذي قبل أجدادنا الإسلام ديناً سيطر على حياتهم، ضعنا نحن وضيعنا.

ARCHIVE

ومن المهم في المرحلة الحاضرة أن نستخدم الحكمة في الدعوة التي تكررت في القرآن ست مرات، فالله سبحانه وتعالى أمرنا بأن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ورسول الله ﷺ علمنا أن الحكمة هي ضالتنا، ولا بد أن نستفيد منها في كل مجال، وهذا يعني تحقيق ما نسعى إليه بروية وعقل وتدرج يأخذ في اعتباره طبيعة الوسط والعصر والأمة التي نتحدث إليها.

إن من المهم أن نأخذ في اعتبارنا أن العقل العربي والإسلامي قد تحرر واتصل بالعالم وسقطت الحدود والفواصل، ومن هنا لا بد أن نتكلم إلى الناس بلغة يفهمونها ونتفهم وضع الشباب واحتياجاته وآماله وتطلعاته ونختار اللغة

المناسبة التي نتكلم بها معه ونتحسس آلامه ونعرف متطلباته، وهذا أمر مهم إذا أردنا أن نتفاهم مع الناشئة أو الشباب، ونجذبهم إلى حظيرة هذا الدين في القرن القادم خاصة.

ومن أخطر الأمور التي أدت إلى انحرافات بعض الشباب، فشلنا في التواصل والتحاور معهم، وإيجاد قنوات صالحة وحوار مناسب معهم.. ولا شك أن التدرج عملية مهمة ومطلوبة في الحوار.. والمرونة قضية أساسية وكذلك والتعقل والهدوء؛ فهذا رب العالمين يعلمنا في القرآن الكريم وهو يتحدث إلى رسوله ﷺ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ثم يوجه رسول الله ﷺ أن يجادل الناس بالتي هي أحسن ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ثم طلب أن تكون أسس الحوار بحكمة وحسن موعظة. ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. ومثل هذا الأسلوب يقربنا إلى الشباب ويقربهم إلينا، ولعل الله سبحانه وتعالى عندما أبقى على الآيات المنسوخة في القرآن الكريم أراد أن يعلمنا أهمية التدرج في التشريع والتطبيق للوصول إلى التربية النهائية والهدف المنشود.

ومن المهم أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، وأن يقدم القرآن الكريم والسنة النبوية بصورة تصل إلى العقول وبلغة يفهمها الناس ـ كما ذكرنا ـ وخاصة الأطفال فالناشئة فالشباب؛ لأن تحديات المرحلة القادمة كبيرة، وسنرى جميعاً أن النهوض بالشريعة الإسلامية إنما يكون بالتوجه إلى كليات الشريعة وأصول الدين والقضايا الأساسية قبل الفروع والجزئيات الفقهية.

ومن الخطورة أن يتصارع العلماء وأهل الفكر على قضايا فرعية وجزئيات

ثانوية يشغلون الناس بها ويشتتون أفكارهم لأن الإسلام قدم الإيمان الذي لا يلغي العقل، ولكنه يطلقه ويحرسه، فهو عقلانية بلا حدود، ولكن في إطار الإيمان الكامل والنصوص الشرعية.

ومن الناحية الأخرى يجب أن يظل الفقه وسيلة للاجتهاد والتطوير، ويتمشى مع حاجات الأمم ومستجدات الأحداث والمتغيرات، وذلك لأن الإسلام هو دين الفطرة، وقد كانت اليهودية مادية بحتة وجاءت المسيحية لتعطيها الدفعة الروحية، ولكنها أصبحت روحانية بحتة، ثم جاء الإسلام - كما يقول أستاذنا الشيخ محمد متولي الشعراوي - ليكون مادية بقيم وروحانية بحركة. وكما يقول الدكتور عزالدين عناية بأن فقهنا العبادي يجب أن يخرج من الضيق إلى السعة لمواجهة تحديات خطيرة في عصرنا المقبل، وذلك من شأنه أن يخرجنا من تاريخنا ويؤسس خيمة للاغتراب دائمة في عقولنا وتوشك أن تدمر الذات العربية الإسلامية المتطلعة لقيادة العالم، ويضرب مثلاً بفقه الزكاة: «وفقه الزكاة القريب من حياتنا ليس بأحسن حالاً مما عليه غيره، فغربة المدرس لهذه المادة متجلية بشكل فاضح ومنمة عن اغتراب معرفي غير محدود، إذ يطرح الدرس أمام الطلبة في إطار ظرفية القرون المبكرة لتشكل العقل الإسلامي حيث تحديد المقادير والنصاب من خلال الحديث عن استعمال موازين ومكاييل ومقاسات مهجورة إن لم نقل منقرضة، فكيف للطالب أن يدرك ويعي أصول دينه وغاية تطبيقها في عالم اليوم بهذه الأساليب المنفرة، إذ من الأساسات التي يدرسها الطالب زكاة الغنم والبقر والإبل، والبيوعات كما كانت تتم في سوق عكاظ والبصرة قديماً، وكأن الاقتصاد العربي الحالي ذا بنية أعرابية كما كان الأمر

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قديماً ودون اعتبار لما يجري اليوم في ساحة الأسواق العالمية والبورصة وتجارة البحار والقروضات وتجارة الإعلام وغيرها»[٧].

وكذلك فقه المعاملات: فهذا الفقه مما ينبغي الانشغال به بصورة أوسع من فقه العبادات، إذ هو الأقرب للفعل اليومي بدورانه حول النشاط العملي للفرد والجماعة. يجب أن نقر القول أن الفقه الإسلامي ممثلاً في عقول المتكلمين باسمه قد انهزم كل الانهزام في هذه الناحية، حتى إن ساحة التنظيم اكتسحت من طرق فقهاء الفقه التشريعي غير الديني وغير الخاضع لضوابط التشريع الإسلامي، فما سبب تراجع فقه المعاملات الإسلامي عن فاعليته وعن التصاقه بالحدث الاجتماعي مقولباً أياه وصائغاً لتفرعاته ضمن شبكته الفقهية»[٨].

ويؤكد على حقيقة مهمة حول المصدر التشريعي وهو الكتاب والسنة، فيقول: «إن المصدر التشريعي والمرجعية الفقهية الأولى في الحضارة الإسلامية تبقى ممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وهذان المرجعان مختزنان للأصول لا الفروع، ودور العقل العربي الإسلامي هو في الغوص في خبايا النص باحثاً لاستشارته والاستنارة به في حل إشكاليات الحياة التي تستوقفه، والبين أن فقهاء نا المعاصرين ما انخرطوا في قضايا عصرهم التجارية والمالية والصناعية والفلاحية إلا ما ندر منهم من خلال ضبط سيرها والتفتيش عن حلول لتحدياتها»[٩].

ولا شك أن من واجبنا أن نهتم بالنتاج الفقهي واجتهادات الفقهاء والأئمة، ولكننا في الوقت نفسه من واجبنا أن نأخذ في الاعتبار التطورات والمستجدات

والتحديات في مجتمعنا المسلم المعاصر، وأن لا ندرسها من وجهة نظر تقليدية فقط، بل يجب أن نأخذ في الاعتبار العلوم الحديثة حتى لا يحدث انشطار في العقل العربي والمسلم، بل يعتمد على المصادر الأساسية ويتفهمها ويتعمق فيها، ثم يستخدم العقل والفكر التحليلي ليجعل هذا الفقه في خدمة قضايا المجتمع الحاضرة: «زيادة على تلك المسائل المطروحة أمام العقل الفقهي اليومي، فإننا ننبه للمسألة الجنسية الغائبة أو المعالجة بطريقة لا تاريخية، إذ هذا الأمر يطرح نفسه بعنف على شريحة واسعة من شبيبتنا مغرقاً إياها بين حدي الاكتئاب والأمراض النفسية، أو التخلي عن الحكم الشرعي فيها. فمن منظورنا أن الفقه في أصله هو محاولة لإيجاد الصلة بين الحكم الشرعي والواقع الاجتماعي من خلال علاقة التواصل والتكامل، ولهذا فانبعاث الفكر الإسلامي الأكاديمي من جامعاتنا ملزم بقطع الغفلة عن مجريات الواقع، وبتحويل دراسة التراث العربي الإسلامي إلى دراسة تاريخية واعية نشأة النص والمقولة الفقهية من حيث تشكلها في التاريخ»(١٠).

ومن هنا فإن ما ندعو إليه هو تطبيق للشريعة والتزام بها ثم تحسس حاجات المجتمع والناس والناشئة على وجه الخصوص، والاستماع إليهم وطرح قضاياهم على بساط البحث، مع محاولات جادة للإجابة على أسئلتهم والنظر فيما يحيط بهم من قلق أو شكوك أو سوء ظروف مستجدة تتطلب فقهاً يتعامل معها بأبحاث علمية وتجاوب وموضوعية تؤكد أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان بصلاح شريعته التي اختارها الله سبحانه وتعالى وأنزلها على رسوله ﷺ، ثم بقدرة العلماء والفقهاء على الأخذ بيد الناس لفهم هذه الشريعة وحثهم

على تطبيقها وإعانتهم والاستماع إلى ما لديهم ووضع الحلول والإجابات المناسبة حتى نربط هذه الأمة بدينها وعقيدتها.

وقبل أن نترك هذا الجانب، لا بد أن نلقي نظرة على واقع الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر، وكيف أن الاستراتيجيات الإعلامية والسياسية الغربية نجحت في اختراق جبهات كثيرة في العالم الإسلامي واستعانت بها وطوعتها. وأحسب أن الأمر قد تم دون إحساس من هذه الجهات بأنها تعمل لصالح تدمير جوانب من الجبهة الإسلامية، فاندفعت في غفلة إلى صراعات شوهت الكثير من القيم الإسلامية في نظر الشباب، ومن هذا مثلاً ما حدث في أفغانستان، كيف دخلت إلى الساحة فئات باسم الإسلام، وبأعلام الإسلام وشباب الإسلام تشوه صورة الإسلام بعلم أو بدون علم، وتحقق أهداف أعداء الإسلام. فما حدث في أفغانستان بكل أسف هو استغلال فئات باسم الإسلام أحدثت فوضى لا مثيل لها، وشوهت صورة الجهاد في أذهان عامة الناس، كما شوهت صورته في أذهان الناشئة والشباب الذين كانوا يندفعون للمساهمة مع إخوانهم في سبيل الله.

هذا الاختراق الذي حصل في أفغانستان، هو صورة لما حدث وما يمكن أن يحدث في العالم الإسلامي في كثير من جوانبه وقضاياه المصيرية.

ولقد حدث الأمر نفسه في الحرب الإيرانية العراقية، وسقط عشرات الآلاف من القتلى دون ذنب ولا جريرة، إلا الاستجابة لدواعي الشر وبذور الفتنة، والسير خلف مخططات رسمت للمنطقة لتستنفد طاقاتها وقواها، وتشتت جبهتها، وتزرع بذور الشك والفرقة، وتشوه صورة التعاون الإسلامي الممكن.

ثم جاءت كارثة الاعتداء العراقي على الكويت لتعطي صورة مقيتة مظلمة لكيفية استغلال فئات من العالم العربي، وبكل أسف من زعماء العالم العربي، الذين كانت تعلق عليهم الآمال، ليقوم بأسوأ وأقذر حركة في التاريخ العربي الحاضر بضرب جارته وإحداث فتنة عظيمة، وتقويض حقوق الأمن وتدمير اقتصاديات العراق وتشويه صورة أولاده وتشريدهم، والاعتداء على بلد آمن وإرباكه وقتل أولاده وتشتيت أسره، ونهب ثرواته بصورة لا تقل عما فعله «هولاكو»، بل هي أبشع من ذلك؛ لأنها من دولة عربية على دولة عربية شقيقة، ومن جارة على جارتها، ومن دولة مسلمة على دولة مسلمة.

هذا مثل صارخ على ما يمكن أن يحدث من تقويض أو تشتيت لصفوف الأمة أو انحراف عن مسيرتها أو تدهور لاقتصادها أو ضياع لثرواتها، فهل أعددنا العدة لذلك، وهل تعلمنا الدرس؟ وهل خططنا للمستقبل؟؟.

وجاءت ثالثة الأثافي - كما يقولون - هذه البلايا والرزايا التي أصابت البلد المجاهد الشقيق "الجزائر"، وما طرأ عليه من ألوان القتل والتعذيب للأبرياء من الناس، ثم نسب ذلك زوراً وبهتاناً إلى الإسلام، والإسلام منه براء والمسلمون منه براء، فكل من يشهد أن «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، ويؤمن إيماناً صادقاً بهذا الدين لن يتجرأ على مثل هذه الأفعال المشينة، ولكنها العداوات للإسلام التي شوهت صورة الجهاد في أفغانستان وصورة الجهاد في الجزائر، ونجحت في تخويف الناس من كلمة «جهاد» بعد أن كانت كلمة مقدسة في العقيدة الإسلامية وفي الشريعة الغراء وفي قلوب الناس وعقولهم، فشوهتها ومسختها، ونفذت من ذلك إلى تشويه الدين الإسلامي، وكل هذا - بكل أسف -

يتم تحت أعين رجال الإسلام وفي وضح النهار، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وختاماً، فلا بد أن نتحسب في رأيي لأبعاد القرن القادم؛ لأنه قرن الصراعات الأيدولوجية والفكرية والهيمنة الاقتصادية، خاصة بعد سقوط الكتلة الروسية وقد أصابها ما أصابها، وخرجت من اللعبة الدولية ولم يعد لها ذلك الثقل ولا التأثير السابق ولا الدور في صناعة القرار الدولي. ومن هنا فلا بد أن ننظر إلى القرن القادم بكل تحولاته ونأخذ في الاعتبار بروز قوى مختلفة أخذت تتكتل وتظهر على الساحة؛ مثل القوى الأوروبية التي أخذت تجمع أطرافها وتسعى للبروز كقوى اقتصادية مؤثرة، وهذه من الأمور التي لا بد من النظر إليها بجدية. ثم إن ما يحدث في أمريكا من تحولات وتغيرات وما أخذ يبرز من مشاكل اقتصادية وتحولات في التركيبة السكانية.. كل هذا يجعلنا نفكر.. هل ستسقط أمريكا وبصورة غير التي سقطت بها روسيا؟ أم هل ستضعف ويتغير دورها وسيتغير دعمها وخاصة لإسرائيل، وإذا ما تم ذلك، فماذا أعددنا لهذا التحول، وهل فكرنا أصلاً واستعددنا لمثل هذه المتغيرات؟.

ثم يأتي السؤال الهام الأخير ونحن ننظر إلى بروز القوى الصينية وتكتلاتها.. واتجاهها إلى ألوان من المرونة تحاول فيها أن ترتبط وتتجمع مع ما حولها من قوى مثل الصين واليابان وأندونيسيا وسنغافورة وغيرها!!.

فهل ستنجح هذه الكتلة، وهل ستصبح قوى عسكرية واقتصادية مؤثرة وما هو دورنا؟ وهل خططنا للاستفادة من هذه التغيرات المحتملة؟.

ثم نأتي إلى سؤال مهم آخر يخصنا نحن عن ميزان الثقل الإسلامي، وهل سيتحول هذا الميزان من الجزيرة العربية إلى أندونيسيا وماليزيا؟ وما هي أبعاد

هذا التحول؟. وهل حسبنا مثل هذه الحسابات الدقيقة ووضعنا في الاعتبار دورنا في المرحلة المقبلة على ضوء ما يحدث من تحولات اقتصادية مؤثر في تلك المناطق؟.

ثم نأتي إلى السؤال الأخير، وهو دور أفريقيا في القرن القادم وأبعاد هذا الدور، خاصة ونحن ندخل قرناً سيتميز بالصراعات الاقتصادية وعلاقات سياسية حرجة مبنية على التحولات الاقتصادية في إطار ما يحدث في العالم من تحول، وخاصة في مجال الزراعة والثروة المائية وما يحدث خلال القرن من صراعات على قضايا الاحتياجات المائية وموارد التغذية ومصادرها، ثم لا بد من محاسبة النفس على ما نحن فيه من غياب كامل ومؤسف عن دورنا في القارة الأفريقية بل والآسيوية، وعن أهلنا وإخواننا هناك، حتى إن كثيراً من الدول التي كانت تربطنا بها علاقات قوية أصبحت دولاً وأمماً بعيدة عنا بسبب إعراضنا عنها وعن قضاياها، ولم يعد هناك أي تواصل فعال ولا علاقات مثمرة وهو أمر خطير إذا استمر على هذا النحو لأنه سيؤدي إلى عصر جديد من القطيعة بيننا وبين هذه الدول، ويتميز ببعدنا عنها وإهمالنا لها، وبذلك ستزداد الفجوة والغربة وتضيع تلك الروابط العميقة التي كانت تربطنا والتي كان من واجبنا الحفاظ عليها، إذا لم يكن من أجل الإسلام والروابط الأخوية، فلا أقل من أجل أن هذه الدول وهذه القارات هي عمقنا قبلنا أو لم نقبل.

ومن هنا فإن الاتجاه الذي نسير عليه والذي أدى إلى ضعف علاقاتنا مع هذه الدول الإسلامية في آسيا وأفريقيا هو اتجاه خطير ومضر، وسوف يؤثر سلبياً على مستقبل علاقاتنا بهذه المنطقة وهذه الدول، وسوف يزيد من تعقيد

الوضع الاقتصادي والسياسي في مستقبل علاقاتنا بهذه المناطق.. وإذا لم نعمق علاقاتنا مع هذه الدول لشيء، فإنهم عمقنا وعزوتنا ورصيدنا في المستقبل.

ثم في هذا المجال وقبل أن نختتم موضوع علاقاتنا بالدول الأفريقية أشعر أن من واجبي أن أركز على قضية الأمن المائي في المرحلة القادمة: الأمن المائي العربي، والأمن المائي الخليجي.

الأمن المائي:

ندرة المياه ستكون من أهم تحديات المنطقة العربية في القرن المقبل.. إذ أن المنطقة في غالبها قاحلة أو شبه قاحلة، وتستأثر بنحو ٩٪ من سطح الأرض و٥٪ من سكان العالم وتملك ٠,٥٪ فقط من موارد المياه المتجددة حول العالم.. وحتى هذه الحصة الضئيلة غير مستخدمة بالكفاءة المناسبة، ولا تقع كلها تحت سيطرة المنطقة، ويأتي نصفها من خارج الحدود.. ويقل معدل سقوط الأمطار في المنطقة عن ١٦٠ مليمتر وتتلقى نحو ثلثي المنطقة أقل من ١٠٠ مليمتر سنوياً مما يجعل معظم المنطقة معتمد بشدة على مصادر المياه السطحية النادرة أو على التحلية المعروفة بارتفاع تكاليفها.. أما موارد المياه الجوفية غير المتجددة في المنطقة، والتي تعادل نحو ٣٧ ضعف المصادر المتجددة تتصف بارتفاع الملوحة، مما يعني عدم إمكانية استخدامها قبل عمليات معالجة معقدة.. كما أن أزمة ندرة المياه تتصاعد أيضاً بسبب الإسراف في الاستخدامات الزراعية واستخدام تقنيات عتيقة تلتهم ٩٠٪ من الموارد المتاحة مما يتطلب تعديلها لمقابلة تصاعد الطلب على المياه للأغراض المنزلية والصناعية التي تقدر حالياً بنحو

٥,٧٪.

فمن ينظر بعمق في هذه المسألة كما يقول د. جان الخوري [١١] «يلاحظ موضوع المياه يتلخص في أن المشكلة التي طرأت على الساحة العربية حديثاً بلا شك ترجع لعوامل أساسية. العامل الأساسي الأول هو النمو السكاني في الوطن العربي الذي وصل إلى درجة أصبح معها الطلب على الماء كبيراً، والأمن المائي العربي ينطلق من فكرة الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي. والنقطة الثانية هي أن المحافظة على توازن المياه العربية وإمكانية توفير المياه للمجتمع العربي ترتبط بعوامل ليست دائماً تحت سيطرة المجتمع العربي، هذه العوامل هي الأنهار المشتركة، ويكون فيها عن طريق الاتفاق مع الدول المجاورة في إطار قانون التشريع المائي الدولي. وهناك عوامل داخلية، فالمجتمع العربي يجب أن يتعاون للحد من الإسراف في استخدام المياه، ويجب أن يكون هناك اقتصاد وإدارة أفضل وترشيد على مستوى أكثر فعالية».

ومع أن الكثير من الناس يعتقدون بأنه لا يوجد مسح دقيق للمصادر المائية المتوفرة في الدول العربية أو الإسلامية، ولكن لا يختلف اثنان على أنها قضية تستوجب دراستها والوقوف عندها ومسحها والتخطيط لأبعاد المرحلة القادمة، لأن الاهتمام واجب علينا، حيث سيصبح الماء سلعة استراتيجية مهمة.

ومن هنا فإن المشكلة ـ كما يقول د. علاء البكري ـ هي مشكلة شح المياه التي يعيشها الوطن العربي، وهي موجودة وملموسة لمن ينظر إلى المستقبل: «فهناك أزمة كامنة يمكن أن تظهر على السطح فيما لو لم نتخذ بعض الإجراءات المعينة في هذا الصدد، فيجب أن نقوم بعمل الرقابة في حفر الآبار

والفحص، إلى غير ذلك من الأمور، ولكن يجب أن تكون تشريعاتنا واضحة، وأن يكون لنا هناك سياسات واضحة، هذا مهم جداً، خطط على المستوى المحلي وعلى المستوى الإقليمي وعلى المستوى العربي، وإذا كانت هذه الخطط والسياسات موضوعة بحرص وبشكل جيد تأتي الرقابة ذاتية ومن الحس الوطني والالتزام وعدم الإفراط في التعدي على هذه المصادر»(١٢).

أهمية المعلومة:

إن القرن القادم يتميز بأهمية المعلومة فيه.. ومن يملك المعلومة يملك عنصراً قوياً من عناصر القوة، ومن واجبنا أن نأخذ في الاعتبار أهمية العناية بالمعلومة في القرن القادم، ونأخذ بيد أولادنا وناشئتنا ومدارسنا ومؤسساتنا للاستفادة من ثورة الاتصالات في العالم والإقبال على استخدام الكمبيوتر والاتصالات الإلكترونية، وأن نخرج من إطار تعاملنا السطحي معها للاستفادة منها وتطوير قدراتنا فيها والتطور في أساسيات التعليم، وخاصة في المرحلة الابتدائية وما بعدها؛ لأن: «العالم يشهد منذ سنوات قليلة تحولات مهمة، أكبرها عولمة التجارة وثورة المعلومات والاتصالات الإلكترونية، مما يعني ضرورة الاستعداد لها بشكل جيد في المنطقة العربية. كيف سنتعامل مثلاً مع شبكة معلومات "إنترنت" التي اقتحمت شتى فروع الحياة، والتي يتضاعف عدد مستخدميها الآن مرة كل عام؟ وهل سنكون قادرين على المشاركة في "الاقتصاد الإلكتروني" الذي يضم عولمة التجارة وثورة الاتصالات؟.

تقول تقارير حديثة: إن قيمة التجارة الإلكترونية عبر شبكة "إنترنت" ارتفعت إلى ١٠ مليارات دولار في العام الماضي، ويتوقع تصاعدها بشدة إلى ٢٠٠

مليار دولار قبل نهاية القرن، أي خلال أقل من ٣ سنوات. وهنا هل تتمكن الدول التي لا تملك شبكات هاتف محلية جيدة من منافسة الولايات المتحدة التي تحظى بنحو ٣٥٠ خطاً لكل ألف نسمة من سكانها»(١٣).

ثم لا بد أن نرسخ القيم والمبادئ الإسلامية في نفوس الناشئة، ونتحدث إليهم باللغة التي يفهمونها، ونقدم نموذج الحضارة العربية والإسلامية لتجربة حضارية غيرت وجه العالم رغم ما أصابها من انحطاط واضمحلال على يد أولادها، ونركز على القيم الإيجابية ونأخذ بيد الشباب والناشئة خاصة ليتعمقوا في قيم ومبادئ هذه الحضارة التي سادت أرجاء الدنيا بأسرها.

ولكن هذه الأمور ـ كما ذكرت خلال محاضرتي هذه ـ تحتاج إلى مرونة ووعي وانفتاح، ثم احترام للإنسان وخصوصياته وتطوير قدراته حتى يثق فيما حوله ومن حوله، ويعتز بكرامته ويأمن على نفسه وعرضه وحقه فالبيئة الصالحة تساعد على صناعة المستقبل، خصوصاً إذا تعاون الجميع على البر والتقوى.

إن تحركنا لا بد أن يكون في جو من الاحترام المتبادل وثقة الأجيال فينا، وأن نعمل جاهدين لاحترام حقوق الإنسان وبخاصة موضوع حرية التعبير والقدرة على الحوار وحرية الكلمة؛ لأن هذه شروط أساسية لبناء المستقبل وقضية مهمة في إقبال الشباب على المعرفة والحوار والمناقشة من جانب لبناء الذات، ثم لبناء الوطن ككل، فهذه قضايا مهمة.

وبجانب تعزيز حرية الإنسان كشرط أساسي، لا بد أيضاً أن نسعى للتخلص من قيود حقوق الإنسان، بما فيها حرية التعبير والكلمة.. لأننا لا نستطيع بناء المستقبل وسط غياب المعرفة الآن، وهذا يتطلب مزيداً من

الشفافية، خاصة وسط المسئولين الحكوميين إذا كان المطلوب منهم القيادة وليس الهيمنة.

وختاماً، فإن المرحلة القادمة ستكون مرحلة تحديات في التخطيط والتنظيم، وتحديات في القيم.. وتحديات في العمل البناء تعلمنا أن الطريق إلى المستقبل يبدأ ببناء الذات، وتهذيب النفس، وتعليم الشباب وربطهم بجذور ماضيهم، مع الأخذ بأسباب الحياة الحاضرة، ثم العمل بجدية وصدق وإخلاص، إنها ـ في الجملة ـ تحديات يحكمها التعليم السليم والمتطور والاقتصاد القوي والقدرة على الانتاجية وستكون صراعاً حضارياً وسياسياً وفكرياً ولن نستطيع أن نؤثر بل أن نتفاعل إذا بقينا على الهامش وإذا لم نتحرك قبل فوات الأوان، وليس هناك ما يمكن أن يعيننا على الوصول إلى أهدافنا إلا إذا طبقنا مبادئ هذا القرآن، وسرنا على هدي رسول الله ﷺ فهو القدوة والأسوة، والله سبحانه وتعالى عندما أمرنا في أول الأمر بكلمة السر: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ جاء التوجيه الأساس ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، ثم جاء المنهج: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾، لأنه القدوة والأسوة،: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

الهوامش

(١) المنطقة العربية وتحديات العولة ـ هنري توفيق عزام ـ الشرق الأوسط بتاريخ ٦ مايو ١٩٩٧ .

(٢) استشراف مستقبل الاقتصاد العربي في ضوء الهندسة المرتدة لاقتصاد القرن الحادي والعشرين ـ د. حميد الجميلي مجلة (شئون عربية)، العدد ٩١ .

(٣) آثار الجات على النظام القانوني والاقتصادي في دول العالم، د. عمر باخشب، جريدة المدينة في ١٨/١٠/١٩٩٧م.

(٤) الإسلام والغرب خرافة المواجهة بين الدين والسياسة في الشرق الأوسط ـ الناشر دار الساقي.

(٥) فريد هاليداي للمجلة، الأصوليون والعنصريون روجوا لأسطورة صدام الحضارات ـ حوار أجراه الأستاذ سعود الناصري ـ مجلة المجلة العدد ٩٢٣.

(٦) المنعطفات التي تواجه الأقليات المسلمة ـ د. خليل بن عبدالله الخليل ـ جريدة المسلمون ٩٧/١٠/٣١.

(٧) الجامعات الإسلامية والمهمة الثقيلة في عصرنا ـ د. عز الدين عناية ـ جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٠/١١/١٩٧٩م.

(٨) المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) المصدر السابق.

(١١) الأمن المائي العربي: هل العطش قادم، ندوة أقامتها جريدة الرياض تحت إدارة عبدالوهاب الفايز ونشرت في ٢١ أكتوبر ١٩٩٧م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) التعليم والمياه والسكان، تحديات القرن المقبل، عبداللطيف محمد ـ الشرق الأوسط ٢٥/١٠/١٩٩٧م.

التاريخ السعودي المنطلقات والأهداف

* إعداد: عبدالله بن محمد الشهيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مدخل:

استدعاء التاريخ من المفروض أن يتعدى قيمته الشائعة بعدما تسارعت الأحداث، وتفجرت المعلومات، وتوالت الثورات العلمية والتقنية، وحبلت الحياة بالمادة، وقامت العلاقات على المصلحة، وباتت التحديات ماسحة إن لم يُسْتَجب لها.

التاريخ إن لم نحركه، و نفعِّل معطياته يظل مجرد سجل زمني، وحسب رأي «توينبي»[1] تتوقف فعالياته، إذا خلا من الاستجابة للتحدي بأعلى مستوياته وهو: التحدي الصعب، حيث ينبض ما كان في ما هو كائن، وبالتالي تتهيأ بالعمل والبصيرة بواعث التخطيط للمستقبل.

وهذا يعني أنه مطلوب من المؤرخ الذي يفترض امتلاكه أدوات تخصصه، واستيعاب المعلومات عن مختلف العصور، والإلمام بطبائع البشر، وقيمة الحضارات، والمقدرة على ضبط عيار كل زمن، وطبيعة كل مكان، والبحث عن الحقيقة الماضية بالوثيقة والأثر والمصدر والمرجع والرواية، وجمع الخبرات والتجارب الإنسانية، مطلوب منه ـ وهو العارف بأن الانقطاع عن الماضي: معناه: الحرمان من التراكم المعرفي، والمؤهل لتحقيق التواصل بين الأجيال والأزمان ـ أن يسبر التحول، ويختبر التفاعل، ويستطلع ما وراء المستجدات.

تسارع الأحداث، واختلاف الصراعات، وتعدد الأيديولوجيات، وتباين قيم الأمم، ومعايير الأخلاق، تلقي على المؤرخ مسؤولية جسيمة: دينية، وأخلاقية، ووطنية، وثقافية، واجتماعية، وإنسانية، والموقف هنا ضروري لبيان ما يجب وما لا يجب، وإيضاح الصواب والخطأ، ولكن بالمنهجية، والاستخلاص القائم على التحليل والاستقصاء والاستقراء.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه عدته للوصول لمتطلبات الزمان، وإمكانات المكان، ومعرفة قدرات الأمم، ومن ثَمَّ إصدار الحكم؛ إذا ظهرت له الحقائق، وعند الشك يبدي وجهة نظره على ضوء مايستنتجه من قرائن.

إن كنه التاريخ لا نشعر به إلا بالنفاذ لأعماقه، والتوغل في معطياته، وذلك عقب تفحصه، وغربلة إفرازاته، وإخضاع النتائج للاختبار، حتى تتكون رؤية من خلالها تتضح انعكاسات المتغيرات، ونوعية المؤشرات التي تعرف على منحى المستقبل(٢).

تأسيساً على ما تقدم نرى أن التاريخ السعودي، منذ عهد الدرعية العام ١١٥٨هـ/١٧٤٥م حتى يومنا هذا، قد تطور تطوراً تجاوز حدود المكان والزمان، وجرى إشباعه بالفعل المستجيب للحاضر انطلاقاً من مكامن قوة الماضي، والتطلع للارتياد والاستكشاف، الأمر الذي ساعد على صب الخلفية بالمعطى العصري، فلم يتعكر بصدأ السنين، ويتثقل بالتركات(٣).

استدعى آل سعود تاريخهم عبر أدواره الثلاثة بروحانية عبقت في النفوس، وثورة تعمقت بالإصلاح والتلاحم، وجعلوه ينبض بالثبات على القيم والمواقف، والعزم والأمل، ومقاومة التدخلات والعصبيات، والتحرك فكرياً وعضلياً لحشد الطاقات، واستثمار الإمكانات، وتجنيد المواهب والقدرات، وشحن الحياة برسم خط بياني تتصاعد فيه مختلف النهضات.

أبعدوه عن الرتابة بالمواجهات والاستجابات، والمواصلة والتواصل، ومطابقة الأقوال للأفعال، ومحاربة الانحرافات الدينية، والآفات الاجتماعية، ومراعاة احتياجات المواطنين، وتقوية الشعور بالمواطنة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أولاً: المنطلقات:

عنيت السياسة السعودية بجميع أدوار الحكم السعودي ثلاثة منطلقات قعَّدتها بعد إخصابها بالتجربة الطويلة، والحرص على الثوابت، ومعرفة مستلزمات البلاد، ومطالب أهلها، ومتابعة المتغيرات، والتزامها بمبادئ نمَّت الإيمان بها، وحمتها بالقيم والمصداقية، فباتت هذه المنطلقات عقب استقرارها، وبلوغ النضج، منهجاً للحكم واضحة معالمه، ومحددة أهدافُه.

هذه المنطلقات انبعثت منها: فعاليات ثقافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية لم يحل تركيزها على الداخل دون تفاعلها الخارجي، ويحجب وعيها بقيمة الانفتاح على الآخر، والتعامل الذي تتحقق فيه الاستفادة، ولا تتوارى الذات بالتأثر الذليل، والأخذ الاعتباطي.

أ- المنطلق الروحي:

تنفرد المملكة العربية السعودية في عالمنا المعاصر بمسؤولياتها عن أقدس بقعتين إسلاميتين، وتمسكها بالإسلام عقيدة، ونظام حياة، وحضارة، واهتمامها بالشأن الإسلامي تعميراً للحرمين، وتسهيلاً للمسلمين في أداء مناسكهم، وتأمين سلامتهم، ومساعدتهم مادياً ومعنوياً.

والمملكة دولة مؤسسة على الإيمان، ونقاء العقيدة، وقد اكتسبت عراقة وثقة، تجذرت فتزايدت قوتها وتنامت مناعتها، ورسخ الإصلاح بفكر ولاة أمرها، ومن حسن طالعها دعم نهضتها المعنوية بثروة طبيعية وُجِّهت لتلبية حاجات الإنسان العقلية والبدنية، واستكمال البنى التحتية.

ابتدأ التاريخ السعودي بانتفاضة روحية استهدفت القضاء على الفكر الخرافي، وسيطرة الجمود(٤)، ونفوذ المشعوذين، نتيجة ارتكاس المسلمين بالتخلف والضلالات(٥)، على أثر أفول الحضارة العربية الإسلامية، ومن المؤسف أن العثمانيين الذين صارت الخلافة فيهم، ودخلت البلاد العربية بحكمهم، كرسوا التخلف بالترويج للبدع والدروشة، وبعزلها عن العالم إن بقصد أو بغير قصد، ولأسباب ذكرها مؤرخون لا نستطيع نفيها أو إثباتها، ومنها: أن الأتراك

بطبيعتهم لا يولون الحياة العقلية اهتماماً فاستعصى عليهم التحضر[٦]، ولعل هذا السبب -إن صح- أضعف مقاومتهم للتحدي الغربي فصاروا محل مساومات، وألعوبة بأيدي الدجالين[٧].

وأيضاً تعصبهم للقومية الطورانية في عهد الاتحادين الذي قوبل بردة فعل عربية، وقد قيل: إنهم خشوا من استنارة العرب حتى لا يعوا مكانتهم الحضارية، وأحقيتهم بالخلافة[٨].

حركة الإصلاح الديني[٩] التي ظهرت بوسط الجزيرة العربية، جاءت متناسبة مع بيئتها، وقد رأى مؤسسها أن فساد العقيدة يفسد كل شيء، وصلاحها يصلح كل شيء[١٠].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد توصل الشيخ محمد بن عبدالوهاب لجوهر الإسلام الذي كاد يضيع بين الانحطاط الفكري، والمسلك الصوفي المتخدر بحلقات الدراويش، ومباخر المشعوذين، وهلوسات الضحايا المخدوعين، واستطاعت دعوته أن تهيئ العقول والنفوس للوحدة، وتؤسس قاعدة شعبية للحكم السعودي الذي لا يجد نفسه إلا بعمقه الإسلامي، وفي أحكام الشرع وأوامره ونواهيه، وحماية مقدسات المسلمين، واحتضان المضطهدين منهم، والدفاع عن قضاياهم، والعمل على إظهار الإسلام بالصورة التي تعكس حقيقته كدين يدعو للتسامح، والرحمة، والعلم.

كانت هذه الدعوة إرهاصاً لنهضات فكرية وسياسية ووطنية شملت العالم

الإسلامي الذي ثار على محتليه[١١] ومستغليه من العملاء، وذوي النفوس الضعيفة، والمستفيدين من المناصب، وما يجري من الأوقاف، ونذرة النذور[١٢].

ب- المنطلق الوطني:

بيئة المناطق التي تكونت فيها المملكة العربية السعودية أفرزت عزلة طويلة تبعها: شح، وجهل، وعصبية، وطمع، وفرقة، فتوزعت بين زعامات صغيرة ضيقة الأفق، فاضطربت أحوالها، وسادتها القلاقل، وعمها الانقسام، ولكن استجابة السعوديين للتحدي الصعب للقوى الدينية، الجاهلة، أو المستفيدة من الجهل، والاجتماعية المنشغلة بنفسها، والسياسية القاعدة مفهوماتها[١٣]، ذوب الفروقات المفتعلة، ووحد الجهود، وأوجد تقبلاً اجتماعياً، وشعوراً موحداً تحدوا به دولة السلطنة العثمانية التي خرجت بالخلافة عن خطها، وأطماع محمد علي، ودعاة الفتن، فتماسكت الجبهة الداخلية، وتأسست روح المقاومة، وإن بدا الصراع واضحاً بالدور الثاني لحكمهم بين خلفاء الإمام فيصل بن تركي الذي مهد سبيل ابن رشيد لحكم نجد، فقد تسبب غياب الحكم السعودي عنها بفراغ سياسي ملأه مؤسس حكمهم بدوره الثالث؛ لأنهم ظلوا يعيشون في الوجدان الشعبي رمزاً لجهاد ووحدة، وأمن واستقرار.

لقد زاد الملك عبدالعزيز المفهوم الحديث للدولة الذي به تخطى الحواجز الإقليمية والقبلية، بعدما مكنه إيمانه وعدالة مطالبه، وصموده بوجه التحديات، ومهاراته القيادية، واعتباره من أخطاء الماضي، وذكاؤه، ومضاء عزيمته، والتفاوض باقتدار، والانتصار في ساحات القتال، من أن يتخلص من كل

الإحراجات التي اعترضت سبيله، وينجح في الاختبارات التي مر بها.

وإذا كان لسحر وقوة شخصيته وهيبته دور في الانجذاب إليه، والانبهار به، فإنه بفكره ووعيه سبق عصره، وبإنسانيته وجوده وتواضعه وإصلاحاته دخل القلوب.

ج- المنطلق الحضاري:

في المناطق التي تألفت منها المملكة العربية السعودية، شبح البيئة، ووحشة الحياة، ووعورة المسالك، وتباعد المسافات، وخطورة الترحال، ومتاعب الطريق، أدت إلى إهمالها زمناً طويلاً، وبالتالي صعوبة نشوء حياة مستقرة في المناطق الداخلية، وحدت من حركة المناطق الساحلية حتى إبَّان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، نجد مثلاً منطقة نجد على حالها بالجاهلية لبعدها عن مواطن الحضارة، وعدم وقوعها على منافذ بحرية تصلها بغيرها، وهي منطقة خالية من الأنهار، وتندر فيها الأمطار، فصارت ملجأ لطريدي العدالة، والعابثين بالأمن(١٤).

وإلى الأيام التي سبقت النهوض بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كانت البادية -رغم إيمانها بالإسلام- تجهل تعاليمه، والحواضر معظمها غير ملتزمة بأصوليته، وإن كانت لم تبلغ ما بلغته غيرها في البلدان الإسلامية الأخرى، نظراً لبساطة الحياة في نجد، وسيادة المذهب الحنبلي المعروف بميله للتبسيط، وبعده عن التعقيد، فقد ظلت الرسوم، وأنماط الحياة مثلما كانت عليه في الجاهلية عدا ما أدخله الإسلام على المفاهيم، وحض على الفضيلة، شابه انحراف تمثل ببعض الممارسات الخاطئة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومع أن الحجاز كفل قداسته اهتمام المسلمين به، وصلة بمراكز الإشعاع، وتفاعلاً لتنوع سكانه، وتردد المسلمين عليه لخصوصيته الروحية، وتمسك الحجازيين بالإسلام أكثر من غيرهم لنشأته ببلدهم[١٥]، كان يعاني من شح الموارد، والاضطرابات الأمنية، والصراعات السياسية، وقد انطبعت معيشة غالبية سكانه بالتقشف، والمقيمون منهم في المدينتين المقدستين ومنافذهما كانت استفادتهم موسمية، وتعتمد على نشاط قطاع الطرق، والإحسان والتبرع، لم يوجها للإصلاح والتطوير، وتأسيس أطر حضارية، فتحولا سلباً على حياة السكان مع مضي الوقت، ولكنهم لم يركنوا للكسل والتواكل إيماناً بقيمة العمل، وتطلعاً لفرص تتاح، وقد حققها الحكم السعودي، فظهر معدنهم الأصيل إبداعاً فكرياً، وفعلاً حضارياً.

المناطق التي شملها الحكم السعودي سببت عزلتها، وقسوة بيئاتها، وشح مواردها تردداً، وحيرة فكرية، وحذراً في التعامل، مما أبطأ في استجابة سكانها للمعطى الحديث، وجعلهم إن أخذوا ببعض المتغيرات فعلى استحياء، حيث نرى أكثرهم يحومون حول موروثاتهم دون تمييز، ولكنهم من غير استثناء بالمقابل عوّدتهم قسوة بيئاتهم الطبيعية على الجَلد والإصرار، وعدم اليأس، وجبلتهم على الفطنة، والفروسية بكل ما يتبعها من شجاعة ونجدة، وقوة وعزيمة، واستعداد للمواجهة، وقد وسعت مساحات تفكيرهم، وعمقت وعيهم بمحيطهم.

ضغوط الماضي التي لا زال لها بعض السلطة على المجتمع السعودي ناتجة عما ألفه العالم الإسلامي في عصور الانحطاط التي توالت عليه، وكان التخلف قد تكرس، وإن كانت تلوح بوارق أمل بين حين وآخر، فالحقيقة أن دعوة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإصلاح الديني على الرغم من أنها كانت روحية خالصة، فمدها السياسي جمع شتات الجزيرة العربية. ونبه أبناءها بقوة الاجتماع، وضرورة مواجهة التحدي، وقد نتج عن الردود بين فقهائها ومؤيديها، وفقهاء معارضيها، والتماس الجانبين الأدلة من كتب التفسير والفقه والحديث، ونشر الرسائل العديدة، والكتب الكثيرة: حركة علمية نشطة أفاد منها العالم الإسلامي(١٦).

لقد رأى رواد النهضة العربية الحديثة أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، أنه حيال التحدي الأوروبي لا بد من محاربته بسلاحه، وكانت سابقة بالتاريخ الإسلامي، إذ لم يحدث أن رجع المسلمون لنماذج خارج الإسلام(١٧)، ولكن هؤلاء جعلوا في اعتبارهم بالدرجة الأولى إحياء علاقة المخلوق بخالقه دون وسيط(١٨)، بالإضافة إلى التفاعل مع المنظومة الحضارية الحديثة، لأن الإسلام يعمل على التنامي، وتأسيس المعرفة(١٩).

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أدرك هؤلاء أن العلم لا يستقيم حاله، ويدوم تناميه بلا إيمان، والإيمان الحقيقي هو: بالمعرفة اليقينية المتمثلة بالكتاب والسنة(٢٠)، وقد استلهموا من حركة ابن عبدالوهاب الجانب الروحي والفكري، المستهدف: تحرير العقول من التقليد والدروشة والغيبياب، والتخلص من سلطان الجمود، وهي العوامل التي مكنت الأجانب من السيطرة، وقادت للتخلف الثقافي، والتفكك الاجتماعي، والتجزئة السياسية.

توصل النهضويون إلى هذه النتيجة بعد أن طرحوا أسئلة عديدة، منها(٢١):

أيكون العلاج بقبول حضارة الغرب أم برفضها؟ أهو بالتعامل معها كلياً أو جزئياً؟ ما الأسلوب الأمثل للإصلاح؟ أبالدين أو بالعلم. أو بهما معاً؟

وهكذا أجابوا على هذه الأسئلة بعقد مصالحة بالاستلهام من الدعوة السلفية التي نشأت بوسط الجزيرة العربية، فاعتبرت بهذا فاتحة النهضات العربية في العصور الحديثة، وباعثة اليقظة الإسلامية(٢٢)، والاختيار الذي لا يخل بالأسس، والتأثر الهاضم.

ثانياً: الأهداف:

كانت المنطلقات التي حددها الحكم السعودي في أدواره الثلاثة سعياً لتحقيق أهداف روعيت فيه الأسس التي قام عليها، والمستجدات التي يأتي بها الزمن، وإن اختلفت تصورات حكام كل دور عما سيكون عليه شكل المتغيرات، وتفاوت حماسهم بشأنها. ربما بسبب سرعة إيقاع الحياة الناتج عن التطور الذي قدره الله للإنسان في أن يبدع، ويضيف على إبداع من سبقوه، وهذا معناه: أن اللاحق يزيد على ما أبدعه السابق. أو التحفظ الناتج عن: الحرص، وما كانت عليه حياة المجتمع ومحدوديه الاحتكاك وبطء التغير، ولكنهم جمعيهم استجابوا للتحدي، واتخذوا من المنطلقات السالف ذكرها سبيلاً للوصول إلى الأهداف التي رأوا ضرورتها لحماية الكيان، وتحقيق الذات، وتعميق المفاهيم وإنضاج الوعي، وتوفير الاحتياجات.

أ- هدف وطني:

ما نراه ونعيشه في المملكة بقدرة الحكم على تطويع المستعصي، وتسهيل

الوعر، وتخطي الصعب، والثبات، والتحرك بالتجديد، وتدارك الأخطاء، ومراعاة التوازن، ودعم وضبط مسارات التنمية، وتجنيد الإمكانات للصالح العام، هي: حصيلة جهاد دام قرنين ونصف القرن ضد دعاة التشرذم، والفتن، والمستفيدين من الانحراف والعمالة. ووحدة حققها رجل قتال وحوار، تحمل كافة المسؤوليات، يثبت على أصالته من غير أن يمنعه ذلك من التعامل مع الجديد.

الوحدة تبعها اندماج ألغى الفوارق، وأحل الولاء لوطن دون إذابة حب العشيرة والإقليم، وكتل الجهود المبعثرة، وبها تكونت شخصية الدولة، ووضحت معالم التعاون، وانتظمت شؤونها بعدما رسمت سياستها الداخلية والخارجية، وعينت اللوائح التنظيمية والحقوق والواجبات، ووزعت السلطات والمهام[٢٣].

ضبط الحكم السعودي الأمن فسلكت دروب الحج، واطمأن الناس، وأولى التعليم عناية خاصة، وراعى في الإصلاح الأولويات رغم معاناته من شح الموارد، واحتياج البلاد له في كل مرفق من مرافقها، غير أن عجلة الإصلاح لم تتوقف، وبعد أن اكتشف النفط خرج الاقتصاد من النظام المغلق المعتمد على الجهد الفردي بهدف سد الحاجة اليومية، واتجه للتصنيع الوطني والبرامج التنموية، ووضعت من أجل تحقيق التكامل بين مختلف القطاعات استراتيجية قائمة على التخطيط العلمي، هدفها تعميم النفع، وتنمية الدخل، وتأسيس أطر حضارية، وجعل الصناعات بشقيها: الثقيل والخفيف متفاعلة مع المعطيات، وتوظيف التحويلية منها في مدينتين ترابطت بهما مشروعات شرق البلاد بغربها[٣٤].

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في المجال الزراعي أخصبت التربة بالمكننة، والوسائل الحديثة، وبعد أن تم التغلب على الجفاف نجحت التجارب لزراعة القمح[٢٥]؛ ومدت الطرق السريعة التي ربطت أجزاء المملكة، وأقيمت الجسور، وشقت الأنفاق، وأصبحت الخطوط الجوية تضم أكبر أسطول جوي بالشرق الأوسط، والسكك الحديدية نافس تجهيزها تجهيز الدول المتقدمة، ووسعت الموانئ وعمت الاتصالات، والخدمات الكهربائية، واستفاد المواطنون من مشروعات المياه وتحلية البحر، وعولج التضخم، وقضي على أزمة السكن، وقدمت القروض والإعانات، وبرز دور القطاع الخاص.

قفز الحكم السعودي بالتعليم قفزة نوعية وكمية، فانتشر بمختلف مراحله، وتطورت مناهجه، ورسمت سياساته، ووضعت الحوافز، وهيئت المناخات للإقبال عليه، وتأسست النوادي الأدبية والجمعيات الثقافية والفنية، ومراكز البحوث والدراسات، إيماناً منه في أن الثقافة بكل أنواعها أصل النهضات، والأساس المكين للكيانات، وهذا الاهتمام البالغ بالثقافة هو الذي حفظ الحياة الاجتماعية من الاختلال والآفات، التي - عادة - تحدث في مراحل الانتقال، والتغيير، والتحولات الاقتصادية والحضارية.

وحرصاً على أمن المواطن والمقيم والزائر، وسلامة الوطن، وقوة الكيان، وتأكيد أهميته، حُدِّثت الأجهزة الأمنية، ودعمت بالإمكانيات التي رفعت أداءها، وضُبطت بالتنسيق، وتحديد المسؤوليات، وطُورت القوات المسلحة، وزودت بأحدث الأسلحة، وازدادت كفاءة الحرس الوطني، وارتقى أفراده، وتعمق وعيهم بأداء الواجب.

وبصدور أنظمة الحكم والشورى والمناطق نشأ الإحساس بضرورة الاستجابة للتحدي، بعد أن تسارعت الأحداث، وتوالت المتغيرات، وتعقدت العلاقات بين الأمم، وصارت الحياة الاجتماعية مركبة.

ب- هدف إسلامي:

حال استعادة الملك عبدالعزيز حكم أسرته، أحيى المجالس العلمية، وخصص وقتاً للعلماء للتشاور في شئون الدين والدنيا، ومناقشتهم في الوسائل التي تساعد على نشر العلم، وبادر بطبع أمهات الكتب الإسلامية بالهند ومصر[٢٦]، وأسس هيئات الأمر بالمعروف لضبط المسلك، وحماية القيم، والدعوة للصلاة وقد روعي في منسوبيها صفات الورع، ودماثة الخلق، ومراعاة الحسنى، وهي الآن مؤسسة رسمية كبرى ذات شخصية اعتبارية تَعاقَبَ على رئاستها علماء مشهود لهم بالصلاح والتواضع.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولأن المسلمين يجتمعون على الإسلام لا على المذاهب، وحَّد الملك المؤسس صلواتهم بالمسجد الحرام بعد أن كانت تقام خلف المقامات الأربعة حسب المذاهب الفقهية، ودعا لمؤتمر إسلامي عقب دخوله الحجاز ليتدارس المسلمون أوضاعهم التي لم تكن مناسبة. ورغم فشل هذا المؤتمر، تجاوز بمضيه تحمل المسؤولية الجسيمة من منطلق إسلامي، وفكر مصلح بعد اختيار الحجازيين له ملكاً، خوفاً على الحجاز المقدس الحر المستقل الذي لم تنقطع صلته بنجد حتى لا تكاد تكون بينهما فروقات، خوفاً عليه من التغريب، ووصاية بلدان مغلوبة على أمرها، لا تجانس بينه وبينها، بعيدة عنه ثقافياً وجغرافياً، وهذا المؤتمر رغم ما

بدا في حينه فشلاً، كان الدافع لمضاعفة الجهود، وتكثيف الاتصالات، وبدء وعي إسلامي عقب محاسبة الذات، ونيل البلاد الإسلامية استقلالها، حيث بدأت رغبة لتحرير القيم الاجتماعية والثقافية من التبعية، وإقامة كيان سياسي واقتصادي لها، فانتظمت المؤتمرات الإسلامية التي نتج عنها بعدما وجدت لغة مشتركة، وكان للمملكة الدور الأكبر بدعمها المادي والمعنوي، وفي مبادراتها لمواجهة الطروحات المخالفة للإسلام حينما نادت بالتضامن الإسلامي [٢٧]. وقام الملك فيصل بزيارات للعديد من الدول الإسلامية، نتج عنها إنشاء صندوق، ومن ثم بنك إسلامي، وقيام منظمة للمؤتمر الإسلامي، تتفرع عنها لجان، ومؤسسات متخصصة، ومرجعية إسلامية هي: رابطة العالم الإسلامي، ومجمع للفقه الإسلامي، ومنظمة إسلامية للتربية والثقافة والعلوم «إيسيسكو».

مما أسفر عن: تفاهم سياسي، وتعاون اقتصادي، قرّب الدول الإسلامية لمواجهة ما تقوم به إسرائيل [٢٨].

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاقت المملكة غيرها في تقديم الإعانات للمسلمين، ومساعدة الأقليات المسلمة، وإنشاء مراكز إسلامية بالعالم، وإعمار المساجد، والاهتمام بالدعوة، وتفقد أحوال المسلمين، وجذب غيرهم للإسلام، وتطبيق الشريعة، ورعاية المقدسات وخدمتها، واحتضان المضطهدين، والدفاع عن قضاياهم في كل مكان، والعمل على إظهار الإسلام بالصورة التي تعكس حقيقته، في أنه دين محبة وتسامح ورحمة وحضارة.

ويومياً يتزايد اهتمامها بالشأن الإسلامي، وتطور فعالياته، وقد فعلت ذلك

في مؤسسات، منها: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، الذي تظهر طباعته على أفضل صورة، وفي أحجام متعددة، وقد ضبطت حروفه، وسجلت تلاوته بأصوات أشهر القراء، وتوزع نسخه مجاناً في الداخل والخارج.

وتصدرت المملكة الدول الإسلامية في التعليم الديني قياماً بدورها، ونهوضاً بالعقيدة، وحرصاً على لغة القرآن الكريم، حيث ركزت عليه بالتعليم العام، وعممت جمعيات تحفيظ القرآن، وأكثرت من المساجد في المدن والقرى والمعاهد العلمية، وأنشأت الكليات والجامعات المتخصصة، وألزمت الوزارات والمؤسسات والشركات بالتخاطب باللغة العربية، وحظرت تسمية المحلات التجارية والمواليد بأسماء أجنبية، فأغنت روافد الفكر الإسلامي، وأنارت العقول بقيمة العقيدة، وأبانت ما يمثله اللسان العربي في حياة كل مسلم، ومن الجميل أن يبلغ تأثير ذلك جميع الدول الإسلامية، وتنتفع به كل الجاليات والأقليات الإسلامية في شتى أنحاء العالم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واتباعاً لمنهج السلف الصالح، وتشرفاً بخدمة المقدسات، وبغية تهوين المصاعب على المسلمين، وتيسير تقاربهم، خاصة بعد أن نالوا حريتهم، واستقلت أقطارهم، وتكاثرت أعدادهم، واصل خلفاء الملك عبدالعزيز عمارات وتوسعات الحرمين إلى أن جاءت النقلة النوعية في إعادة صياغتهما كماً وكيفاً، فتجاوزت عمارتهما وتوسعتهما من الداخل والخارج، والتقنية والسعة والتزيين والزخرفة، وتناسق الألوان، وتناسب التصميم والمعايير الفنية والمهنية التي نفذت فيهما ما كان، ويبدو أنه سيطول الوقت كثيراً قبل احتياجهما للمزيد، للشمولية والإتقان، وانسيابية الحركة، ولاكتمال الخدمات، وتوافر شتى التسهيلات، وتحقيق التكامل

وبأخذ المشاعر المقدسة في الاعتبار، ومراعاة التطور العمراني والنمو الاقتصادي والنسيج الاجتماعي(٢٩).

وحتى لا تتأخر كسوة الكعبة عن موعدها، أو تكون عرضة للتقلبات السياسية والأهواء الشخصية، قرر الملك المؤسس صنعها بمكة، فظهرت أحسن صناعة وأجمل زخرفة، وحدث مصنع الكسوة في عهد الملك فيصل مرتين، وفي عهد الملك خالد افتتح الملك فهد حينما كان ولياً للعهد العام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م أعظم مصنع لها عبر التاريخ(٣٠).

إن الإحساس بالذات من غير انغلاق، والثقة بها بلا غرور، والاعتماد عليها بعد الله، إلى جانب تعاونها، يؤهلها لنيل مبتغاها وجني ثمرات جهدها، وعلمها، والحكم السعودي التزم بذاته، ولكنه انفتح على الآخر، ووثق بها، ولم يتغير، واعتمد عليها، ورأى أن التعاون من ضرورات الازدهار.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا لم يشأ الملك عبدالعزيز ربط مصير الحجاز بغيره، ويرهق الحجازيين بالضرائب، ويجعلهم يعتمدون على المواسم الروحية والتبرعات، حيث عودهم حكامهم السابقون على ذلك دون أن يقوموا بإصلاحات تذكر، ويقدموا خدمات عامة، أو يحافظوا على النظام والأمن، فانطبعت حياتهم بالاضطرابات، وعدم ثبات مصدر الرزق، وإرهاقهم بالضرائب.

ج- هدف عربي:

في أعقاب طرد العثمانيين من منطقة الأحساء، كان عبدالعزيز قد ظهر ظهوراً عسكرياً وسياسياً، ولم يستطع الإنجليز ثنيه عن حائل، فوضحت نزعته

الاستقلالية، وتطلعاته الوحدوية، وآراؤه الإصلاحية، ومواهبه وقدرته، حيث اتجه إليه أحرار الأمة العربية، وبعد أن شمل حكمه معظم أجزاء جزيرة العرب، بات سيد الجزيرة بلا منازع[٣١]، الأمر الذي ساء بريطانيا بعد أن قامت دولة عربية كبرى خشيت أن تؤثر على الدول الواقعة تحت نفوذها، فحاولت إقامة دولة مماثلة باتحاد دولتين تحكمهما عائلة واحدة ذات استقلال صوري ولكن بغيتها[٣٢] اصطدمت بقيادات عربية فاعلة أحبطت مخططها، وطالبت عبدالعزيز بأن يعيد تكوين إمبراطورية عربية[٣٣] فلم تشأ تثوير المشاعر العربية ضدها مرجئه مشروعها إلى أن يحين الوقت المناسب، غير أن الرياح أتت على غير ما تشتهي.

المملكة أول دولة أكدت عروبتها بالمسمى، وتكاد تكون الوحيدة التي حافظ حكامها على الأداء السياسي العملي، فلم تتأثر بالشعارات المستهدفة تهييج الدهماء، ونزيف الوعي، أو تتناقص بالإيدلوجيات، وتنقسم بالتحزبات، وتتعذب بالقافزين على السلطة، وتتراجع بالصراعات، وتهدر مواردها على التخريب، وتضطر العقول للهجرة.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن المملكة درع العروبة ماضياً وحاضراً، وستظل كذلك، ليس فقط لكونها جزء من الأمة العربية، وتحتل المساحة الأكبر والأعظم والأهم من مهد العرب، وعضو مؤسس بجامعة الدول العربية، وإنما لكون قادتها ألهبوا شعبهم بالحماس، وحموهم بالإيمان، والقوة، والمواطنة، والمواهب العقلية والسياسية، وحققوا وحدة عربية، وتضامناً إسلامياً، ودعوا للعمل المشترك.

سبروا طبيعة كل عصر، وعرفوا مسارات النهوض، وسلكوا دروب التعاون، وراعوا صلات الرحم، وحقوق الجوار، وهم ملوك بمشيئة الله الذي اختارهم سبحانه بقوة إيمانهم به، وتطبيقهم لشرعه، ومراعاتهم للعدل ومطالب شعبهم.

إنهم دعاة وحدة عربية تتماسك بالعقيدة، ونضج الوعي، والتكامل الفكري والحضاري، والتمسك بالأصالة والمعاصرة، وارتفاع المفاهيم، وثراء الأفكار، وعدم إفساد الود بالاختلاف، وقد ناضلوا منذ فجر نهضتهم لتحرير العرب بثورتهم ضد العثمانيين، ووقوفهم بوجه أطماع محمد علي، وبفعل عبدالعزيز الوحدوي، وانشغاله بالقضية الفلسطينية حين عارض الاحتلال البريطاني لفلسطين، وتابع تطوراتها، وقدم المقترحات التي لو أخذ بها العرب لما ضاعت، وفي استقباله لزعمائها ومساعدتهم، والدفاع في المحافل الدولية، وإنذاره القوى الكبرى من مغبة ما يخططون له، ومشاركته بالحرب العربية الإسرائيلية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واستمرت الجهود السعودية والأفعال في الدفاع عن القضايا العربية، والعمل على الوفاق الدولي، وإجبار القوى العظمى على العدول عن تجاهل الحق العربي، ومن هذه الجهود والمواقف التي لا حصر لها موقف الملك سعود المضاد للأحلاف الهادفة لتفريق كلمة الدول العربية، وصمود الملك فيصل بوجه الإيديولوجيات الوافدة، والأنظمة المنقطعة الجذور، وكشفه زيف الشعارات التي لم تتبين الجماهير العربية حقيقتها إلا بعد أن توالت النكسات، وتتابعت المآسي، وإعادته الثقة للأمة العربية بالحكمة والدعم في مؤتمر الخرطوم عقب نكسة ١٩٦٧م[٣٤]، ودوره الرئيس في نشوء الكفاح الفلسطيني المسلح وقيام منظمة التحرير، وقد أدت ضغوطه في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣م بإيقاف تصدير

البترول إلى العدول عن تأييد إسرائيل، وأعلن الجهاد المقدس، وجاهر بعدائه لليهود، وأنكر ادعاءاتهم بفلسطين، واستطاع أن يحد من اندفاع بعض الدول بتعاونها مع إسرائيل، وينهي الحرب الأهلية باليمن، وبرز تأثير الملك خالد بالتنسيق بين الدول العربية والإسلامية، وبمعاونة ولي عهده الأمير فهد بن عبدالعزيز تكثف التعاون بينها، وجرى التدخل لوقف القتال بلبنان، والحرب بين العراق وإيران، واحتواء الخلاف حول قضية الصحراء بين الجزائر والمغرب، وإنهاء ما بين سوريا والعراق على مياه نهر الفرات[٣٥].

أما الملك فهد فتأثيره في السياستين: الداخلية والخارجية كان واضحاً منذ أن كان وزيراً للمعارف. وعربياً عمل على تصفية الأجواء بين الأشقاء، ودعم دول المواجهة، ونضال الفلسطينيين، وعمق الإخاء العربي ومفهوم التواصل بين الأقطار العربية، وبمشروعه للسلام في الشرق الأوسط، حدد الأسس التي يقوم عليها[٣٦]، وهي التي مهدت المنطلقات التي اعتمدتها الدول العربية الراغبة بالسلام العادل الذي يحفظ الحق ويعيد الأرض، وكانت دعوته للزعامات والقيادات اللبنانية للتفاهم قد أسفرت عن معاهدة الطائف التي أنهت الصراع اللبناني، وأعادت للبنان السلام وأيامه السعيدة.

د-هدف إنساني:

درج الحكم السعودي على سياسة إنسانية معمقة بروح الإسلام، ومنبعثة من تعاليمه، وقد امتلك بالموهبة والفكر، والكفاءة العالية، وبالمصداقية والعدل تأييداً شعبياً، وبالتجربة والنضال عراقة، وبالثقة والإيمان قوة، وبعدم التدخل في شؤون الآخرين، والتسامح والعمل على التقريب بين الأمم احتراماً، وبالمبادىء ومواجهة التحديات هيبةً.

يتفاهم ولا يساوم، ينصح ولا يتبع، ويتعامل بندية ويراعي المشاعر ويشارك بمداواة النفوس والأوجاع والتخفيف من معاناة الجياع والمظلومين سواء بالعمل أو العون أو التنسيق مع المنظمات الإنسانية والجمعيات الخيرية.

لقد ساهمت المملكة في إقرار السلم العالمي وتصفية الاستعمار والتوسط لإصلاح ذات البين من خلال فعل عبدالعزيز الوحدوي الذي حقق السلام في المناطق التي كونت دولته ولقاءه بروزفلت وتشرشل، وتأسيس هيئة الأمم المتحدة، ومحاربة التكتلات والأحلاف والدور الذي قامت به في تحرير الشعوب والوفاق بين الدول وحماية الصغرى من الكبرى، وأبرز مثل على ذلك: أدت مشاركة المملكة بوفد ترأسه الأمير فهد بن عبدالعزيز النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية في المباحثات التي عقدت بلبنان (١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م) حول أقطار الخليج العربية إلى تقرير مصيرها بالشكل الذي حفظها من أي ارتباط قد يحد تحركها وتمام استقلالها، والمثل الآخر البارز أو الأبرز كان نتيجة قرار الملك فهد بضرورة إخراج النظام العراقي من الكويت حتى لا تكون سابقة يستمرؤها ذوو النفوس الضعيفة، والطغاة الذين لا يأبهون بالعدل ولا بوشائج القربى والقيم الإنسانية أو يراعون حق الجار أو ما يقابل به صاحب المعروف.

فكان قراره درساً لهؤلاء وضربة أحبطت الطامعين وأدبت المتواطئين، *والأهم أنه جنب الخليج كارثة كادت تعصف بنهضته وتقضي على تأليف أبنائه،* وأوضح لكل العرب كيفية التعامل مع الأزمات، ومن ثم حال دون قيام صراع نتائجه وخيمة على العالم.

وبعد: فالعلاقة بين الملك وولي العهد وأعضاء الحكومة وكل المسؤولين

ومختلف الفعاليات وأبناء الشعب علاقة تتكامل بالإيمان والإصلاح والمحبة والثقة والتواضع والعمل والخبرة والوعي طوال تاريخ الحكم السعودي؛ لأنها مؤسسة على العقيدة والأخلاقيات والوفاء بالعهد والعدل.

الهوامش والتعليقات

(١) قسم التحدي ثلاثة أقسام: التحدي الصعب، ويحتاج لقوة عظيمة، وثقة لا تنتهي وذكاء غير عاد، ووعي ناضج، ومثابرة لا يشوبها الكلل.

والتحدي الوسط: والاستجابة له تحرز بقليل من القوة والثقة، وببعض الذكاء، وشيء من المثابرة.

والتحدي السهل: وبخانته تقع الأمم الخاملة، لأنه لا يستدعي استجابة، طالع تفصيل نظريته (التحدي والاستجابة) في كتابه (دراسة في التاريخ).

(٢) انظر الملحق الخاص بآراء الفلاسفة في (التاريخ) بكتاب: النقد التاريخي، ترجمة: د. عبدالرحمن بدوي، رأي (بول فالري) القاهرة ١٩٦٣م. ص ٣٠٥.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٣) The New Book Of Knowledge (Grolier Incorporeted) U.S 1970 V.H.8.P.138.

(٤) د. محمد عابد الجابري: فكرة ابن خلدون: العصبية والدولة، (دار الشئون الثقافية بوزارة الثقافة والإعلام العراقية، بمشاركة دار النشر المغربية) د.ت، ص١٧.

(٥) حسين بن غنام: روضة الأفكار .. أو تاريخ نجد، حققه وحرره د. ناصر الدين الأسد، (المؤسسة السعودية بمصر)، الطبعة الثانية، ١٣٨٠م، ١٩٦٠م، ص١٠.

(٦) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية: الأتراك العثمانيون، نقله للعربية: نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي (دار العلم للملايين) الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٦١م. ج٥ ص ٤٤١ وما بعدها.

(٧) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية (دار العلم للملايين) بيروت ١٩٦٠م، ص٤٥.

(٨) زين نور الدين زين: نشوء القومية العربية (دار النهار) بيروت، ١٩٦٠م، ص ٤٥.

(٩) أطلق خصومها عليها تسمية (الوهابية) وهي منسوبة لوالد الشيخ محمد، للإيحاء بخروجها

على الإسلام، وإن لا بأس بذلك من الناحية اللغوية، ولا تختلف عن نسبة الحنبلية لابن حنبل وغيره من أئمة المذاهب السنية حتى إن بعض مؤيديها اعتمدوا هذه التسمية في كتاباتهم أمثال: سليمان بن سحمان: الهدية السنية والتحفة الوهابية، وعبدالله القصيمي: الثورة الوهابية، ومحمد رشيد رضا، الوهابيون في الحجاز. انظر: د. عبدالله الصالح العثيمين، بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية (مطابع الهلال للأوفست) الطبعة الأولى، الرياض ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص ١١-١٢.

هذه التسمية لم تعد مقبولة، سواء من أتباعها أو من المسلمين الذين عرفوا حقيقتها، وآمنوا بما دعت إليه، وإطلاقها ببعض الكتابات يعود لاشتهار الدعوة بها ضمن السياق التاريخي، وليس للإساءة أو التشكيك بصواب ما نادت به.

(١٠) أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث: (مكتبة النهضة المصرية) الطبعة الرابعة ١٩٧٩م، ص٥٦.

(١١) علي محافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٨٩-١٩١٤م (الأهلية للنشر والتوزيع) بيروت ١٩٧٩م ص ٤٠.

(١٢) د. جلال يحيى: مدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث (دار المعارف بمصر)، الطبعة الثانية، ١٩٥٩م. ص ٢٣.

(١٣) ألبير حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩-١٩٣٩م (دار النهار)، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٧م ص٥٨.

(١٤) عبدالله السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي ١٤٠٣ ص١٠.

(١٥) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة منير بعلبكي، (دار العلم للملايين) الطبعة الأولى، بيروت ١٩٦٠م ص٧٣.

(١٦) طه حسين: ألوان (دار المعارف) الطبعة الخامسة، د.ت.ص ٤٥.

(١٧) هشام شرابي: المثقفون العرب في عصر النهضة (دار النهار)، بيروت ١٩٧١م، ص ٤٣-٤٤.

(١٨) د. برهان غليون: فلسفة التجديد الإسلامي، (جريدة الشرق الأوسط، العدد ٤٠٦١ في ١٤١٠/٦/١٣هـ، ص ٨.

(١٩) محمد أبو القاسم حمد: التأسيس القرآني، نفس المرجع، ص ٨.

(٢٠) علي مدكور: الإسلام ليس فلسفة وله تصوره الخاص، جريدة الشرق الأوسط العدد ١٠٥٣، الثلاثاء في ١٩٩٠/١/٢م. ص١٠.

(٢١) حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر، (مركز دراسات الوحدة العربية)، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٦م ص٣٩٨.

(٢٢) يكاد يجمع المؤرخون على ريادتها، وإن وجد بينهم من رأى أنها لم تولِ الجانب الدنيوي اهتماماً، ولكن إذا دققنا النظر نجد أن الدولة التي نهضت بها قضت على التجزئة، وأحدثت شرخاً بالتاريخ العثماني، وقاومت الغزاة، وفضحت مخططات محمد علي.

(٢٣) انظر في هذا الموضوع: أعداد صحيفة أم القرى، الصادرة بين عامي (١٣٤٥-١٣٤٦هـ/١٩٣٦-١٩٣٧م) إضافة إلى: خير الدين الزركلي: شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز (دار العلم للملايين) الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧ ج١ ص٣٥٣، وعبدالله الزامل: أصدق البنود في تاريخ عبدالعزيز آل سعود.(المؤسسة التجارية للطباعة والنشر) الطبعة الأولى ١٣٩٢-١٩٧٤م ص٢٠٥ وما بعدها، وفؤاد حمزة، البلاد العربية السعودية (المكتبة الأهلية بالرياض) الطبعة الثانية ١٣٨٨/١٩٦٨. ص٨٥ وما بعدها و.Howarth, K.d: Ibin Saud and His Arabid. 1964.P.219

(٢٤) حسين الشرع: التطور الاقتصادي في المملكة العربية السعودي (دار العلوم للطباعة والنشر) ١٤٠٣هـ/١٩٩٣م ص٩٤.

(٢٥) انظر الكتيب الذي تضمن كلمة الملك فهد بالطلبة الدارسين بالخارج يوم الاثنين ١٤٠٤/١١/٢٣هـ الموافق ١٩٧٤/٨/٢٠م أصدرته وزارة التعليم العالي.

(٢٦) د. أحمد الضبيب: حركة إحياء التراث قبل التوحيد، مجلة الدارة (العدد الأول من السنة الأولى ربيع أول ١٣٩٥هـ/ مارس ١٩٧٥، ص٤٨).

(٢٧) Middle East Record (v.5) P.578

(٢٨) فاسيليف: فصول في تاريخ المملكة العربية السعودية (دار القضاء للطباعة والنشر والتوزيع) الطبعة الأولى ١٩٨٨م.ص. ٤٠٥-٥٠٥.

(٢٩) للتوسع في هذا الموضوع، ارجع إلى قصة التوسعة الكبرى نشر «مجموعة بن لادن السعودية».

(٣٠) نفس المصدر.

(٣١) أحمد حسين: مشاهداتي في جزيرة العرب. (مطبعة مصر) القاهرة، ص، ٤٥٦.

(٣٢) HUREWITZ, J.C: Diplomacyin The near and Midde east N.Y 1956.V2.P 16.

(٣٣) د. عثمان الرواف. نقلاً عن كتاب غسان سلامة: السياسة الخارجية السعودية. مجلة اليمامة (العدد ١٣٣٩) ص٢٦.

(٣٤) نجده، فتحي صفوة، هذا اليوم في التاريخ، الشرق الأوسط (العدد ٦٦٩، الصادر في ١٤١٧/١١/١٦هـ الموافق ١٩٩٧/٣/٢٥م) ص ١٩.

(٣٥) Middle east Record, p.568.

(٣٦) سيد محمد إبراهيم: السعودية (الهيئة المصرية العامة للكتاب) القاهرة. ١٩٧٦م. ص.ب ٥٩-٦٠.

(٣٧) فاسيليف: كتابه السابق، ص ٥٣٣.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحـصـــــاد ـ الفصل الرابع

* سليمان الحماد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابتهاج الزمن الصعب...

– وكان من عاداتهم على الموائد – أيضاً – أنه إذا ما نهض أحدهم عن الأكل نهضوا جميعهم معه في الحال، بغض النظر عن ماهية أو مقام الشخص الذي نهض أولاً.

من أجل ذلك تمهلوا وأخذوا في الدعاء للمولود عبدالكريم بالنشأة الصالحة والهداية، والبر بوالديه، وأن يتربى في عزهما ورعايتهما. ثم أخذ بعضهم يتبادل الكلمات التي تزجي الوقت، والبعض الآخر يتغامزون مشدوهين بنهم الشرهان وحبه الجم للأكل. وبعد أن انتهت الدعوات التي تعقب مناسبة كهذه، وما تلاها

من كلمات دون أن يشبع الشرهان أو (يكف) عن الأكل، نهض الهتيمي قائلا: أكرمكم الله وزادكم من خيره.

فنهض الجميع – على الفور– بما فيهم الشرهان، الذي وضع لقمته على السفرة وكان قد رفعها إلى فيه. فقال الميمون:

– كأني بك استعجلت يا هتيمي!؟

قال المشفوح:

– إن الميمون على حق فالشرهان لم يشبع بعد، لقد حرمته بقية أكله يا هتيمي.

– لو جلسنا إلى الليل لما شبع الشرهان، ولما قام من السفرة، وأنتم تعلمون هذا.

قال الشرهان، وقد خشي أن تصيبه عين المشفوح:

لقد شبعت.. هه.. انظر إلى بطني، امتلأت بطني وزيادة، ليتك نهضت عن السفرة مبكراً يا هتيمي، حتى لا أكثر من الأكل، لماذا تباطأت؟ إنك تريد أن أتخم، لأنك تكرهني، وتتمنى أن أموت، لماذا أيها الأعسم[1]، لماذا؟!

– ضحك «هتيمي» فيما اكتفى البعض ممن لم يغادروا السفرة بعد بابتسامة خفيفة.

قاطع موسى بن علي ضحكة «هتيمي» بقوله:

– يا لها من عادة ليست حسنة!

فعلق الشيخ حمود:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– نعم .. وإلا كيف ينهض الإنسان عن السفرة (ونفسه في الأكل) لم يشبع، إنه لا حياء في الأكل.

– كيف ينهضون نهضة رجل واحد ولو لم يشبع منهم أحد، أليس كذلك يا عم عزام؟

– فأومأ العم عزام «بمهفته السعفية» ولم يرد. لكنه أمسك بلحيته من تحت حنكه ورفعها ثم أطلقها وأحنى بصره فلم ير شيئاً سقط منها، فخلل ثلاثة من أصابعه من ممسك يده حتى آخر لحيته، فسقطت حبات من الأكل فرفعها ونفخها وقال: بسم الله اللهم زدها من نعمة ثم ابتلعها وعاد إلى مهفته يومئ بها ذات اليمين وذات الشمال.

وكعادته بعد كل مناسبة أراد المشفوح أن يمازح بعضهم مخوفاً إياه – بنظله[٢]– فاختار هتيمي لكونه أكثرهم جزعاً وخوفاً من الإصابة بالعين، برغم شجاعته وسطوته، حتى أنه ليقطع الفيافي مسافراً بمفرده في الليالي المظلمة، بل ويمر مع الطريق التي يتحاشاها معظم المسافرين شمالاً إذ تمر وسط شعيب الأسد. وشعيب الأسد هذا مظنة الوحوش والسباع التي كانت تأتي إلى شمال الجزيرة العربية وتنطلق من وادي السرحان ووادي الرمة إلى مثل هذه المنطقة، وقد كسب الرهان مرة حين مر بمقبرة الخراب ومشى مشية الخائف كما طلبوا منه ذلك، استعجل ثم وثب ثم مشى الهوينا ثم استعجل وصار يتلفت كالخائف ومع ذلك لم يهتز له جنان، ولم يصبه المس، كما ظن من تحدوه بالرهان، وعلى رأسهم «عثيم»، وكانوا يعتقدون أن الجن تتلبس الخائف حين يسير هكذا في الليل.

قال المشفوح:

- مازلت كما كنت في الأربعين، أ ك و.

فقاطعه هتيمي وقد بدا عليه الخوف: ماذا تريد أن تقول؟ بينما واصل المشفوح توصيفه، وكأنما هو لم يسمع:

- أكولاً نهماً لا تشبع «ثم ضحك وتابع» نشيطا لا تغلب، عداءً تستطيع أن تلحق بالذئب نهاش، وتمسكه من ذيله. قال آخر:

- ويومئ به كما نومئ بالمقلاع[٣] ثم يطلقه فيسقط بعيداً جثة كالخلق المغموس في الماء.

- نهاش؟! قالها هتيمي مندهشاً وخائفاً.

- نعم.. ليتك تمسك به فتريح الناس من شره!! فعلق آخر:

- لماذا لا تمسك به... هه.. لماذا؟ إنك تسابق الحصان ولست بالجبان.

- «ومن شر حاسد إذا حسد» اذكر ربك يا مشفوح - لا تصبني بعينك الناحسة.

- ماشاء الله، أراك خفت.

عندئذ، حاول هتيمي إظهار عدم اهتمامه أو تأثره، من تحدي المشفوح له، فقال برزانة مصطنعة:

- اليوم وقد كثر الخير ولله الحمد، أشبع ويشبع الطير، وتشبع أنت والشرهان.

– يشبع الشرهان!! كيف ولم أره مرة واحدة يقوم من السفرة وفي الماعون ما يؤكل.

ضحك البعض وعلق أحدهم:

– ليس إلى هذا.

قال الثاني – مقاطعاً –:

– وإذا كان الأكل في صينية والذبيحة «حاشي» هل يأكل الشرهان كل ما في الصينية؟

– في هذه الحالة يشبع الشرهان «لا شك».

وعاد الهتيمي إلى التعليق بقوله:

– ويشبع العم عزام، أليس كذلك يا عم عزام؟ وكان العم عزام يُشغل طوال الوقت «بمروحته السعفية» وتسمى بالمهفة، يهف بها على نفسه، وعلى الجالسين بجانبه، يومئ بها ذات اليمين وذات الشمال، ماداً يده، مائلا بجذعه محاولاً أن يوصل الهواء إلى الجالس الثاني عن يمينه، وإلى الثاني عن شماله، مع أن الوقت بعد العصر في العريش ليس حاراً، فالماء والأشجار والظل والنسيم عوامل تلطف الجو، وربما مالت به إلى البرودة، ولكن كانت هذه إحدى علامات الخرف الذي بدأ يظهر على العم عزام، وعن ذلك قال لهم الشيخ حمود: إن مثل هذا الخرف البسيط لا يستمر مع أكثر المصابين به دون الثمانين سنة، إذ لا يلبث أن يزول. وكان العم عزام قبل أن يصاب بالخرف من رواة سيرة وأشعار بني هلال، بل كان مرجعاً ويعتبر من الملمين بهذه السيرة الشهيرة، لذلك فإن

ردوده بعد – خرفه – ترتبط بشكل أو بآخر (بأبي زيد الهلالي). كإجابته عن سؤال «هتيمي»:

– أكلت في شبابي طعاماً، لم يأكله «أبو زيد» الهلالي سلامه، في زمانه، وشبعت.

قال هتيمي موجهاً حديثه للمشفوح: نعم كلنا نشبع، أما أنت فلك معدة مثل جهنم.

فعلق الخادم «صندل»: لعلك تقصد أكل البهارات الحارة، قال المشفوح: ولكني لا آكل ولا أحب أكل الفلفل أو غيره.

– كيف وقد زاد سواد بشرتك من أكل البهارات والفلفل.

– قال موسى بن علي: تقول إنك ولدت في الشهر السابع، لو تأخرت إلى التاسع لاحترقت.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ضحك أحد الحضور – كثيراً – وبصوت مسموع وملفت، أما البقية فلم يبتسم منهم أحد؛ فهم يعرفون هذه الطرفة، بل وسمعوها منه عشرات المرات، وتعرف فيما بينهم (بسالفة)[٤] موسى بن علي، فهو يقولها لكل ذي بشرة سمراء تنافر أو تهازل معه، وكانوا يظنون أنها من اختراعه وطرائفه، ولكن سيف بن سفيان أكد لهم أنه سمعها من عيّار البصرة، وعيّار البصرة هذا كان قد أقام ببلدة النخيل ستة أشهر حين مر مع ثلاثة من الدراويش الهنود، ويقول إنه شريدة قافلة قدمت من العراق للحج فاعترضهم قطاع طرق ونهبوهم وتفرقوا في كل اتجاه، فمات من مات ونجا من نجا.

وكان هذا العيّار من الناجين، فطفق يسعى في الصحراء على غير اتجاه ولا هدى، حتى صادف هؤلاء «الدراويش» المتجهين إلى الحج فرافقهم. و«العيّار» عندهم هو الشخص – خفيف الظل – الذي يلقي بالطرائف و«النكت» ويبدو مرحاً في كل حين.

وقد عرف الجد المنصور أن هذا الشخص الذي ضحك كثيراً يحضر مجلسهم لأول مرة، فقال له:

– إنك لا شك جديد على مجلسنا وتخطرنا(٥) أول مرة، فلا تؤاخذ أحداً منا على مزاحه.

ثم أوضح هتيمي لهما القصد حين قال:

– إن معدتك مثل جهنم، تقول: هل من مزيد؟ وليس من أكل الفلافل.

رد المشفوح بضحكة ساخرة وأتبعها:

– إن عينك لا تصيب، وإلا لتسببت منك، فمضغت نوى التمر من بعدك، أو شربت من غسيل يديك. وكانت هذه من الطرائق والوصفات التي يعالج بها المصاب بالعين من شخص يعرفونه.

وهنا أدرك الجد المنصور أن مزاحهما دخل مرحلة قد تؤدي إلي الخصام وربما تحول إلى شجار، فنصحهما مهدئاً، وكأنما هو يخاطب الجميع:

– تعوذوا من الشيطان – تعوذوا منه، لا يفتن بينكم، أو يصيب أحدكم الآخر بحسد أو بكلام يغضب.

علق العم عزام ـ وهو يومئ بمروحته السعفية –:

– دائما هما يمزحان هكذا (يتناقران كالديكة) مثلي في شبابي، مزحت مزاحاً لم يمزح مثله «أبو زيد» في زمانه.

فتوقف الشيخ حمود عن تمرير السواك على أسنانه وقال:

– وما أدراك.. رب رمية من غير رام.

لكن الهتيمي أظهر المزيد من تحديه:

– لا تهتم من كلامه يا أبا أحمد، ثم إنني لا آكل من سفرتك يا أخ مشفوح فأثني على كرمك، ولا أخاف من حسدك لي ما ذكرت الله، فقل ما شئت، ولكن لا تنس ذكر الله، اذكر ربك وبعدها قل أو صف كما تشاء.

– أقول إنك «أشره مني».

– ثلث لطعامك، وثلث لشرابك، وثلث لنفسك، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، ولست (أشره منك)

– وهل تركت لِنَفَسِك مكاناً؟

– اذكر الله مرة أخرى.

– ماشاء الله – قالها المشفوح ثم تابع– الآن داخلك الخوف.. حقيقة. أليس كذلك يا عم عزام؟

– في شبابي أصابتني «نظلات» ونحسوني أكثر مما نحسوا الهلالي في زمانه، ومن لا يخاف لا يسلم، وهذا أنا سالم، نعم أم لا نعم ين أخي موسى، ثم لماذا أنتم صامتون يا أهل هذه الناحية من العريش؟ تحدثوا معنا حتى تكثر أصواتنا فيرهب الحنشل منا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– لم يعد هناك من حنشل والحمد لله.. أمان وضمان يا عم عزام.

– في زماني رأيت ما لم ير «الهلالي» في زمانه، من حنشل وحشنشل مثل ما قلت يا ابن العم في ذيك القصيدة.

فرد الشيخ حمود بقوله:

– أمازلت تضحك من دارة جلجل يا عم عزام؟

– لم أسمع من يسمي «ديرة جلاجل» بدارة جلجل «لا قبل ولا بعد ابن القيس» كما تقول يا بن العم.

– امرؤ القيس، امرؤ القيس يا عم عزام؟

– لا أعرف كيف أنطقها.. ثم صار يضحك ويومئ بمهفته وهو يقول مع كل إيماءة «دارة جلجل».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال موسى بن علي:

أما أنا يبن أخي، فأوافقك على قولك، وأقول مثلك: «من لا يخاف لا يسلم»، وأما بقية هذا الجانب من العريش فمنهم من يستمع أو يتكلم لكنه لا يقول شيئاً في هذا الأمر، خوفاً من لسان هيتمي أو عين المشفوح، ومنهم من ينعس بعد هذه الوجبة الدسمة مثلي أنا.

– وأنت يا ذيبان؟

– أنا أصدقك بأنك أصبت في شبابك بما لم يصب به «أبو زيد» من حسد (ونظلات) في زمانه.

– عبدالدينار، وناقص الإيمان، والذي «عينه حاره»، يحسدون صاحب

النعمة بل يحسدون حتى الفقير، ألم تسمع الشاعر الذي يقول: حتى على الموت يحسدوني، إيه يا أبا زيد، لو كنت في هذا الزمان لعلمت أنني أشعر منك، صب لبن يا مشفوح، صب لبن.

رد عليه الشيخ حمود بقوله:

– كسرت شطر البيت يا عم عزام الشاعر يقول: حتى على الموت لم أخل من الحسد، وليس هذا من شعر أبي زيد.

– بلى يا ابن أخي هذا من شعر الهلالي سلامة، وأنا أشعر منه وإن كنت لا أعرف الشعر الذي تسمونه بالشعر الفصيح، أنا لا أعرف «شعر المطاوعة» ثم وجه حديثه للوسيمي.

– وأنت يا (الوسيمي)؟

– أرعى إبلي ولا شأن لي بغيري.

– أرعى النجوم وأنت في عيش هني.. علق بذلك الشيخ حمود وأردف بضحكة مجاملة. فيما واصل العم عزام بقوله:

– أنت الرابح، أم لا «يبن» أخي عباس؟

قال عباس بن يوسف:

– لم أتابع محاورتكم من بدايتها. كنت منشغلاً بتخليل أسناني بشوكة النخل هذه، ولا أدري ما تقولون أو من هو المخطئ، ومن عليه الحق، ومن منكما المصيب.

لقد لمحتك وأنت تنعس، قالها الشيخ حمود، فضحك أحدهم وقال:

– أو كان سينعس.

قال الجد المنصور، أو كان «ينوي» أنه سينعس، ثم التفت إلى ابن يوسف وقال:

– صدقت يا عباس من قال لا أدري سلم، وأحيانا «الجهل نعمة» أما سمعتم بالمثل العامي الذي يقول: «كلمة لا أدري مالها عاقبة».

– جهلت جهلاً لم يجهله (أبو زيد) الهلالي في زمانه.

فترنم الشيخ حمود معلقاً:

– ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

– لم أفهم؟

قال هتيمي:

– هذا شعر فصيح مثل الشعر الأول شعر «المطاوعة» كما تقول.. أتريد أن تفهم كل شيء؟! يا عم عزام.

– أي نعم. فهمت مالم تفهمه أنت ولا (أبو زيد سلامه) في زمانه. هذا معناه: كما يقول المثل «لاق صياح بصياحٍ تسلم»[٦]. ولكن من شدة خوفك من عين المشفوح ما عدت تفهم يبن أخي.

قال المشفوح: إنما نحن نمزح يا عم عزام.

– كنت تمزح؟

– نعم .. فلا تخف يا أخ هتيمي.

قال هتيمي: هل تصدقه يا عم عزام؟ رد عليه.

– أكثرتم علي، وأوجعتم رأسي، لا بارك الله فيكم يا أبناء أخي، ثم تقولون إنكم تمزحون.

عندئذ ضحك الميمون لكنه اصطنع التثاؤب، فوضع راحة يده اليمنى على فمه، ثم حاول تغيير الموضوع بقوله:

من أراد أن يتمدد ويأخذ نصيبه من القيلولة.

فقاطعه المشفوح.

– القيلولة بعد الظهر، لا بعد العصر.

– أقصد الراحة، فمن أراد أن يتمدد ويأخذ نصيبه من الراحة فإن اللبن يعين على النوم.

– مرة شربت مالم يشرب ربعه (أبو زيد) ومع ذلك لم أنم.

قال الخادم «صندول»:

– يقال إن نومة الضحى تورث الأمراض، ونومة بعد العصر تصيب بالجنون، أصحيح هذا يا شيخ حمود.

– لم أطلع على ما يؤيد هذا القول، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر بالبكور.

– قال من كان يتابع أو سمع منهم: صلى الله عليه وسلم.

قال الميمون مصطنعاً التثاؤب مرة أخرى:

– من أراد اللبن فهاهو السقاء أمامكم (في التينة الصغيرة)، إن عصر الصيف طويل.

فتبسم الشيخ منصور مشيراً بيده جهة العم عزام:

– من منا يا ولدي لا يعرف أن اللبن يجلب النوم، لكن بدون أمان لا ينام الإنسان ولو شرب «صميل بكامله».

قال الميمون:

– أسمعت يا مشفوح – يبالنوم(٧)– «ادع لأبي تركي»، فلولا الله ثم عبدالعزيز لم يأت لك اللبن بالنعاس.

قال المشفوح:

– أشهد أن الخوف يطرد النوم، واللبن بدون الأمان لا يأتي بالنوم ولا بالنعاس.

أليس كذلك ياعزام يا ابن أخي؟ فأصدر العم عزام آهة تثاؤب مصطنعة بحيث توقف عن الترويح بمهفته السعفية وهو يقول:

– في أيام نشاطي شربت لبناً لم يشربه الهلالي سلامه، يا مشفوح «هات شوي لبن» وانحسني بعينك لعلي أتشافى وتطيب ركبتي..ها..ها..ها.

علق الجد المنصور مخوفاً العم عزام:

– أخشى أن (يقعدك بالمرة) يا ابن أخي، أم لا يا مشفوح؟

– العم عزام يا شيخ منصور كما يقول المثل «خذ وخل»(٨).

http://Archivebeta.Sakhrit.com

فرد العم عزام بغضب لا يخلو من التصنع رغم خوفه:

– أنت لا ينفع معك إلا أن نكفنك ونصلي عليك حياً، حتى تنقطع عينك ونفسك الحاسدة.

– أسمعت يا شيخ حمود؟ يريد أن يصلي علي حيا. العم عزام كما يقول المثل الآخر: «دلو ماء ودلو طين».

– لا يكفن «النظول» الحاسد ويصلى عليه.. ولكن يصلى عليه وهو نائم، كما يقال. ولا أدري اثابت هذا الكلام أم لا، والله أعلم.

تنبه الجميع لتأزم الحوار والموقف وحاولوا الإصلاح بينهما، لإدراكهم بأن المسألة مسألة مزاح، إلا أن العم عزام لا يرى المسألة كذلك. وكانوا يعتقدون أن الحاسد إذا صلي عليه صلاة الميت حياً، تنقطع نفسه، فلا يصيب أحداً بعينه بعدها. كأنوا يرددون ذلك ويتوارثونه قولاً دون أن يذكر أن فلانا من الناس قد كفن وصلي عليه حياً، ولعلها بقية من بقايا الخزعبلات القديمة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الشيخ حمود فقد طلب من «صندل» أن يصب له قليلاً من اللبن ثم قال:

– كما يقول المثل «تغد وتمد.. وتعش وتمش» اشرب يبن أخي واسترح قليلاً، وأرح يدك من هذه المهفة، حتى لا تصيبن يدك بالشلل.

– ما ألذ هذا اللبن الرائب.

– لابد أنه من «خض» أم خير الله.

– لا بأس بعمل أم خير الله.. ولكن هذا من نفس الجدة شماء.

– لم تزل الجدة رغم الثمانين خير من يطبخ الجريش (ويقرص القرصان)

ويرغد الرغيد.

– وهي أمهر من الرجال في صنع قرص البر، وعمل المراصيع بالدبس.

– اشرب يبن أخي واسترح قليلاً.

– في أيام نشاطي أستريح كثيراً وأمشي كثيرا، أين مني «أبو زيد»، أما الآن فإذا مشيت عشر خطوات وقفت أستريح، أكذا كنت أم لا يبن أخي موسى؟

– هذا لأنك لم تعد تكثر من أكل التمر.

– وهنا تذكر الجد المنصور حكاية البدوي الذي استضافه أحد المزارعين وقدم له تمراً حلوا من نوع «نبوت سيف» فأخذ يأكل منه ويستزيد حتى امتلأت معدته، وهو يقول: جعل سيف[٩] ومن أرث سيف في الجنة.

– ثم بعد قليل أحس بحرارة تلهب كبده، فأخذ يشرب من الماء ويقول: «جعل سيف ومن أرث سيف في النار».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال موسى للعم عزام:

«أخذت من جماتها نصيب» أخذت حقك من الدنيا.

فرد بغضب:

– مرغماً أنفك.. إنني لم آخذ سوى حقي، لم آخذ زمان أحدكم.. وهنا تنبه المنصور وكذلك الشيخ حمود، فقال الجد المنصور: من ترك المشي تركه المشي، والمشي بعد الغداء طيب، مارأيكم؟

– نعم.. ولقد أكثرنا من الأكل.. زادكم الله من فضله يبن العم، ثم تحادثوا قليلاً بعد أن حولوا وجهة الحديث لئلا تكون مشاجرة ثم اضطجع بعضهم، فيما

ذهب البعض الآخر يتمشى في المزرعة ويتفرج «ويهضم الأكل» على رأي المشفوح.

وفي أثناء ذلك أتاهم ملاوي بن صبر – بعد أن رفعوا الأكل– مقبلاً وهو يقول:

أنا في وجه الله ثم في وجهك يا أبا ميمون.

– خير.. خير يا ملاوي.

– تساعدني أم لا تساعدني؟

– أساعدك إلا من شيء يوجبه عليك الشرع.

– ما هنالك من خطير.. وأنت تقدر على حل موضوعي قبل أن يصل إلى الشرع.

–إذاً اجلس وابشر بالخير، صندل.. يا صندل.

– نعم يا عم.

– اذهب وأت بغداء لأخينا ملاوي.

– قال ملاوي: أكثر الله من خيرك وأطال عمرك في طاعته، وبعد أن أكل وشبع قال له المنصور:

– ما الأمر يا ملاوي؟

– أنا في ذمتي لموسى بن علي ثلاثة ريالات فرانسي قيمة لجمل اشتريته منه كي أحتطب عليه وأسعى في طلب الرزق، وسمعت أنه سيشكوني إلى

القاضي وأنا ليس عندي سوى «ريال فرانسي واحد» وأرجو أن تكفلني عنده.. يأخذ هذا «الريال الفرانسي» ويؤجل الباقي حتى العام القادم إن شاء الله.

فقال له المنصور:

– حسبت أن الأمر أصعب من هذا.. ولقد أزعجتنا يا ملاوي.. إن موسى بن علي من الموجودين عندنا هذا اليوم وهو يتمشى في المزرعة الآن وسنحل الموضوع بإذن الله حين يعود بعد قليل.

* * *

وكانت مزرعة «أم الخير والدسم» كثيرة الحيات والقوارض الأخرى رغم ما يقتل الصبيان منها بين آن وآخر، مساعدة للخادم صندل الذي هو المعني بها وأكثرهم تقتيلاً لها، وذلك بعد لدغة أحد الخراف وموته، مما خشي معه (صندل) هز مكانته عند سيده الميمون، في ما يتعلق بشجاعته التي يعتز بها كثيراً سيما مجابهته للهوام والوحوش.. وقد أوشك مرة أن يمسك بالذئب نهاش.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما «الوزغ» المعروف لديهم باسم «الضاطور» فإن صندلاً يقتله بيده، إذ يترصد له، حيثما يراه في السقوف وشقوق الجدران ومغارات الجبال، ثم يضربه براحة يده ضربة تلصقه بالجدار أو الحجر كالخرقة المبلولة.

ولم يكن يفعل ذلك من قبل، لكنه اعتمد هذا الأسلوب الفعال بعد أن سأل الشيخ حموداً، فأفتاه بقوله: في الأثر أن قتل الوزغ باليد أفضل من قتله بسواها – كالحجر والعصا– لذلك لم يعد يلجأ إلى الحجر إلا إذا كان الوزغ لا تطاله يده، ومرة قال وهو يرجم «وزغاً بحجر»: لو كنت أنتعل لقتلتك بنعلي يا

تطاله يده، ومرة قال وهو يرجم «وزغاً بحجر»: لو كنت أنتعل لقتلتك بنعلي يا نجس.. والوزغ يضر الإنسان حين يمج اللبن، ويتناقلون فيما بينهم أن الضاطور أي الوزغ يساقي الحية من سمه!.

وتظهر هذه الزواحف، التي يطلقون عليها اسم: «الهوام» - مفردها هامة- أكثر ما تظهر في فصل الصيف بعد بياتها الشتوي الطويل، ومزرعة أم الخير والدسم شأنها في ذلك شأن عموم المزارع والخرائب والبيوت المهجورة القديمة، تمتلئ بهذه الهوام- وإن قلت بعد إعمارها - بل إنها كانت تضم جميع الهوام والقوارض كالحيات والعقارب والأشباث والوررة والأحناش، تعيش وتتناسل بين أحجار الأطوية والآبار وجذور الأشجار ذوات الدحول والأحراش: كالتين والحماط والبرشوم الشوكي، واتخذ بعضها من جذع العجوز سكنا. والعجوز كما يطلقون عليها أثلة كبيرة معمرة لم يكن يماثلها في العمر سوى أثلة الحماطة القائمة قرب مكان عرف بـ«مربط فرس الشيخ»، والمقصود بالشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، حين جاء من العيينة إلى الدرعية وربط فرسه في ذلك المكان الذي يقع قبالة قرية العودة، على الضفة الشرقية لوادي حنيفة والله أعلم. اتخذ بعضها من جذع هذه الأثلة مساكن وملاذات آمنة لها. ففي هذا الجذع العديد من الشقوق الغائرة والمؤدية بعضها إلى بعض كبيت أو جحر الضب، كذلك تقطن الهوام بين أساسات جدران الطين الصبخة، إذ أن هذه الجدران تقوم على أساس من الحجر ذي الفتحات الكثيرة، فهي تبدو مع تقادم الزمن وانسلاخ طبقة الطين عنها من الأماكن الآمنة لهذه الهوام بحيث تخرج من الجهة الأخرى للجدار حين تشعر بالخطر.

بها شتى الحشرات مع هذه الزواحف والهوام العديدة «كالقعران» والقبابين والنمل الذي يقتات ويعيش على ما يموت فيها، مما جعل الجدة شماء في مرضها الأخير تحذر سلمى من المرور هي أو أحد أطفالها بالقرب من الهباة الشرقية، وكان هذا الاسم يثير الخوف والرعب في نفوس عائلة الميمون إلى وقت قريب قبل أن تتفتق ذهنية الميمون كعادته عن فكرة تحصد هذه الهوام مرة إلى مرتين كل عام، بل إن من تأكيدات المنصور على الخادم صندل ضرورة إضرام النار مرتين إلى ثلاث مرات في هذه البئر كل سنة، فكان الخادم يجمع فيها من الأغصان والجريد اليابس فيرمي كل ما مر به مما يحمله، وأحياناً بعض ما يحمله من حطب يجمعه لموقد العريش المسمى «بمشب العريش» حيث توقد فيه النار للتدفئة شتاء، ولاستمرار القهوة ساخنة صيفاً، حتى إذا ما انتصفت الهباة بالجريد والأغصان والكرب والليف وسقط المزرعة مما يقع تحت يده؛ أضرم فيها النار فتموت جميع حشراتها السامة وغير السامة من اللهيب والدخان وألسنة النار، وأصبحوا بذلك يصطادون عصفورين بحجر واحد حين يشعلون النار في هذه «الهباة» خلال هجوم الجراد والدبا، فالدخان يطرد الجراد، والنار تقتل الهوام السامة والحشرات الضارة.

ومع ذلك يبقى من الهوام ما يهدد حياتهم في أماكن أخرى من المزرعة وبشكل مكثف في الجهات الشمالية الشرقية في كهوف الجبل وتحت أحجاره «وفروشه» ومسام التربة العالقة بين أحجاره والشبيهة «بالجير».

وتتغذى تلك الهوام على العصافير وأفراخها، وعلى بيض الحمام والحشرات والأعشاب وأوراق الشجر الأخضر، إن بعض الأوراق تحمل الغذاء والماء في آن.

والأعشاب وأوراق الشجر الأخضر، إن بعض الأوراق تحمل الغذاء والماء في آن.

إن هذه الهوام في حياتها المخاتلة التي تقوم على الترقب والهجوم كما أكد ذلك الشيخ حمود مرة «وكانوا على الغداء».. مثلها كمثل حيوانات الغابة، يأكل بعضها بعضاً، إلا أنها تبقى وتعيش متوازنة فلا يقل أو ينقرض نوع على حساب النوع الآخر، وفي أمثالهم «جراد يأكل حية ميته»، وهم يدركون أن نسبة كبيرة من الوفيات ونفق الماشية تحدث جراء تلك الهوام والوحوش البرية المفترسة التي تسعى في أطراف البلدة كل حين، ربما كانت نسبة الوفيات هذه لا تقل عن نسبة وفيات العمل أو المصادفة كالسقوط في الآبار والمنحدرات ليلاً أو من أعالي النخيل أو البناء نهاراً.

إن ذئب الغنم المسمى بـ«نهاش» وقد أطلق عليه الشيخ حمود «طارق الليل» ويعرف في وادي حنيفة بشراسته وخطره لا يمر بالبلدة دون أن يظفر بفريسة دسمة وصغيرة، حتى ظن البعض أن له مواصفات في فريسته! فهو لا يأكل الجيفة، ولا العجفاء من الشياه، أو الهزيلة من البقر أو الماعز، وإنما يأكل ويفترس السمينة الثمينة على أهلها، ومع ترصد الأهالي له ومحاولتهم قتله ينجو في كل مرة، مما أثرى أذهان الناس بالخوف والحكايات الخارقة عنه، لقد مضت ثمان سنوات وهو يروع البلدة مرة إلى مرتين إلى ثلاث مرات في الشهر، حتى بدأ من لم يره أو يفترس له بهيمة، يشك في وجوده أصلاً، ومنهم من أكد أنه جني من باطن الأرض وليس بذئب، وأصبح أكثر الموضوعات تداولاً وحديثاً بين الشيوخ والكهول والشباب، أما النساء فحدث ولا حرج، وكانت أم طويرش تؤكد أنه ليس بجني وأنه أكل ابنها «عدوان»، وعدوان عرف بعد فقده باسم «طويرش»

بعد أن سافر ولم يعد، ويقال للمسافر «طارش» وقد أصيبت أم طارش في عقلها، فهي تقول أنها لن تتطيب ولن تغسل أو تمشط رأسها إلا إذا أتوا لها برأس الذئب نهاش، أما من رآه أو صدق بوجوده من الرجال، فقد قبل التحدي لكنه لم يعلنه خوفاً من عجزه عن ذلك، ومن ثم يصبح بين أهله وعشيرته دونيا «يعقب الفنجال»(١٠)، لكن لابد أن ينبري من تدفعه شجاعته لحسم هذا الخوف الذي ملأ مزارع وأزقة البلدة، لقد تواتر إليهم: كيف كان الأسلاف يصارعون الأسود وليس الذئاب.. وكم رددوا في مسامراتهم قصة الزير سالم وعزيز بن خاله، وكيف أن السليك بن السلكة لحق بالأسد الفار من وجهه وأمسك به، وغير ذلك من القصص والروايات التي يحكي بعضها لهم «راعي المجمعة» التاجر الذي يمر بهم مرة إلى مرتين في العام قافلاً من الرياض متبضعاً، وهكذا استحوذ أمر قتل «نهاش» على أذهانهم، بل ظهر في أشعارهم وأمثلتهم حتى قيل إن الذئب «نهاش» هو الذي عناه الشاعر حميدان بقوله:

ما همن ذيب في «الديرة» همن عود في الدرعية.

إلى آخر القصيدة.

وكان الراعي «أبوسنيد» يسخر من الذئب «نهاش» ويتظاهر بعدم الخوف منه، ويتغنى جذلاً في أيام الربيع حين لا يبتعد كثيراً عن البلدة، إذ كان يجد لقطيعه الكلأ في كل مكان، حين يكون هذا الراعي بجوار البلدة في مأمن من الذئب نهاش فإنه يردد البيت النبطي الشهير:

يا ذيب وإن جتك الغنم في مفاليك

فاكمن إلى حين الرعايا تعداك

يتغنى بهذا ساخرا من الذئب نهاش، ولكن بينه وبين نفسه وحين يكون في الجوار قريباً من البلدة وفي النهار، أما حين يكون بعيداً أو حين يدركه الليل قبل أن يصل القرية بغنمه فإنه يخشى على نفسه وليس على غنمه فحسب، وهو يعلم أن هذه السخرية من عنده هو، وليست من الشاعر بركات الشريف الذي عنى معنى آخر، لكن الراعي «أبو سنيد» كثيراً ما تحدثه نفسه بالشجاعة حتى وضع نفسه نداً «للذئب نهاش» وأصبح يردد بيتاً «شعبياً» يخلع به على نفسه بعض صفات الذئب حين يكون معه مجموعة الرعاة أو عند مشب الضوء[11] في العريش مع ضيوف المنصور:

النوم للهلباج والكلب والنسا ما يهتني بالنوم سرحان ذيبه

ندم «أبو سنيد» على هذه السخرية والإدعاء، ولم يعد يتغنى بمثل هذا الشعر بعد أن اختطف الذئب من غنمه حملاً صغيراً أمام مرآه وذهب به يسابق الريح، ثم افترسه على قمة جبل «القطب» القريب من موقع «أبوسنيد»، وحين أدرك أن هذا الذئب «نهاش» هو الذي سخر منه وتحداه، أشاع في الناس أن هذا الذئب ما هو بذئب ولكنه «سكني» – جني– من الأرض، فقد رآه رأي العين يختطف الحمل ثم لم يره إلا وهو يأكله على قمة الجبل ويقول: إما أنه طار به أو قطع المسافة ما بين مكان الغنم إلى سطح الجبل – عادياً به تحت الأرض!!.

* * *

في الأسبوع السابق لمناسبة – تسمية المولود عبدالكريم –هذه– ترك الذئب الشرس الكثير من الأسى والحزن في نفوس أسرة الميمون، وفي نفس الصغير عبدالسلام ابن الميمون بشكل حاد، إذ افترس «جرواً صغيراً» كان يوصوص

باحثاً عن أمه في سفح الجبل، أطبق على رأسه بفكيه وامتطى الظلمة كالريح، عادته حين يختطف فريسة دسمة «على طوى»[١٢]، لقد بكى عبدالسلام بن الميمون كثيراً على جروه الصغير هذا... فمنذ ولادته وهم يغذونه باللبن، ويرمي عبدالسلام له الكثير من قطع اللحم بعد كل مناسبة من مناسبات العريش التي لا تنقطع طويلاً، وكم كان يراقبه مسروراً وهو يعرش ساق الذبيحة أو يدها الخالية من اللحم دون أن يدرك أن من عادة الكلاب التسلي بعرش العظام الخالية.

والحق أن الميمون، أو أحداً من إخوة عبدالسلام وأهله، لم يلمه على حزنه الكئيب وأساه، حين فقد جروه «طمران» بهذا الشكل المحزن المفاجئ، فهو قد اعتاد عليه، يداعبه ويربيه، ويعده لمكافحة هذا الذئب الذي أثار ويثير الرعب في نفسه ونفوس أقرانه من أطفال البلدة كلها، حتى قلل بعضهم من ذهابه إلى «الوادي» للعب الكعابة أو البذة، فيما امتنع البعض الآخر عن اللعب خارج بيوت أهاليهم أبداً، لما سمعوا ويسمعون عنه من الحكايات المخيفة التي ترويها لهم أيام هذا الذئب وهجماته الدامية، وكيف يفترس الماشية والرعاة ينظرون إليه ويحيطون بها متمنطقين بخناجرهم وعصيهم، وأكله الطفل شميس الذي كان يلهو غير بعيد عن خدر أهله في شعيب «أبو السلم»، لقد تفطرت كبد أمه تحسراً وأسى عليه، فهو أصغر أبنائها وآخرهم، تذكره فتبكيه، كانت تداعبه وتغني له أغنية الطفل الأخير –آخر العنقود– ويسمونه بـ«القعدة» حيث تداعب الأم وليدها الأخير مترنمة بـ: القعدة.. حبه رعده «وحليله وحليل سعده[١٣]» إلخ، وإن الأمر ليبدو محيراً إذ عجز أهل البلدة لأربع سنين خلت، بعد أن جدوا بكلابهم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبنادقهم البارودية وبحبالاتهم ومصائدهم التي صنعها لهم «عمير الصلبي» من أجل الإيقاع بنهاش، فوضعوها في أماكن متفرقة ومختلفة من الطرق التي كانوا يتناقلون أنه مر وربما يمر بها أخرى.

ومرة قال عبدالسلام لجدته شماء، وهي تقص عليه قصة «الذئب والجني»، والذئب والجني أسطورة تقول إن الذئب سمي «بالسبع» لأنه إذا مضى عليه سبعة أيام وهو : «طاوي» لم يجد خلالها ما يأكله، خرج إليه جني من الأرض، فيهجم عليه ويأكله، شريطة أن يرى الذئب الجني أولاً، أما إذا رأى الجني الذئب قبل أن يراه الذئب فإنه يختفي داخل الأرض، فلا يستطيع الذئب أن يفترسه- قال عبدالسلام:

- إن النوم يهجرني يا جدة.

- لِمَ؟

- كل ما قصصت علي قصص الذئاب.

- «أفا» يا عبدالسلام، أتخاف من القصص وأنت الشجاع؟!

- لا يا جدة.

- إذاً كيف يهجرك النوم، ولم؟

- أفكر كيف أخلص «الديرة» من شر الذئب «نهاش» كيف أقتله أنا وكلبي طمران إذا كبر، أترين كلبي يكبر بسرعة إذا أكثرت له من اللحم يا جدة.

- إيه... إذا كبر كلبك طمران - ثم همست لنفسها «مت يا حمار» - وربتت على رأس حفيدها متظاهرة بالشجاعة وعدم الاهتمام، ثم قالت له: «نم يا وليدي ولا تخاف» مدارية أسفها وحزنها الدفين، متذكرة مأساة الطفل شميس

وعشيرته.

كما أن لهذا الذئب ضحاياه من الكبار ومن رجالات البلدة أيضاً.

لحق به «ليلة» مساعد بن مسفر، وهو من الفرسان المعروفين في وادي حنيفة، بعد أن أعلن تحديه واستعداده للقضاء على هذا الذئب أمام جميع «المسايير» في عرس ابن طارق - أحد أجواد البلدة ووجهائها -، فحاول بعضهم أن يثنيه عن اقتحام هذا الخطر بمفرده فما زاده إلا إصراراً لخوض هذه المغامرة حتى قال: إنه لن يأخذ «فنجال القهوة» قبل أي أحد ولو كان صغيراً، قبل أن يطعن هذا الذئب بحربة جده «معافر» المسمومة، فلم يبق أمامه بعد هذا التعهد والوعد، إلا أن يقتتل مع «الذئب نهاش» الند.. للند، لذلك تعهد حربة جده «معافر» وشحذها حتى صارت «تلقط الحب» كما في أمثالهم، من رهافة حدها، كان يشحذ الحربة بمسن من الحجر الصوان وهو ينشئ قصيدة قتله الذئب لينشدها على مسامع أهل البلدة بعد ما يصرعه ومطلعها: «لعيون هدبا نرخص النفس والمال.

لحق به تلك الليلة وأطلق العنان لفرسه الهبوب ولكزها لتمضي - في الظلماء - كالسهم خلف الذئب نهاش، وبينما هو يستعد لطعنه بحربة جده الطويلة العصا، المسمومة السنان، كبت به «الهبوب» فتشكلت مأساته.

وكان ابن مسفر هذا قد تربص وترصد «الذئب نهاش» عدة ليال وأيام لأسابيع متتالية، والغريب في أمره، أنه كان يرتدي عدة الحرب، وكأنما هو سينازل بطلاً لا ذئباً، حتى «جوخته» المطرزة بالحرير والقصب المتوارثة لأجداده الثلاثة الأندلسية الشكل، القديمة الصنع جداً، تلك الجوهرة الزاهية النادرة كان

يرتديها، فتظفي عليه بهاءً وهالة من هالات فرسان بني الأحمر الأندلسيين، والحق أنه يزهو بنفسه كثيراً ولكن عن جدارة - فهو الفارس الشجاع- وكان قبل هذه الحادثة بيومين، جدد تعهده وزاد على ذلك إذ قال لأهل البلدة: إن قتل «نهاش» وعداً قطعته على نفسي فدعوه لي، فوهبوه له.

مسكين ذاك الفارس الجسور -خذله سواد الليل والحظ والمغامرة، هاهو يمضي بقية أيامه مشلولاً، يجلس في «المشراق»(١٤)، عند عتبة باب بيته شتاءً، وفي ظلال جدار بيته صيفاً يجتر تاريخ بطولاته مع قطاع الطرق ووحوش الصحراء، يتذكرها مع خادمه «مشير» أما فرسه «العجلاء» فقد اندق عنقها ونفقت، وأكل منها الذئب «نهاش» قبل أن تصبح جيفة، يا له من ذئب يقبل التحدي وينتصر في كل مرة.

مع ذلك فإن الناس في الوادي وقراه، يخشون الحيات أكثر من خشيتهم الوحوش، وأولها الذئب نهاش، إنهم لا يخافونه كثيراً كالحيات برغم خطورته وشراسته، فهم يرونه ويواجهونه وجهاً لوجه، وخشيتهم من المجهول أكثر من معرفتهم بأن الحية «لا تعيل»(١٥) أو تبدأ بضحيتها فتلدغه، إلا أن تؤمر، بل إنها قد تدخل بين جسم النائم وملابسه وتخرج دون أن تلدغه، كما قد يمر بقربها السائر فيسلم منها كذلك، وهم حين يرونها يكثرون من ذكر الله سبحانه مهللين مكبرين، ومن الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، فتحير ولا تحسن الهرب، بعكس العقرب التي يقتلونها بمجرد رؤيتهم لها، فهي تلدغ في أي وقت متى سنحت لها الفرصة، وقد أطلقوا على المرأة الفتانة النمامة، لقب (عقرب ثرى)، حيث تلدغ بلسانها في الخفا دون أن ينتبه لها.

على أن من الأسباب التي تجعلهم يخشون الحيات أكثر من خشيتهم الذئاب، أن لدغة بعض الحيات تقتل على الفور، وأن الحية لا ترى، وفي الليل بصفة خاصة، أو حين تكون بين الأحراش وهشيم الأشجار والحشائش، فلا يرى السائر العقرب أو الحية حتى تلدغه، مع أنهم في حالات كثيرة يستشعرون الوحوش والحيات قبل أن يروها أو يسمعوا لها صوتاً أو حركة، إن الإنسان منهم ليشعر بقشعريرة في حسمه وبخوف أو انتباه مفاجئ في نفسه لقدوم خطر ما، وربما استدل على الحية برائحة «الرشاد» الذي تأكله، أو بضجة العصافير وجلبتها في الشجرة الموجودة بها، وفي أمثالهم عن كثرة الأصوات وتداخلها وضجيجها قولهم: «مثل عصافير السدرة» أو «عصافير شافت حية».

إن السائر لا يرى الحية بسهولة، وإذا ما رآها مارقة أمامه فمن الصعب أن يرصد مكانها بين الأغصان والدحول أو شقوق الجدران، لسرعة اختفائها وتنقلها، من أجل ذلك يتداولون: أن لها تسعة وتسعين منزلاً، وإنها لا تستقر في مكان واحد حين تشعر بالخطر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعندهم أن أخطر لدغات الحية ما حدث في نهاية الأسبوع -ليلة الخميس- أو الجمعة. ذلك أنها تكون مليئة بالسم الزعاف الذي اختزنته خلال الأسبوع، وتتحرك بسرعة ولا تهدأ باحثة عن ضحيتها، فإذا ما جاء صباح الجمعة، دون أن تلدغ أحداً، استفرغت سمها، فتكون لدغتها بعد ذلك غير مميتة، ومن الحيات حية يقال أنها «أم جنيب»، إذا لدغت وانقلبت على ظهرها فإن ذلك يعني أن غاسقها قد وقب في جسم الضحية، فتكون اللدغة مميتة والله أعلم.

* * *

إن ما حدث لعباس ين يوسف، أحد ضيوف هذه «المناسبة» وتعرف عندهم

بـ«السماوة» -جعل المدعوين يعتقدون أن الحية التي لدغته لم تستفرغ سمها يوم الجمعة هذا، أما كيف لدغته؟ فحدث عندما كان «يتمشى» في عرض الجبل بعد وجبة الغداء، فرأى ثمرة «شفلح» ناضجة، فمد يده وخللها بين أغصان الشجرة وشوكها، ليقطف الثمرة، وإذا بالحية أسرع منه فلدغته، فصرخ صرخة سمعها من كان في أرجاء المزرعة، حتى من بقي في العريش من الضيوف سمعوا صوته رغم أصوات عدة السنواني القريبة منهم، فقال الشرهان:

– هذا صوت مستنجد أو مستجير؟

فثنّى على قوله الميمون وهو ينهض راكضاً ناحية الجبل: نعم هذا صوت مستنجد، الحقوا بي إليه.. اتبعوني، هتيمي، شرهان، صندل.

لحقوا به وتبعهم الوسيمي، وذيبان الزري، فقال المنصور: الحق بهم يا موسى. فنهض موسى من نعاسه وهو يردد: ما الأمر يا شيخ منصور؟ ولماذا ذهبوا يعدون؟! قال المنصور وهو يضحك: يركضون.. يركضون. قال موسى ولم يزل بين النوم واليقظة ولماذا ذهبوا يركضون؟! قال المنصور: يبدو أن شخصاً ما في خطر، عند ذلك قفز موسى بن علي فتعثر في أحد المساند فوقع ثم قام يعدو وهو يقول: كأني بك لم تفزع ولم تهتم، ثم إنه لم يتبين جواب الشيخ منصور حيث ابتعد في الحال يعدو وقد عض طرف ثوبه بأسنانه، ثم أمسكه بيده اليسرى، ومشيرا باليمين ناحية الصوت، اثبت يا صياح.

– المقدر كائن يا ابن علي، تداخلت إجابة الشيخ منصور هذه مع صياح موسى مبتعداً:

– اثبت يا صياح.. اثبت يا صياح، فالتفت المنصور لابن أخيه الشيخ حمود مواصلاً حديثه بقوله:

– المقدر كائن، والمكتوب لا بد منه.. ثم تناهى إلى سمعهم صوت أول من وصل الجبل وهو يصيح بأعلى صوته.. قريص.. قريص، فواصل الجد منصور: هل تقرأ على الملدوغ «يبن» أخي.

تثاءب العم عزام: وقد طار النعاس من عينه جراء جلبة القوم فقال:

– لدغتنا حيات لم تلدغ «ابو زيد الهلالي» في زمانه. في ماذا تتحدثون يا أبناء عمومتي؟!

ثم سمعوا آخر مناداة لموسى بن علي، وعلموا أنه وصل إلى الجبل.

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حين وصلوا إلى المستنجد عرفوا فيه أحدهم، وهو عباس بن يوسف، قد جلس القرفصاء في عرض الجبل، يحاول قطع إصبع يده اليمني بحصاة كسرها بيسراه حتى أصبحت حادة كالسكين ، وقبل أن يهوي بها على إصبعه كان الميمون أول من وصل إليه، فصاح به ممسكا بيده:

– اتركه.. اترك إصبعك، لا تقطعه، سنحضر المطوع أو الطبيب، ثم وجه الميمون كلامه لأسعد الهزاني الذي وصل على إثره قائلا:

– اقطع طريدة من ثوبك يا أسعد، اقطع طريدة.. لا أريده أن يقطع إصبعه مثلما قطعت أصابع قدمي الثلاثة.

– فقطع الهزاني خرقة من طرف ثوبه.. وناولها إياه، فيما قال الشرهان–

وقد مزق طريدة من شلحانه[16] – خذ هذه أطول وأقوى. اربط يده من أعلى الذراع.

– من أعلى الذراع؟!

– نعم– من العضد.. من العضد.

– صدقت أرى السم امتد إلى مرفقه.

– بل تعداه.. انظروا.. بدأ يتغير لون يده.

وهكذا اختلط حوارهم بصوت عباس بن يوسف الذي ازداد عليه الألم فأخذ يصرخ ويقول:

– أسرعوا.. إن السم يجري في يدي بسرعة آه.. آه يدي تتشقق من الألم آهـ.. اقطعوا إصبعي. اقطعوا يدي، يدي تتنمل.. يدي، تنام من الألم، لم أعد أشعر بها، وبدا وكأنه يذهب في غيبوبة.. يدي، كأنها ليست يدي.

عندئذ قال موسى بن علي وهو يتوقف لاهثاً:

– اضغط على عضده بالرباط، امسك مع الميمون يا هتيمي، اربطوا ذراعه بقوة، قال الميمون «لا توصي حريص».

وبعد أن ربطوا ذراعه من العضد .. أخذوه إلى العريش محاولين الرفع من معنوياته بقولهم.. بسيطة.. بسيطة لا.. لا .. طيب طيب ما شاء الله... «حصان يبو يوسف حصان».

* * *

حين وصل سحيم الحجام إلي العريش – حيث أرسل الميمون في طلبه

عندما لم يجدوا «المطوع»، وكان من الممكن لو وجدوه أن تخف معاناة ابن يوسف، وربما شفي من سم الأفعى تمام الشفاء، إذ أن هذا المطوع من حفظة القرآن الكريم، من أولئك الأخيار الذين يقرأون على الملدوغ ببعض الآيات الكريمة فيشفى بإذن الله.

لم يتمكن وقد تطوع -الطبيب «سحيم» من سحب قطرات من الدم والسم بفمه لم يتمكن أو يفد ذلك في شفاء ابن يوسف، فقد انتشر السم في يده وذراعه كلها، وتورمت حتى غدت بلون الحبر الداكن، فحاولوا بشتى وسائلهم المعروفة لإخراج السم من جسم الملدوغ فذبحوا - خروفاً- فحلاً وأدخلوا يد ابن يوسف المصابة في جوفه، وعندما لم ينفع ذلك، مزقوا كم ثوبه وفتحوا جرحاً في رأس الإصبع الملوغ في نفس مكان عضة الحية، فنزلت منه قطرات من الدم قليلة جداً، وقال الطبيب «سحيم»: إنه كلما انتفخت الذراع كلما زادت قطرات الدم النازفة من الجرح مع ما اختلط بها من سم، غير أن ذلك لم يحدث، فحاول مص السم بفمه مرة أخرى فاستخرج بعض الدم الأسود ولكن لم يستطع استخراج إلا القليل، فقال الميمون: صبروه، فأشعلوا ناراً ووضعوا فيها رأس منجل من مناجل الحصاد حتى احمر لونه من النار، ثم وضعوه على مكان لدغة الأفعى، ولكن دون فائدة أيضاً، حتى أن ابن يوسف لم يشعر بحرارة المنجل في موضع اللدغة من أثر السم، مع أنهم سمعوا ما يشبه صوت الزيت في المقلاة ورأوا دخاناً ينبعث من مكان الكي كدخان «الغليون» أزرق متموجاً، وعندما استنفدوا كل سبلهم المتاحة، وهذه الطرق المعتادة لمعالجة الملدوغ أو استخراج السم من جسده، إحتدم الحوار فيما بينهم، فمنهم من يرى فك هذا الرباط،

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومنهم من رأى ترك اليد مربوطة، وكان الشيخ حمود قد رد على سحيم بقوله: ليس هذا بصحيح يا أخ سحيم، والصحيح أن ضخ الدم عن طريق القلب قد منع عن اليد بإحكام ربطها.

وإذ يجهلون مسألة وكيفية ضخ الدم من القلب، فإنهم كثيراً ما يثقون في أقوال الشيخ حمود لاكتسابه الكثير من المعلومات والخبرات من خلال أسفاره العديدة، وإقامته في بعض البلاد الخارجية بعض الوقت، وكان يحاول إقناعهم بما لا يصدقون، فمرة قال لهم: إنه مر ببلاد بلغاريا والمجر وإنهما يتشابهان من وجوه عديدة، فقال أحد الحاضرين ويدعى مليحان، وهو ألثغ اللسان بطيء الفهم قال: أهي التي «يذكرون» ان بها البغر الجاموس، أي البقر!! أما الميمون فقد قال إننا لم نسمع ولم نر إلا المجرة، أما البلغر والمجر فلم نرهما في السماء ولم نعلم لهما على الأرض مكاناً، فما هذه الأسماء التي تذكرها لنا «يبن» العم لعلك تمازح الأخ مليحان؟!

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال المنصور وقد تذكر حادثة كحادثة ابن يوسف:

- منذ سبعين سنة ذهبنا لروضة مهنا، لصيد الجراد.. فلدغت أحدنا حية، ولم يكن معنا من يقرأ عليه، ولا من يعالجه، فربطنا رجله مثل هذا الرباط «فعتق» وشفي وعاد إلى البلدة معنا سالماً بعد أن ساهرناه لعدة ليال. ولم تكن معنا طبولاً، إلا أن معنا ابن عيسى وهو من حفاظ الشعر، فصار يغني ونغني بعده، مصفقين بأيدينا بدل الطبول -وكأننا نسوة- حتى انفجر الجرح وشفي اللديغ بإذن الله. وقد ذكرت الآن بهذا حادثة غريبة: إذ مر بنا في اليوم الثاني لمساهرة لديغنا بعض القوم متجهين ناحية الشمال، ويسألونا إن كنا رأينا طفلاً

معلقاً بين السماء والأرض أو سقط على الأرض، فظننا أنهم مجانين فأعرضنا عنهم، فأعادوا السؤال، وحين رأوا دهشتنا واستغرابنا قالوا: إن طائراً كبيراً اختطف أحد أطفالهم وعمره دون السنة تركته أمه بالقرب من خيمتهم فطار به النسر، ولا بد أنه اتجه جنوباً، فالرياح وقتذاك كانت شمالية وقوية جداً، فقلنا: إننا لم نر شيئاً، أعانكم الله على هذا المصاب وشفع الطفل في والديه.. بعد هذا عاد الشيخ حمود مرة أخرى للحديث عن احتجاز الدم بقوله:

– إن احتجاز الدم المختلط بالسم في ذراع ويد عباس بن يوسف ومنعه من العودة إلى قلبه وشرايين جسمه فيه نجاة من الموت إن شاء الله إذا انفجر مكان اللدغة وخرج السم.

وكان من حسن حظ المصاب «عباس بن يوسف» أن الضيوف لم يغادروا المزرعة بعد إلى الرياض، وإلى بيوت بعضهم في البلدة.. ذلك أن الجد المنصور رغب إليهم، بل وأكد عليهم بأن لا يعودوا إلى بيوتهم قبل تناول وجبة العشاء المعدة لهم أيضا، وسبَّب رغبته هذه محاولاً إقناعهم، بأن من الرفق «بالبهائهم» أن تترك –أي الجمال– فترة حتى ترتاح قبل العودة إلى الرياض. فرضوا بذلك لإدراكهم أيضا أنهم سيحملون معهم بعض ما اعتادوه من المنصور، كقطع من خشب الأثل، وجريد النخل للبناء والأسقف، وبضعة خصفات –قلات– من التمر لكل منهم قلة، وهي أكياس من ليف النخل وخصفه يتراوح ما تتسع له الواحدة مابين الستين إلى الثمانين وزنة وتسمى بالقلة أو الخصفة.

وكان لابد بعد إصابة ابن يوسف أن يبقى الجميع في المزرعة لمساهرته حتى لا يقتله سم الأفعى.

* * *

إن الملدوغ لا يسمح له بأي حال أن ينام، ولعدة ليال متتالية حتى يخرج منه السم بتورم، ومن ثم انفجار مكان اللدغة، فيخرج السم مع الصديد والدم الفاسد، فيشفى المريض ويسلم إن كتب الله له السلامة.. وهذا مع رأي طبيبهم غصن بن مرسال الذي صادف هذا الحادث سفره ناحية شقراء لعلاج أحد شيوخ قرية ثرمداء، فلجأوا إلى الطبيب سحيم الأقل مهارة ومعرفة بالطب الشعبي، والحقيقة أنهم يعلمون هذا الأمر قبل الطبيب ابن مرسال فهو من معارفهم المتواترة.

من أجل ذلك يمنعون المصاب من أن ينام بعديد من الوسائل كان من أشهرها: قرع الطبول أو الدفوف بإيقاع غنائي منظم مع مصاحبته بغناء قصائد جميلة تساعد على استمرار المغنين على السهر والمساهرة، ومن تلك السبل كذلك: وخز الملدوغ بالمخايط والإبر، أو أن يشاك بالشوكة الدقيقة الحادة كشوك النخل أو السلم، يشاك بها اللديغ كلما أنعس أو داهمه النوم، وهكذا يمنع من النوم لعدة ليال وأيام، ربما تبلغ الأسبوع فأكثر، إلا أنه يتخلل تلك الليالي والأيام سويعات قليلة ومتفرقة، يسمح له بالنوم خلالها، وهي الأوقات التي تنام خلالها الحية، ويعرف هذه الأوقات بدقة متناهية الطبيب ابن مرسال.

وفي بلدة النخيل، كما في البلاد والقرى الأخرى بأكملها يتعلم الناس من تجاربهم يرثون القديم ويورثون الجديد، فيتعلم من التجربة الصغير عن الكبير والخلف عن السلف، وقد تضرب التجربة في عمق التاريخ والتراث، فتصل إلى صدر الإسلام، وبعضها لم يزل يتوارث منذ العهد الجاهلي كالأخلاقيات والقيم،

والخصال الحميدة الفاضلة التي كانت سمات بعض الجاهليين، ومنها الكرم والمروءة والشهامة والعفة والنجدة والوفاء وغير ذلك «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وحين تنعدم ماهية التجربة وفائدتها بتعطيل أسباب قيامها أو الحاجة إليها أو بإحلال جديد مكانها، تتحول إلى أسطورة لكنها لا تندثر دون تعطيل أسبابها، ولعنترة مقولة شهيرة وهي: إن من أسباب كسبه للمعارك التي يخوضها، أنه لا يدخل معركة قبل أن يعلم مخرجه منها، وإنه يعمد إلى الجبان فيضربه ضربة تطير رأسه، فينخلع لها قلب الشجاع، فينثني عليه فيقتله.

لقد ظلت هذه الطريقة قاعدة لكثير من فرسان التطاحن في الجزيرة العربية طوال قرون إلى انتقاء أسباب فارس المعارك وحلول الفارس «الجوكي» فارس المناورة والسباق.. وهكذا في الطب وقبله في الكهانة والعرافة حتى أبطلتا. إن التعامل مع الصحراء ووحوشها وإنسها وجنها ورياحها وقطع مسافاتها الطويلة والسير في صقيعها ورمضاء هجيرها وظلماتها الموحشة دون أنيس، سوى جنان ثابتة لا تعرف الخوف وإرادة كالحجر صلابة، كل ذلك وغيره جعلهم كأشجار السلم الصابرة على لهيب الحر والظمأ وعوامل الفناء، وأورثهم ذلك ما كان عليه الأسلاف والأجداد، وإنك لتجد فيهم السموأل والطائي وأكثم والحارث وزهير وعنترة رغم الفارق الشاسع من الزمن واللسان.

إن تلك التجارب التي أضحت ضمن موروثاتهم الشعبية، وعدت كالحكمة وكبيت الشعر والمثل السائر، الذي لا يعرف من قائله، ولكن يدرك أنه انطلق من لسان تجربة حادة أو عقلية حكيمة أو انفعالية، ابتهاجية أو مأساوية.

إن قطع الإصبع الملدوغ في الحال - كمثال آخر- حين يعدم العلاج أو المساهرة، نجاة من الموت بعد مشيئة الله، يلجأ إليها كل شخص يلدغ في مكان يعلم أن ليس به من يعالجه أو يساهره.

ولقد علموا وأدركوا الأوقات التي تنام فيها الحية -كما تقدم- لذلك يدعون اللديغ ينام خلال تلك السويعات متزامنا مع نوم الحية، فلا يسري السم في سائر بدنه والله أعلم، أما تلك السويعات فهي من الفجر حتى بزوغ الشمس، ومن الضحى حتى صلاة الظهر، وربما أدركوا مقدار الوقت بظلال الأشياء، فساعاتهم الظل في النهار، وفي الليل النجوم، إن المنصور ليعرف أوقات الليل ساعة بساعة منذ غروب الشمس حتى شروقها بمواقع النجوم، أما الجدة شماء فقد خطت ستة خطوط في جدار المطبخ المواجه لشروق الشمس وستة في الجدار المواجهة لغروبها، وبانحسار الظل عن هذه الخطوط وعودته إلى الأخرى تعرف الجدة شماء متى يحين وقت الصلوات وطبخ الوجبات وأعمال النهار الأخرى، كالتعليف والحلب والكنس وخض اللبن وخلافه، مما تقع مسؤولية تنفيذه على عاتقها، وهكذا ربات بيوت المزارع.

إن تجاربهم هي حظهم من العلوم الحياتية، إذ لا علم لديهم سوى العلوم الدينية والشرعية التي لا يلم بها إلماماً تاماً إلا العلماء منهم، أما البقية من الناس فحظوظهم منها متباينة وإن كانوا لا يجهلون القواعد والأسس الدينية، بحكم إيمانهم بعقيدتهم وتمسكهم بها.

إن مدنهم وقراهم هي مدارسهم وجامعاتهم، ومن أمثالهم في ذلك قولهم «نجد تصلح أهلها» و«نجد تعلم أهلها» حتى التغريب والمجاعات والانسياح في

الأرض بحثا عن الكلأ أو العيش وغير ذلك من الأمور المشابهة، كثيرا ما يعيدون أسبابها إلى بلادهم؛ فإن حسنت الحياة وتداعت أسباب معيشتها امتدحوها، وإن ساءت وصعبت المعيشة هجوها، ولكنهم لا يهجرونها، إن هجرة جماعية غير هجرة بني هلال لم تحدث... وكان الموت مجاعةً هو الذي حملهم على ذلك.

* * *

بعد أن استنفدوا وسائلهم المعتادة في معالجة ابن يوسف، أجلسوه القرفصاء ودون إسناده إلى «مركى» أو مسندة، حتى لا يأخذه نوم السم، فابتدرهم المنصور بقوله:

– هل وجدتم الحية؟

قال الميمون:

– لم نجدها يا جدي.

– إذا فأنتم تجهلون نوعها.

– نعم .. أطال الله عمرك في طاعته.

قال صندل:

– هل رأيت الحية يا عباس؟

– لم أرها، سمعت صوت هروبها في «شكير الشفلح» ورأيت حركة الأوراق والغصون اليابسة في أرض الشجرة.

– لعلها عقرب.

– قال الشيخ حمود:

– ليس لهروب العقرب من صوت كهذا الذي يقول.

– قال المنصور:

– أخشى أن تكون تنيناً؟

فعلق «صندل»

– لدغة التنين مميتة «إلا» من أنقذ ربك.

قال الشرهان:

– مميتة؟! هل سمعت بهذا يا هتيمي؟

– مفاجآت الدنيا كثيرة.. كفانا الله وإياكم شرورها.

قال عباس بن يوسف:

– آمنت بالله «الميتة واحدة».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– من كان منا يظن أن هذا سيحدث ولابن يوسف الذي نعرف شدة حذره أليس كذلك يا ذيبان؟

– نعم: كنا نسميك «الغراب» يا عباس من شدة حذرك، وأظن الجد المنصور هو الذي أسماك بهذا الأسم أو اللقب.

– صدقت.. ولكن «الحذر لا يمنع القدر» يقول هذا وهو يغالب النعاس والألم.

– قال العم عزام وهو يومىء بمهفته السعفية كالعادة: يقول أبو زيد.

وذي عادة الدنيا كفى الله شرها

على من ينازعها شديد عتابها

كما لدغة التنين يا جاهل بها

لبيب الملامس يزعج السم نابها

قال الميمون:

– هذا ليس من شعر أبي زيد.

– وهل أنت أدرى مني بأخبار أبناء عمومتي. «يبن العم» هذا من شعر الهلالي سلامة. إن «صندل» لا يعرف هذا وإلا لسألناه.

– هذا من شعر شاعر جديد – وهو حي يرزق.

– لعله «راعي» منفوحة، الذي يدعونه بالصناجة، كما ذكرت لنا هذا «يبن العم».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فضحك الشيخ حمود وهو يقول:

– رجعت لحالتك «يبن الخال».. هذا شاعر ميت قبل الهجرة.

– إيه.. هذا لم أعرفه ولكني عرفت شعراء لم يعرفهم «أبو زيد» في زمانه، هل أنا صادق يا جد؟

– نعم.. كنت تعرف شعر وشعراء بني هلال، ثم وجه كلامه إلى حفيده الميمون.

– لابد يا ولدي من مساهرة ابننا عباس – ثم قال لابن يوسف–:

لا يأخذك النوم يا عباس، فلم يرد.

- أجل يا جدي أعانك الله في طاعته ورعاك، لا بد من مساهرته.

- وماذا عملتم من أجل هذا؟

- أرسلت الصبي «سعيد» في طلب المويلحي مع جماعته «أهل السامري». هذا أفضل ما دمتم لم تجدوا «المطوع» ولم ينفعه الطبيب سحيم.

- اطعنه بالشوكة «يا صندل» حتى لا ينام، اطعنه في غير مكان «اللدغة» حتى يحس.

- «أبشر» يا عم.

- آهـ.. لدغتني حية أخرى.

* * *

تقام ليالي مساهرة الملدوغين ويقال لفردهم «القريص»، تقام بمجموعة من المغنين والضاربين على الطبول، والطبول والطيران والدفوف تتحد في أغراضها وتختلف في أشكالها، فالطبل هو الأكبر حجماً، والأسمك جلداً، أما الدف والطار، فهما يشبهان «الشناشيل» دون حدائد على أطرافها، ويصنع الطبل من جذوع الأثل الكبيرة أو النخل يجوف مفتوحاً من الجهتين ثم تغطيان بجلد من جلود الجمل أو البقر أو الغنم، دبغ وأزيل منه الشعر، وجمل بأشكال تشكيلية ملونة، ثم شد بقوة كالوتر، وثبت على جذعه بسيور من الجلد أيضاً، مع حزم من الخيوط الملونة وتسمى «شقش» تربط في وسطه متدلية لتومئ عند اهتزاز الطبل كجدائل الفتيات الراقصات.

وتبدأ المجموعة في صفين متقابلين، جلوساً وأحياناً على الركب وأمشاط

الأقدام، حتى يسهل عليهم الميلان بأجسامهم يميناً وشمالاً مع إيقاعات الطبول.. تبدأ المجموعة في الغناء وضرب الطبول، كل لحن حسب أبيات القصيدة المغناة، فيكون الإيقاع سريعاً وصاخباً ومثيراً للرقص، حين يكون الشعر وطرقه ساحلياً من الجنوب أو بعض «طرق» الدواسر، وحينا يكون مطرباً وشجياً، متوازن الإيقاع والأداء مع أبيات الشعر. وهذا الطرق يعتمد -أي طريقة الأداء- يعتمد الشعر الغزلي الرقيق الذي بدأ «فصيحاً» في العارض وفي نجد بأسرها، بدأ من امرئ القيس إلى محيسن الهزاني الذي لم يخرج عن تلك الصور والمعاني والأغراض، فلا فرق بينهما إلا أن الأخير قاله بلهجته العامية، وهو نوع السامري المعروف قديماً في العارض، وفيه يحتاج «كورال» المغنين إلى النفس الصوتي الطويل، يتمايل فيه الصفان المتقابلان مع الصوت والإيقاع في تطريب وطرب نشوان، وربما اكتفى المغنون بتمايلهم في صفيهم، مالم يكن في الحلبة راقص، أو أكثر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا الطرق هو أشهر ألوان السامري في العارض.

وأعرضت اليمامة واشمخرَّت ... كأسياف بأيدي مصلتينا

إن لليمامة سحرها وفتنتها التي لا تقاوم تهز الخيال وتوحي بالإبداع، وإن شعر وفن السامري النجدي من الفنون الشعبية الراقية في العالم، لكنه لم يدرس حسب القواعد الموسيقية والأصول الشعرية والأدائية التي تقرنه بالموشح الأندلسي، وعلى ألحان هذا السامري وإيقاعاته وأوزانه تنظم الكثير من الأشعار في قرى ومدن وسط نجد، وثمة أغان ذات إيقاعات خفيضة مترددة وبطيئة أبطأ من ألوان السامري الأخرى، وهو سامري منطقة القصيم، وتؤدى من خلاله

أشعار غزلية رقيقة، وأحياناً نفس أشعار السامري الدوسري، ولا يشارك أو يماثل هذا الإيقاع سوى إيقاع المجرور الطائفي.

وكان الشعر النبطي -الشعبي- هو ديوان الناس في جزيرة العرب كما كان الشعر الفصيح ديوان العرب على اختلاف أوطانهم ولهجاتهم، ومع أن الشعر العربي الفصيح لم يختف، لا عن الأحداث القومية العامة أو القبلية الخاصة، ولا عن الوجدان الشعبي.. إلا أن نظمه وكتابته اقترنت بخاصة الناس وأرباب المناصب والعلم وهم قلة، والحق أنه ليس ثمة من مناصب سوى القضاء ومعلمو الكتاتيب، وأئمة المساجد، فالناس يتعلمون من أجل العلم لا من أجل الوظائف أو المناصب، لذلك اقتصر الشعر الفصيح على أغراض لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة أهمها الوعظ والمديح.

أما الشعر النبطي في نجد، والحدري والحميني في الحجاز، والقلطة في الشمال، والغوص في الشرقية، والحرث في الجنوب وغير ذلك الكثير، فقد واكب الأحداث والوجدان الشعبي وأرخ لحوادث ومناسبات كثيرة، لذلك فمناحيه وأغراضه تفوق أغراض الشعر الفصيح، بل إن لكل حرفة من الحرف أو مناسبة من المناسبات أشعارها وألحانها التي تقتصر عليها ولا تصلح لسواها، لقد قام بدور الشعر العربي ـ الفصيح ـ حين غيابه.

كان للسني أشعاره، وللحفار ـ حفار الآبار ـ أشعاره، وللحصاد، وللدياسة، وللبناء، وللحرث، وللغرس، وللزواج، وللحرب، وللسمر، لكل ذلك أشعاره، حتى جاءت بحوره أضعاف بحور وأوزان الشعر الفصيح، لكن شعر الحرب والاستعداد للمعارك هو الأشهر والأهم حين ذاك، وله فرسانه من الشعراء،

أمثال عبدالله بن خالد، والعريني، وابن صفيان، وابن دحيم، وهو أشعرهم وأشهرهم، يلي ذلك شعر السمر وإحياء ليالي الأعياد والمناسبات السعيدة، وقد يغنى لساهرة القريض -اللديغ- فقط، إذ لا شعر ولا غناء للمناحي إلا في ما ندر، وحتى المراثي لا يغنى منها سوى ماله علاقة بالعاطفة، كرثاء زوج لزوجته أو العكس، أو رثاء عاشق لمعشوقته التي يرمز إليها في الغالب، ويعرف هذا النوع من الرمز بـ«الغطو» أو يرثي أو يصف من خلالها -رمزاً- فرساً أو غزالاً أو خلاف ذلك.

وكان السامري هو جريدة الشعر الغزلي والناشر له في أنحاء الجزيرة العربية في العهد الجديد مصاحباً للرفاه والدعة والأمان، وكان هذا الشعر محبرة التاريخ السياسي والاجتماعي لقرون خلت -يرافقه أحياناً شعر الحكمة والحنين إلى الأوطان- وكان الناس في مسامراتهم أو مساهرتهم لا يتعدون ألوان السامري، ولا يتعدون عن أسماء شعراء العاطفة والحب والغزل وهم كثيرون جداً، ولكن القليل منهم هم أساتذة هذا الفن وشعره، ويأتي عبدالمحسن الهزاني، الشهير بمحيسن في مقدمتهم، وهو شاعر الغزل والحب والحوار الشعري الجميل، مثله كمثل امرئ القيس أو عمر بن أبي ربيعة في الشعر الفصيح.

ويقال إن جماعة محيسن الهزاني حين استسقوا مرة لم يرغبوا أن يصلي معهم صلاة الاستسقاء، فصلوا ولم ينزل المطر، ثم أن عبدالمحسن هذا خرج إلى البر ونظم قصيدته الشهيرة - في الاستغاثة وطلب الله ما استطاع فأمطروا بعد ذلك والله أعلم.

يقول في مطلع إحدى قصائده الغزلية:

قالوا تتوب من الهوى قلت لا لا

إلا ان تتوب الشمس عن مطلع الشرق

ومطلع آخر:

بيني وبين صويحبي وقفة أحوال

يا من يدير الصلح بينه وبيني

واعطيه ما تملك يميني من المال... الخ.

ويأتي بعده أو في صفة شاعر نجد الذائع الصيت «محمد بن لعبون»، ويقال عنه: «بعد ابن لعبون كلهم يلعبون» وهو صاحب قصيدة مي، وصاحب القصيدة الشهيرة في الخليج والجزيرة العربية، ومطلعها:

يا علي صحت بالصوت الرفيع

يا مرة لا تذبين القناع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن الشعراء الذين يتغنى بشعرهم السمار «وأهل السامري» سوى ابن لعبون والهزاني: سليم بن عبدالحي، ابن ربيعة، ابن سبيل، ابن شريم، القاضي، ابن دويرج، الشريف بركات، الوقداني، نمر بن عدوان وغيرهم جحافل من الشعراء الذين أثروا الذهن الشعبي بروائعهم ووصلوا القديم بالحديث وسجلوا مآثر ووقائع وتواريخ ذات دلالات هامة لإنسان هذه الأرض، وإن شاب شعرهم العامي إلا أن تلك لهجتهم حينذاك، وقد تراجع الآن هذا اللون من الشعر – وأفضله ما يغنى– بانقطاع عمالقته وبعودة الشعر الفصيح إلى ميدانه.

* * *

وفي الليل حيث يسري صوت الدفوف والطبول متناغمة مع الأصوات الشجية لغناء السامري، تُعرف هذه التجمعات، ويستدل على أماكنها بذلك، ويدرك من يسمعهم بأن لديهم مناسبة زواج، أو أن لديهم «ملدوغاً» يساهرونه، وارتفاع هذه الأصوات يعني أن الدعوة عامة فيتقاطر محبو السمر والسامري، ومحبو إنقاذ الملدوغين من سم الأفاعي.

ولهم في إحياء السمر حكايات وحكايات.. من ذلك أنهم إذا علموا بأن القرية الفلانية بها سامري، أو سيقام بها «سامري»، ذهب من حفاظهم اثنان أو ثلاثة، إلى حيث ذلك ولو كان على بعد عشرات الكيلو مترات، وإذا اقتربوا من مجموعة المغنين اختفوا إما خلف الأسوار أو وسط الحقول وبين أعواد الزرع، وتابعوا القصيدة الجديدة، ورددوها مع المجموعة ولكن بأصوات خافتة أو بينهم وبين أنفسهم، ولا تنتقل المجموعة إلى قصيدة أخرى إلا وقد حفظ هؤلاء النفر القصيدة الأولى وقفلوا بها راجعين إلى بلدتهم، فثمة مجموعة تنتظرهم فيقيمون سامرهم، وتنتقل القصيدة الجديدة إلى مجموعة من القرى في ليلتها الأولى، وقد تغطي في نفس الليلة مسافة خمسين كيلو متراً وأكثر، بين مجموعة من القرى.

* * *

عاد الصبي - الكالف - سعيد بصحبة المويلحي وفرقته المعروفة في البلدة بـ«أهل السامري»، وبعد إلقاء السلام على عجل اتخذوا أماكنهم وسط العريش، فقال الميمون:

أسرعوا حتى لا ينام ابن يوسف فيغشاه السم، ابدأوا.. ابدأوا. فبدأوا بالقصيدة الشعبية الشهيرة للشاعر سليمان بن شريم:

البارحة ساهرٍ والدمع يجري
والقلب حزنٍ على فرقا وليفه

كريم يا بارقٍ ينوض حدري
واللي سرى بالغداري يقتدي به

واللي ضرب وادي خلاه يجري
عسى طروش البوادي ترتوي به

متخفيٍ لابس له بشت بدري
حسبي على البشت واللي غرني به

يا مدمج الساق حالي منك مبري
بري النجاجير عوادن صليبه

أبو نهيد كما الفنجال زبري
ويمزع الثوب من حال عصيبه

أبو خديد يشادي نجم فجري
والا القمر لنتحى يبغي مغيبه

أبو قرونٍ تغذى بالشمطري
مثل السفايف على كور النجيبه

أبو عيون الى دلت تخزري
ترمي بالأسباب ويل اللي تصيبه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يا ليـتني عـالم بالغـيب وادري

عن غض الانهاد من هو من نصيبه

من طاب لي طبت له والكل يدري

واللـي تـغلـى علـينـا وش نبـي بـه

إن مت حطوا بدرب البيض قبري

تكفون حطوا على قبري نصيبـه

يا من يجيب الحبيب وياخذ أجري

قـفى بلا سـبـة ربي حـسـيـبـه

ومع سريان أصوات الطبول والطيران وترديد أبيات هذه الأغنية تقاطر محبو السمر والسامري حتى ضاق بهم العريش على سعته.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

قفز «صندل» في وسط الملعب، وكان به زيران، ولكن ليست من أكابرهم ولا هي من أدناهم، وإنما من أواسطهم، ومثل هذه -كما يقولون- لا تقتل صاحبها إن هي غضبت منه، ولا تشترط أشياء يصعب تحقيقها أو تخالف الدين.

وبينما كان العبد صندل يلعب على أصوات وإيقاعات مرثية نمر بن عدوان الشهيرة في زوجته «وضحا» وقد وصلوا إلى البيت الذي يقول:

جيت البزور وقالوا إنا اليتامى   أنا اليتيم اليوم وأنتم تسجون

وكانوا يغنونها على «السامري الشمالي»، إذ أقبل «العتيق ياقوت» فسلم بإشارة من يده، فرد عليه بعضهم بإيماءة من يده وبعضهم بهزة من رأسه.

جلس العتيق ياقوت في طرف الصف مع المغنين والمصفقين، صفقة الشمال، وكان «صندل» الخادم يواصل رقصة زاره في الملعب، لكنه بدل طريقة رقصته التي كانت تمازجها الخيلاء والثقة الزائدة عن الحد، بمجرد أن لمح العتيق ياقوت يجلس في طرف الصف، وكان يعرف أن لمجموعة زيران «العتيق ياقوت» شيخاً.. وشيخ الزيران، تطيعه المجموعة طاعة عمياء، وليس كل من به زيران تسكنه مجموعة بشيخها. وشيخ الزيران لا يهزم صاحبه في حلبة المصارعة أو حلبة الرقص، لذلك ظهر الخوف على وجه ورقصات «صندل» وحد من غلوائه رغم معرفته بتقدير «ياقوت» لآل الميمون لمكانتهم ولقرابته من خادمتهم «أم خير الله» فهي والدة زوجة عمه سعيد الحداد. وكان «ياقوت» مملوكاً لأحد الوجهاء في البلدة، أعتقه منذ سنة رأفة بحاله، حين غلبت على أمره وتصرفاته زيرانه، ومن ذلك أنه يضع ما بيده حين يسمع أهازيج السامري وإيقاعات طبوله، ويترنم طرباً، بل إنه حين يسمع الغناء بالإيقاع السواحلي للبحر الأحمر، وهو نوع «من الدربكة» الأفريقي الأصل، يذهب إلى حيث ذلك لا يلوي على شيء، بل إن في منعه خطراً على حياته، أعتقه سيده حين لم تغادره الزيران، ولم ينفع معه الطبيب، ولا بيع أو أضاعه خاتمه، الذي عثر عليه خلال يومين، بعد إخفائه من سيده، لا يعرف كيف عثر عليه، وهو خاتم عادي من فضة، إلا أنه يمتاز «بفصه» شديد الزرقة الكبير، والمستطيل الشكل كحبة الفستق، يضعه في خنصر يده اليسرى، حين يذهب إلى مرقص السامري.

التفت المويلحي شاعر وملقن فرقته «أهل السامري» وإذا به يرى عباس بن يوسف يتمايل كالثمل من النعاس، فخشي أن يغشاه السم ويخالط دمه فيموت،

وبإشارة من يده إلى تغيير الطرق والإيقاع، تحولت الفرقة إلى طرق آخر على الفور، واختار إحدى القصائد التي تبدأ ـ قبل أبياتها ـ باللولات من الألحان السريعة الدوسرية الصاخبة: لا لا له يا لا لا لا لا لا يا لا له.

وما هي إلا دقائق حتى نهض ياقوت وقفز من طرف الصف إلى وسط الحلبة، كأنما هو قذيفة مدفع كبير، إذ قفز إلى أعلى ثم هبط على قدميه راقصاً. وقد فار الدم الإفريقي الحار في وجهه، حتى كادت أن تنضح به وجنتاه وشفتاه الغليظتان المبيضتان.. واحمرت عيناه الصفراوان ثم عادتا كصفار البيض وجحظتا، «فتلعثم» لسانه ووقف شعر رأسه وصار يهز جسمه من المس، ثم تمايل بعنف مصفقاً بيديه وراقصاً مع صندل في حلبة الرقص التي ضاقت بهما.. فيما هي تتسع لستة أو أكثر من الراقصين، وبعد عشر دقائق أو نحو ذلك تضاعف جنون هذا الياقوت المزيور «فاستشال» واستشاط، وأخذ يتلوى كالأفعى المضروبة في رأسها.. يضرب بقدميه الأرض، وبيديه، ثم صرخ صرخة غير شبيهة بصرخة الإنسان وقفز ليقع بالقرب من المويلحي ويقف على رأسه قائلا بلهجة مخيفة وبصوت آمر يشبه الصراخ:

– غير الطرق.. غير الطرق يا لعين.

فرد المويلحي موجهاً حديثه لزيران ياقوت، وقد ارتهبت وارتعدت مفاصله واختلجت ملامح وجهه بعد أن أخذ الخوف بتلابيب عقله: وكانوا يخاطبون الجن والزيران بلهجتهم الشعبية.

– وش تبون .. وش تبون، حنا على أمركم حاضرين.. حاضرين.

– هات من طرق ابن لعبون.

– ابن لعبون؟!

– أو محيسن.

– أي طرق؟!

– لا يا للا لا لا لا له رباعي خماسي سداسي غير الطرق يالعين.

يقول ذلك وهو يتلوى ويلوح بشلحانه كسمكة البحر ذات الأجنحة العراض.

– أي قصيدة؟!

– قصيدة مي لابن لعبون، أو قصيدة هيا لمحيسن، قصيد هيا «هزك الغليل»(١٧).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

– طيب.. حاضر أبشروا.

– عجل ... غير الطرق يالمويلحي ياللعين.

فقال بعض الحاضرين بسرعة.. «عجل» غير الطرق بضرب الطيران، وعلى الفور «طار النعاس» من عين اللديغ بن يوسف، وكان السم يغالبه، إلا أن خوفه وفزعه من ياقوت المزيور أنساه خطر الموت والسم وهو يرى ياقوت الإفريقي يضرب الأرض بيديه ورجليه حتى أدماهما.. وحتى رأسه كان يضرب به أحياناً.. ويصرخ ويسب ويسخط.. لقد كان ابن يوسف يسمع بياقوت المزيور.. يسمع به فلا يصدق، أما الآن فإنه يراه ماثلاً أمامه كما يرى العريش وما حوله، لذلك فزع وطار النوم من عينه مع صوابه خصوصاً بعد أن رأى الدماء تسيل من جبهة «ياقوت» ويديه، أما الذين يعرفون ياقوت المزيور، فإنهم يعلمون أنه لا

يؤذي أحداً من الحضور وإنما يخشون عليه من نفسه وزيرانه، وفي أساطيرهم أن المزيور إذا استدعى زيرانه وحضروا، فلا بد أن يلبي كل طلباتهم وخصوصاً من أنواع الإيقاعات والأغاني والمأكولات والأطياب.. وإلا غضبوا عليه وكسروا ظهره، لذلك فإن أهل السامري لا يرفضون أية أغنية أو قصيدة أو أي نوع من الطرق والإيقاعات المختلفة حين يطلبها المزيور خشية إن هم رفضوا أن تغضب عليه زيرانه فتكسر ظهره، وحين يشتد الرقص «ويستشيل»[١٨] الراقص فإن الزيران هي التي تطلب على لسان صاحبهاالشعر والإيقاع الذي تفضله، لذلك بادر المويلحي إلى استرضاء زيران ياقوت بقوله: -نغير الطرق.. نغير الطرق، حاضرين يا مرجان يا كبير الجان يالفارس الهجان.. يا مرعب الشجعان فصحح له ياقوت باستهزاء وتعال بقوله:

– يا للاعب الهيمان.. حنا في ملعب رقص.. لا ملعب سباق ومصارعة.. قال المويلحي مستدركاً: يا للاعب الهيمان.. ولكن كيف نغير الطرق و«صندل» يفضل هذا الدور ولم «تنته» زيرانه من كارها.. فغضب ياقوت غضبة جديدة وصرخ بأعلى صوته مرة أخرى وقال كارها:

– ملعون يا لمويلحي ملعون . لازم أنت وفرقتك للطبول تضربون.. ومالكم شغل بصندل المسكون.

فالتفت أحدهم إلى الجالس على يساره وقال – ظنا منه أن المزيور «ياقوت» لن يسمعه جراء الضجة وتداخل الأصوات.

– مسكون بدأ يخربط العبد!!

وهـنا رمقه «ياقـوت» بنظـرة يتطاير مـنها الشرر وهو يقول: غير الطرق يا لمويلحي اللعين، هالحين نعرف منهم اللي يخـربطون.. صندلكم مـربوط في سارية عريشكم، أمرنا بربطه الآن.

قال أحدهم: أمرنا!! صار يأمر وينهى؟!

– قال الآخر بدهشة: مربوط، كيف؟!

فالتفت إليه المزيور مواصلا تهديده وكلامه:

– انظر إليه، تأكد.. ثم متى كان لصند لكم «كار» وأنا موجود؟

فنظر المويلحي ناحية سارية العريش ليرى الخادم «صندل» يقف دون حراك ينظر إلى الملعب ولا يستطيع أن يشارك في الرقص.

والواقع أن ياقوت لم يربط «صندل» بيـديه، لكن زار ياقـوت هو الذي ربط زار صندل –كما يتداولون– لأنه «شيخ زيران» وهو الأقوى ولا بد أن يطاع.. إن الضـعيف هو الأضعف في كل شيء وهو الضـحيـة، إلا في الدين فـالضـعيـف يصبح هو الأقوى بإيمانه، ما سـوى ذلك لم يزل في الموروث الشـعبي وناموس حياة ما قبل الجاهلية الأولى غوامض، شأن الكثير من أسرار هذه الحياة، أسرار الحياة على الحي، ثم الموت سر الأسرار، لم يعد أحد ممن مات ليخبر بالذي حدث له.

مرت هذه الخواطر على ذهن الشيخ حمود الذي لم يصدق أن صندلاً يقف مربوطاً.

بعد ساعات من ضرب الدفوف والغناء والرقص والتصفيق تعب الجميع،

فأرادوا التوقف قليلاً، إلا أن ياقوتا صرخ فيهم -صرخته غير الآدمية- لقد أصبح سامريهم تلك الليلة عملاً يؤدونه من أجل إمتاع زيران «ياقوت». ولا بد أن نشوة الطرب والإيقاعات المثيرة استبدت بزيران ياقوت حتى صرخ فيهم أن لا تقفوا عن قرع طبولكم وألحانكم الشجية، الويل لمن توقف!!

وهكذا استمروا ينتقلون من قصيدة إلى أخرى، ومن طرق لحن إلى طرق آخر.

وبينما هم - وقد عاودهم النشاط والطرب- مع ترديدهم لقصيدة مي للشاعر ابن لعبون في غاية الطرب، وإذا بصوت المبشر يعلو على أصواتهم وقد وقف في باب العريش فتوقفوا إذ عرفوا فيه سعد بن حمد الملقب «بسعد السعد»:

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

- أبشروا ... والبشارة لي. انتصر الإمام.. انتصر أبو تركي.

- الله يبشرك بالخير .. والحامية التركية وش صار فيها - عساه محقهم؟

- طردهم عن بكرة أبيهم عن طريق البحر.

- أبشر بالبشارة.

ارتفعت الأصوات وتداخلت بتبادل التهنئة والدعاء للإمام عبدالعزيز بالنصر والسلامة والعز والتمكين، ثم صافحهم وقد نهضوا لمبادلته التحية والتهنئة، فقال حسين بن زيد بلهجته الشعبية الشجاعة:

- ولدي زيد وشلونه مع الجيش؟

- ولدك.. أشهد أنك خلفت قرم صميدع.

- وعساه سالم مع السالمين؟

- سالم .. وبيوصل مع الجيش إن شاء الله.

- هذي بشارة ثانية، وعثيم؟

- وعثيمٍ سالم.

وبعد أن تحدثوا عن هذه المعركة سائلين ومعلقين تركوا غناء السامري وتحولوا إلى غناء ورقصة العرضة.. بدأها الجد المنصور بقصيدته التي ابتدعها في الحال، فكان مطلعها:

شيخنا اضرب بنا نفداك عرض الخطر   نقسم الروح ما بينك وبين الوطن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

(١) الأعسم: الأعسر الذي يستخدم يده اليسرى أكثر من استخدامه ليده اليمنى.

(٢) ينظله: يحسده ويصيبه بعين.

(٣) المقلاع: وأيضاً المرجامة ـ راجع الفصل الأول قوافل العدد: ٨ .

(٤) السالفة: الحكاية.

(٥) تخطرنا: تمر بنا ونستضيفك أول مرة.

(٦) مثل شعبي أي: قابل الصراخ بصراخ مثله فتسلم من الهزيمة.

(٧) يبالنوم: يا أبا النوم، أي: كثير النوم.

(٨) خذ وخل: أقبل شيئاً وأترك شيئاً، أي: خذ كلامه على علاته.

(٩) جعل: بكسر الجيم ابتداء دعوة في اللهجة الدارجة بمعنى: عسى، فدعا لهذا النوع من التمر ولمن أرثه بالجنة حين أعجبه ثم بالنار حين أكثر منه فآلمه بطنه.

(١٠) يعقب الفنجال «فنجال القهوة» أي: يمر به من يصب القهوة للضيف، فيعقبه دون أن يمد له الفنجان احتقاراً له، فهو لا يستحق أن يأخذ الفنجان قبل الذي يليه، ويعتبر دونياً على هذا الأساس.

(١١) مشب الضوء: المشب مكان ايقاد النار ففي المجلس (القهوة) يسمى مشب الضوء أو (الوجار)، وفي المطبخ مشب (القدر).. إلخ.

(١٢) على طوى: نام وهو لم يأكل شيئاً.

(١٣) إضافة ليست في أصل الأرجوزة.

(١٤) المشراق: كل مكان يقابل مطلع الشمس يجلس فيه شتاء، وفي أمثالهم (الشمس فاكهة الشتاء).

(١٥) لا تعيل: لا تبدأ ضحيتها أي كما في المثل العربي (لو ترك القطا ليلاً لناما).

(١٦) الشلحان: الأكمام الطويلة في الثوب السعودي القديم.

(١٧) هزك الغليل: دعوة. والغليل من الغل.

(١٨) يستشيل: يستشيط ولكن هنا يستشيط طرباً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في شعرية الشعر السعودي
(دراسة في العناوين)

* د. خليل الموسى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثمة تساؤل وملاحظات لا بد منها قبل الدخول في هذه الدراسة: يطرح التساؤل قضية الشعرية في المملكة العربية السعودية، فهل للشعر السعودي شعرية مختلفة في كثير أو قليل من قوانينها وأنظمتها وأنساقها عن شعرية الشعر العربي الحديث والمعاصر، الذي ربما يكون قد أثر فيها تأثيرا مباشراً أو غير مباشر، وبخاصة أن بعض الأقطار العربية كان أسبق من بعضها الآخر إلى النهضة والاتصال بالآخر لسبب أو لآخر؟.

ثم: هل للشعرية السعودية خصوصية في خضم شعرية الشعر العالمي من جهة وفي خضم شعرية الشعر العربي في بعض الأقطار العربية، التي عرفت ازدهاراً ملموساً في النصف الأول من هذا القرن، ثم عرفت قفزة نوعية في

النصف الثاني منه..؟ إن هذا التساؤل حق ومشروع، فلكي نضع أيدينا على تطور شعرية الشعر السعودي، لا بد من موازنة ذلك التطور بما يقابله في بعض الأقطار العربية الأخرى، ولا سيما في مصر ولبنان وسوريا والعراق في النصف الأول من هذا القرن، وفي العراق وبعض الأقطار العربية الأخرى في النصف الثاني منه.

أما الملاحظات، فأولاها: أن التطور في الشعرية غير التطور في العلوم التطبيقية، فقواعد ونظم الشعر تتحكم فيها ثوابت، وأهمها الهوية، وهي متجذرة في التاريخ بقوة، بحيث يتعذر على المتغيرات أن تطفئ شعلتها الأبدية وإن استطاعت أن تقربها حيناً من هذا المؤثر أو ذاك، ثم إن الشعرية تستمد من الشعر، وهو يعود إلى الداخل الإنساني بما يحتويه من مشاعر وإحساسات ومواقف ذاتية وجماعية مصيرية، وهذه قضية رافقته منذ وجوده على هذه البسيطة، وسترافقه إلى ما شاء الله، وأهم موضوعاته الحب والموت والكراهية والبغضاء والألم.. صحيح أن المواقف من هذه الموضوعات والأحاسيس تتطور مع تطور الإنسان والزمن، ولكن الموضوعات الإنسانية واحدة في جوهرها، وهي ثابتة.. أما التطور في العلوم الأخرى فهو متغير، لأن المتأخر منها يُلغي ما تقدمه، ويُبطل العمل به، ولذلك لا يعني التطور في الشعرية دائماً التقدم إلى الأمام، وإنما يعني الاختلاف والتعايش بين الأجناس الجديدة والأجناس القديمة، أو بين الأصول والفروع، ولذلك أيضاً يظل لكل نص شعري نكهته الخاصة به، فالنابغة الذبياني - مثلاً - لا يلغي عنترة أو امرئ القيس. ولا يلغي أبو تمام ما سبقه من شعراء وشعر، وكذا شأن المتنبي وأحمد شوقي والبارودي

وحافظ إبراهيم وخليل مطران وإبراهيم ناجي وأبي القاسم الشابي وبدوي الجبل وسواهم، ولذلك لا تنطلق هذه الدراسة من المفاضلة بين شاعر وآخر أو بين مرحلة وأخرى.

وتنبثق الملاحظة الثانية من الملاحظة الأولى، فما دامت هذه الدراسة لا تنطلق من المفاضلة بين الشعراء أو الشعر أو المراحل، فهذا يعني أنها دراسة وصفية، وهي وصف لما هو كائن دون التدخل في المفاضلة والموازنة والمقارنة، ولذلك هي دراسة بعيدة كل البعد عن المعيارية.

والملاحظة الثالثة: أن الدارس يتوقف عند عدد لا بأس به من عناوين المجموعات الشعرية التي صدرت في داخل المملكة أو خارجها لشعراء سعوديين في كل مرحلة من المراحل، ولكن هذه الدراسة لا تستقصي المجموعات الشعرية كلها، ولا ذلك من مهمتها، فأي دارس يختار وينتقي نماذج من هنا ومن هناك لخدمة الغرض الذي يتوخاه، ثم لا يعني أبداً أن اختيار هذه المجموعة أو تلك أفضليتها، ثم إن الاختيار ربما يعود إلى اطلاع الدارس على هذه العناوين دون سواها.

والملاحظة الرابعة: أن العمل الدراسي تصنيفي أولاً وأخيراً، وإن كان التصنيف في العلوم التطبيقية والأحيائية -كالعلوم النباتية مثلاً، وسواها - سهلاً بعض الشيء، ولكنه صعب في العلوم الإنسانية، وبخاصة في الشعر، وذلك لتداخل المدارس والاتجاهات في المجموعة الشعرية الواحدة، وبخاصة في الشعر السعودي (انظر كتابنا بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور ظافر الشهري: المدرستان الإحيائية والتجديدية في الشعر السعودي - أعلام - موضوعات- خصائص- دمشق ١٩٩٨).

أمـا الملاحظة الأخيـرة: فـهي أن الدارس لا ينظر إلا في جـزء من هذه الشعرية، وهو جزء مصاحب للنص الشعري، وهو العنوان، ولذلك هو لا يدخل إلى النص الشعري، وإنما يتوقف عند عتبة من عتباته، وهو لا يدخل في صميم العملية الشعرية، وإنما يطل عليها إطلالة جزئية، وهذا أمر مشروع في الدراسات النقدية، لأن الشعر السعودي ذو حجم كبير يتعذر معه على أي دارس أن يلم به في دراسة لدورية، ولذلك تقدم هذه الدراسة جزءاً من صورة وصفية عن الشعرية في المملكة، ثم يأتي دارس آخر ليقدم جزءاً آخر من هذه الصورة، وهكذا، وليس معنى ذلك أن العنوان لا يدل على ما تحته، فالعنوان، في استراتيجية التسمية، منبثق من المتن الشعري، وهو دال عليه في معظم الأحيان، أو هكذا ينبغي أن يكون، وإن كان بعض الشعراء يسمون مجموعاتهم أحياناً بعناوين مخاتلة ومخادعة، أو يكون قسم من القصائد مرتبط بالعنوان دون آخر، ويظل العنوان في كل الأحوال عتبة من عتبات النص ومفتاحاً من أهم مفاتيحه، ويستطيع الدارس في كثير من الشعر الجيد أن ينطلق من العنوان وينتهي به في دراسة رفيعة.

يمكننا من دراسة العناوين التي بين أيدينا للشعر السعودي، وما كان إرهاصاً له من الشعر وسبقه بفترة وجيزة، أن نقسم العناوين إلى أربع مراحل، هي:

١- مرحلة العناوين المسجوعة:

هي مرحلة تمهيدية لقيام المملكة العربية السعودية وتوحيدها في ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١هـ، ونتوقف هنا وقفة سريعة عند عنوانين، هما: «عقود

الجواهر المنضدة الحسان مما أنشأه الفقير إلى ربه المنان سليمان بن سحمان»، وواضح من العنوان أن الشاعر هو سليمان بن سحمان، المتوفى قبيل توحيد المملكة، وكانت وفاته في سنة ١٣٤٩هـ. «العقد الثمين في شعر محمد بن عثيمين»، وواضح أيضاً من العنوان أن الشاعر هو محمد بن عثيمين، وهو شاعر مخضرم، عاش قبل توحيد المملكة وعاصرها بما يزيد عن اثنتي عشرة سنة، وكانت له أماديح في رجالاتها قبل إعلان المملكة وبعدها.

يلاحظ على العنوانين ما يلي:

* أنهما طويلان، يتألف الأول منهما من ثلاث عشرة كلمة، ويتألف الثاني من سبع كلمات، وهذا -بالقياس إلى ما جاء بعد هذه الفترة- طويل، وطويل جداً، وربما اقتضى هذا الطول ما سيأتي من صفات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* أنهما مسجوعان؛ وهذه عادة درج عليها شعراء أواخر عصور الانحدار في نهاية الحكم التركي في مصر وبلاد الشام، وكان السجع حينذاك يدل على مقدرة لغوية وخبرة في الصناعة اللفظية، ولذلك كانت كلمتا (الحسان) و(المنان) لتتناسبا مع كلمة (سحمان)، كذلك كانت كلمة (ثمين) لتتناسب مع (عثيمين).

* أنهما يهتمان بالنص الشعري، وهذا ما تدل عليه عبارة «عقود الجواهر المنضدة الحسان» وعبارة «العقد الثمين»، والعقد هو في حد ذاته جميل وثمين، ثم أضيفت إليه الصفات المتتالية في العنوان الأول، وكانت كلمة «عقود» جمعاً للتكسير للدلالة على القصائد التي يتضمنها الديوان، وكأن كل واحدة منها عقد نفيس، أما كلمة «العقد» في العنوان الثاني، فهي معرفة من جهة ودالة على الديوان بأكمله من جهة أخرى.. وهكذا.

* أنهما يهتمان أيضاً بالمؤلف، فالعنوان الأول خص بعدد أكبر من الكلمات التي خصها للنص ذاته بنسبة ٤/٩، وهذا ما كان في العنوان الثاني ٢/٥، وهذا يدل على المرحلة التي جاءت قبل مرحلة الإحياء من توزيع الاهتمام بين النص ومؤلفه.

٢- المرحلة الإحيائية:

وهي المرحلة التي تتميز بالصياغة الإحيائية في الموضوعات والشكل، فتنطلق من نبل الموضوع ووضوح المحتوى ومحاكاة القدماء من فحول الشعر العربي، وبخاصة في العصر العباسي، كأبي الطيب المتنبي وأبي تمام والبحتري وأضرابهم، وتكثر في دواوين هذه المرحلة المعارضات، ومحاورة القدماء، والتشبه بهم، والاهتمام بالمطالع، والاعتناء بالديباجة الرصينة وطول النفس الشعري، وما إلى ذلك مما يطالعه المرء في دواوين شعر الإحياء في مصر وبلاد الشام والعراق والخليج العربي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونتوقف هنا عند بعض العناوين لمجموعات شعرية لثلاثة شعراء يمكننا أن نصنفهم ضمن هذه المرحلة، وهم:

* الشاعر ضياء الدين رجب المتوفى سنة ١٣٩٦هـ، وله: زحمة العمر- سبحات- رثاء.

* الشاعر أحمد قنديل المتوفى سنة ١٣٩٩هـ،وله: شمعتي تكفي - أوراقي الصفراء- اللوحات- نار- القناديل- نقر العصافير- قاطع الطريق- الراعي والمطر- ديوان الأبراج.

* الشاعر محمد بن علي السنوسي المتوفى سنة ١٤٠٧هـ، وله: القلائد - الأغاريد- الأزاهير- الينابيع- نفحات الجنوب.

يلاحظ على هذه العناوين ما يلي:

* القصر، فهي عناوين يتألف معظمها من كلمة واحدة، ولا تزيد كلمات الأخرى على اثنتين، وهذه نقلة نوعية بعد مرحلة العناوين الطويلة المسجوعة.

* العنوان موجه إلى النص، ومن ذلك: سبحات - رثاء- اللوحات- نار- القناديل- نقر العصافير- ديوان الأبراج- القلائد- الأغاريد- الأزاهير- الينابيع- نفحات الجنوب، وهي تدل في معظمها على جودة الصياغة، وبخاصة في «القلائد- الأغاريد- الأزاهير- الينابيع- اللوحات- القناديل.. إلخ»، وهذا يعني أن الشاعر السعودي في هذه المرحلة يهتم بصناعة النص وجماليته.

* العنوان موجه إلى المؤلف، ومن ذلك العناوين التالية: زحمة العمر- شمعتي تكفي- أوراقي الصفراء، وهذا يشير إلى التداخل بين الذاتي والموضوعي وبين الشاعر والشعر في هذه المرحلة، فهي مرحلة منبثقة مما قبلها في الصياغة وممهدة لمدرسة أو مرحلة التجديد التي تليها.

* الوضوح، وهي سمة تلازم مدرسة الإحياء في الشعر الإحيائي العربي عامة والشعر السعودي بخاصة.. والعناوين تشير إلى هذه السمة بسهولة.

٣- المرحلة التجديدية:

وهي مرحلة يسعى فيها أصحابها إلى التجديد في المحتوى والشكل، وأهم

ما تتسم بالتجديد في مفهوم الشعر ورسالته، والاتجاه إلى التعبير الذاتي والموضوعات الجديدة، ويكثر فيها النظام المقطعي الذي عهدناه عند جماعة أبولو في مصر والرباعيات، ولا تخلو مجموعاتهم من شعر التفعيلة .. أما الموسيقا فهي سلسة سريعة، والألفاظ مأنوسة يومية، والصورة عفوية لينة، ويغلب على هذه الأعمال الطابع الرومانسي، وإن كان التجديد لا يقتصر عليه في هذه الدواوين.

ربما كانت هذه المرحلة ذات حجم أكبر مما سبقها، ونحن نتوقف عند عناوين مجموعة لعدد من الشعراء، وهم:

- حمزة شحاتة المتوفى سنة ١٣٩١هـ، وله: شجون لا تنتهي.

- محمد حسن عواد المتوفى سنة ١٤٠٠هـ، وله: أماسي وأطلاس – البراعم- نحو كيان جديد- في الأفق الملتهب – الساحر العظيم- قمم الألب- رؤى أبولو.

- طاهر عبدالرحمن الزمخشري المتوفى سنة ١٤٠٧هـ، وله: أحلام الربيع – همسات- أنفاس الربيع- أغاريد الصحراء- على الضفاف- عودة الغريب- الأفق الأخضر- الشراع الرفاف- معازف الأشجان- نافذة على القمر- عبير الذكريات.. إلخ.

- حسين سرحان، وله: أجنحة بلا ريش – الطائر الغريب- الصوت والصدى.

- محمد حسن فقي، وله: قدر ورجل- رباعيات.

- حسن عبدالله القرشي، وله: مواكب الذكريات- زحام الأشواق.
- عبدالله بن إدريس، وله: في زورقي.
- الأمير عبدالله الفيصل، وله: وحي الحرمان- حديث قلب.
- محمد الفهد العيسى، وله: الإبحار في ليل الشجن.
- محمد عبدالقادر فقيه، وله: أطياف من الماضي.
- فؤاد شاكر، وله: وحي الحرمان.
- أحمد سالم باعطب، وله: عيون تعشق السهر.
- يوسف أبو سعد المتوفى سنة ١٤١٩هـ، وله: قطرات من بحيرة العشق - البحر والضفاف.

يلاحظ على هذه العناوين ما يلي:

* هيمنة الاتجاه الذاتي (الرومانسي) على العناوين، فهي إما أن تشير إلى الشاعر بضمير المفرد المتكلم كما نجد في «في زورقي» للشاعر عبدالله بن إدريس، وإما تشير إلى حالة الشاعر بضمير المفرد الغائب أو سواه، ولكنها تتضمن الحالة الذاتية والوجدانية كما في العناوين التالية: «شجون لا تنتهي»، وهي شجون الشاعر نفسه، و«قدر ورجل»، وهو قدر الشاعر نفسه، و«أجنحة بلا ريش» تشير إلى أجنحة الشاعر، وكذا الشأن في «عودة الغريب» و«مواكب الذكريات»، و«زحام الأشواق» و«وحي الحرمان»، و«أطياف من الماضي» و«الإبحار في ليل الشجن» و«عيون تعشق السهر»، أما عنوانا ديواني الشاعر الأمير «وحي الحرمان - حديث قلب» فهما خير مثل على غلبة الاتجاه الذاتي الرومانسي التجديدي في هذه المرحلة محتوى وصياغة.

* **الموضوعات الجديدة:** إن هذه العناوين تفرز موضوعاتها الرومانسية، كالحنين إلى الماضي والذكريات (أطياف من الماضي- مواكب الذكريات- عبير الذكريات)، والحديث عن الغربة والاغتراب والألم (وحي الحرمان- حديث قلب- الإبحار في ليل الشجن - عيون تعشق السهر- معازف الأشجان- عودة الغريب- أجنحة بلا ريش- الطائر الغريب- شجون لا تنتهي.. إلخ)، وحب الحياة والجديد (البراعم- نحو كيان جديد- في الأفق الملتهب- همسات- أنفاس الربيع- أحلام الربيع- الأفق الأخضر).. إلخ.

* **الوضوح:** إن هذه العناوين دالة على ما تحتها من مضمونات وموضوعات، وهي تتسم بالوضوح والبساطة، فالشاعر يتحدث عن تجارب ذاتية بعيداً عن الرموز واللامباشرة.

* **إلهامية الشعر:** تدل بعض العناوين على أن الشعر إلهام، وهذا ما يتطابق مع نظرية الشعرية في المذهب الرومانسي التي تذهب إلى أن الشعر عفوي وتلقائي بعيد عن الصنعة والتجويد، والعناوين الدالة على ذلك (وحي الحرمان - حديث قلب- شجون لا تنتهي - الصوت والصدى- أنفاس الربيع - أغاريد الصحراء- معازف الأشجان- عبير الذكريات - مواكب الذكريات- زحام الأشواق)..إلخ.

٤- مرحلة العناوين المعاصرة:

مرحلة انتشرت مؤخراً في شعر بعض الشباب، وهي تقترب من الشعر السريالي، وتتوزع بين قصيدة التفعيلة وقصيدة النثر.. نتوقف عند بعض هذه العناوين:

- أيورق الندم؟ للشاعر سعد الحميدين.
- تهجيت حلماً تهجيت شعراً، للشاعر محمد الثبيتي.
- رياح جاهلة لمحمد عبيد الحربي.
- فأس على الرف لعلي العمري.
- كرة صوف لُفَّتَ على عجل لأحمد كتوعة.
- خشب يتمسَّح بالمارة - خرجتُ من الأرض الضيقة، لإبراهيم الحسين.
- سنابل في منحدر - أنقاض الغبطة، لمحمد الدميني.
- نقف ملطخين بصحراء، لأحمد الفقيه.
- قبل أن لعوض الجهمي.
- ظل يتقصف لأحمد الملا.
- الأصابع تماس أمومتها لخالد مصطفى.
- وراء السراب، لفوزية أبو خالد.
- الرمل إذا أزهر، لبديعة داود كشغري.
- أوهام صغيرة (أو التي تراود الموهوم في الحمَّى)، لغسان الخنيزي.

يلاحظ على هذه العناوين:

* أنها تتراوح بين القصر والطول، فبعضها لا يتعدى الكلمتين، مثل (أيورق الندم- رياح جاهلة- أنقاض الغبطة - قبل أن..)، وبعضها طويل، مثل: (كرة صوف لفت على عجل - أوهام صغيرة (أو التي تراود الموهوم في الحمَّى).

* أنها تستخدم أحياناً الرمز والمثل في العنوان، مثل (فأس على الرف- أنقاض الغبطة- خرجت من الأرض الضيقة)، وهذا ما يفترض أنها نصوص مفتوحة على آفاق القراءة والتأويل والتعدد والاختلاف إذا كان ما تحت العنوان شعراً.

* أن الصورة فيها ذات طابع سريالي، ومنها «الأصابع تمارس أمومتها - خشب يتمسح بالمارة - أنقاض الغبطة - نقف ملطخين بصحراء - ظل يتقصف..).

* التفكك واللامنطقية: وهذه سمة ناجمة عن الصورة السريالية، وذلك إذا وضعنا في الحسبان أن الكتابة السريالية آلية نفسية يدوية محكومة باللاوعي وللاوعي منطقه الخاص أو اللامنطق، ولذلك أصبح للغبطة أنقاض ودمار، وللأصابع أمومة، وأخذ الخشب يتمسح بالمارة وكأنه حيوان أليف، وصارت الصحراء كشيء يلطخ به، أما الظل فهو يتقصف كالغصن اليابس، وهكذا.

أما التفكك في العنوان فهو ظاهر في عنوان مجموعة الخنيزي «أوهام صغيرة» (أو التي تراود الموهوم في الحمّي).. ويذكرني هذا العنوان ببدايات المسرحية العربية في النصف الأول من القرن الماضي حين كان المؤلف يضع حرف العطف (أو) ليفصل بين عنوانين لعنوان واحد، وفي أمثلة ذلك مسرحية «أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد» ومسرحية «الحسود السليط أو السليط الحسود» لمارون النقاش، ومسرحية «لباب الغرام، أو الملك متريادات» لأبي خليل القباني.

* الغموض والضبابية: إن معظم هذه العناوين غامض وضبابي، ومع أن الشعر بطبيعته ذو لغة ضبابية إيحائية كما ذهب إلى ذلك البحتري وأبو تمام والشابي وسواهم، فإن الغموض في بعض هذه المجموعات لم يكن نتيجة لتجربة حقيقية، وإنما هو مجاراة للعصرية ولفت الأنظار.

هذه قراءة سريعة في شعرية الشعر السعودي من خلال ما أصاب العنوان من تطور، وهي قراءة تشير إلى أن في كل شعرية سمات ثابتة، وهي باقية، وسمات متحولة، ولذلك تتغير هذه الشعرية بتغير الظروف والمعطيات والمؤثرات، ولعل الزمن هو أقوى عامل للتغيير والتطور.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com